جائزة غونكور
خيار الشرق

سورج شالاندون



الجدار الرابع

رواية





سورج شالاندون

الجدار الرابع

روايــة

ترجمة: كيتي سالم

دار الفارابي

الجدار الرابع

SORJ CHALANDON

LE QUATRIÈME MUR

roman

BERNARD GRASSET

الكتاب: الجدار الرابع (رواية)
المؤلف: سورج شالاندون
ترجمة: كيتي سالم
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/ ٣١٨١ - الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٥
ISBN:978-614-432-219-2

***

العنوان بلغة الأصل الفرنسية

LE QUATRIÈME MUR

roman

de SORJ CHALANDON

BERNARD GRASSET

ISBN: 978-2-7082-4044-5

[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محتَرَف القول الجريء بإدارة غازي برّو

Atelier.oser.dire.1@gmail.com / بيروت موبايل: 70216140]

Réalisation et traduction de l'ouvrage: Atelier oser dire dirigé par Ghazi Berro



«Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges SCHEHADE, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires étrangères et du Développement international, et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban».

الإهداء

إلى فالنتين التي تسألني، دوماً، أيحق لها أن تحمل دبدوبها وتأخذه معها إلى السماء

التمهيد

«هذه هي الشخصيات التي ستمثل قصة **أنتيغون**؛ تلك الصغيرة النحيلة، الجالسة هناك، والتي لا تنبس ببنت شفة. تنظر أمامها مباشرة. إنها تفكر، تفكر في أنها ستكون **أنتيغون** بعد قليل، وأنها ستنبثق فجأة من الشابة النحيلة الضاربة إلى السمرة والمنطوية على نفسها والتي لا يأخذها أحد من أسرتها على محمل الجد، وستنتصب وحدها أمام العالم، وحدها أمام كريون، خالها، الملك. تفكر في أنها ستموت، وهي لا تزال شابة، وأنها هي أيضاً، كان بودها أن تعيش. لكن ليس هناك ما يمكن فعله. إنها تُدعى **أنتيغون**، وإن عليها أن تمثل دورها حتى النهاية.»

جان أنويْ،
أنتيغون* (١٩٤٢)

---

* أنتيغون هي ابنة من زواج محارم غير مقصود بين الملك أوديب ملك ثيفا (اليونان) ووالدته جوكاستا (وبالتالي، أنتيغون هي أيضاً شقيقة والدها أوديب، وحفيدة والدتها جوكاستا). وهي موضوع القصة الشعبية التي قالت إنها حاولت تأمين عملية دفن محترمة لشقيقها بولينيسيس، على الرغم من أنه كان خائناً لثيفا.

في الإصدار الأقدم من القصة، تجرى جنازة بولينيسيس خلال عهد أوديب في ثيفا. ومع ذلك، في أفضل الروايات المعروفة، تراجيديا سوفوكليس (أوديب في كولونس) ومسرحية (أنتيغون)، تحدث القصة في السنوات التي تلت نفي أوديب وموته، وكفاح أنتيغون ضد كريون. تنتهي مسرحية أنتيغون لسوفكليس بكارثة، حيث إن كريون ابن هيمون، الذي أحب أنتيغون يقتل نفسه. كما تقتل الملكة يوريديس، زوجة الملك كريون، نفسها في نهاية القصة نتيجة لرؤية مثل هذه الأعمال التي سمح بها زوجها، لذلك تشير وفاتها إلى الأقدار الثلاثة في الأساطير اليونانية.

كتب الكاتب الدرامي يوربيديس أيضاً مسرحية بعنوان أنتيغون، وهي مفقودة، ولكن الكتاب اللاحقين حفظوا بعض نصوصها، ومقاطع منها، وهي موجودة في مسرحيته المرأة الفينيقية، في مسرحية يوربيديس، تم تفادي الكارثة من خلال وساطة ديونيزوس، وتبع هذا زواج أنتيغون من هيمون.

العناصر المختلفة للأسطورة تظهر في أماكن أخرى. وصف لوحة قديمة من فيلوستراتوس إيماجينيس ii. 29) يشير إلى وضع أنتيغون جثة بولينيسيس في المحرقة الجنائزية، وهذا أيضاً مصور على تابوت في [[فيلا دوريا [بمفيلي] فيلا دوريا بامبيلي]] في روما. وفي [جايوس يوليوس هايجيناس] رواية هيشينس للأسطورة، التي ترتكز على ما يبدو على تراجيديا لبعض أتباع يوريبيديس، حيث يتم تسليم أنتيغون بواسطة كريون لعشيقها هيمون ليكون القتيل، يحملها سراً، ويخفيها في كوخ راعٍ، حيث تلد ابنه، مايون. عندما يكبر الصبي، يحضر بعض الجنازات في ثيفا، حيث يتمّ التعرّف إليه من خلال علامة التنين على جسده، مما يقود إلى اكتشاف أن أنتيغون لا تزال حية. ويتدخل نصف الإله هيركليس، متذرعاً لمصلحة كريون ضد هيمون، الذي يذبح نفسه بعد العثور على جثة أنتيغون. وقد مثلت هذه الوساطة من قبل هيراكليس أيضاً في مزهرية مرسومة. (Heydermann, Über eine nacheuripideische Antigone, 1868).

١

طرابلس، شمال لبنان

الخميس ٢٧ تشرين الأول ١٩٨٣

سقطت أرضاً ثم نهضت ودخلت المرآب، وأنا أترنح بين الأنقاض. النيران تلف المكان، وكذلك الدخان، والغبار، فرحت ثانية أبصق الجص الذي يحرق حنجرتي. أغمضت عينيَّ، ووضعت يديَّ على أذنيَّ، فاصطدمت بجدار صغير، وانزلقت فوق حبال معدنية. كان الانفجار قد اقتلع نصف السقف، والإسمنت الملتهب راح يصفع كل ما حوله بصوت عال، وكانت هناك حفرة خلف هيكل السيارة. إنه أخدود أحدثته الحرب، وانفتح الزفت على شكل تويجات وصلت حتى قلبه الرملي. ارتميت وسط الشظايا كما يتعثر المرء، كجسم من الخرق، بصدر ممزقٍ. كنت أرتجف، كما لم أرتجف هكذا على الإطلاق. كانت ساقي اليسرى الرعناء تبغي الهرب، تريد أن تتركني، شأن جرادة وجلة في أعشاب الصيف فألصقتها بيديَّ على الأرض حيث كانت تنزف. لم أشعر بشيء، وكنت أظن أن الجرح والجريح لا يشكلان إلّا شخصاً واحداً. وفي لحظة الاصطدام، يصرخ الألم معبراً عن ذاته، لكن الدماء هي التي أعلمتني الخبر السيئ. لم يكن هناك صدمة ولا ألم، اللهم إلّا عصيري الدبق. كان بنطالي ممزقاً، يخرج منه الدخان، وساقي تنتفض

ألماً شأن ألم الأضراس. التصق قميصي بجسدي من العرق، وكنت قد أخذت حقيبتي، لكنني تركت سترتي في سيارة مروان، وكذلك أوراقي، ونقودي، أي كل ما بقي لي، ولم أكن أظن أن دبابة اقتحام يمكنها أن تُطلق النار على تكسي.

ــ اخرج من هناك، يا جورج!

كنا نسير بمحاذاة الشاطئ حين أشرقت الشمس من خلف الهضاب. وبعد المنعطف مباشرة، كانت تربض دبابة سورية رملية اللون، ضخمة، فقطعت علينا الطريق، في حين راح سائقي الدرزي يشتم، وتوقف فجأة، أما أنا فقد كنت نائماً، فانتفضت. انتابه الهلع، فتراجع إلى الخلف نحو المنحدر المطل على البحر، واستيقظ هيكل السيارة، كأن لم يكن هناك شيء، شأن نفحة، وراحت فوهة المدفع تدور.

ــ بالله عليك، اختبئ تحت الغطاء!

مددت يدي نحو المقعد الخلفي، أخذت حقيبتي، وبحثت عن سترتي، وعن جواز سفري، دون أن أرفع نظري عن دبابة الموت. ثم عدلت عن ذلك. كانت الفوهة المعدنية تجابهنا، وراح الضجيج يعصف في رأسي.

ــ لن يطلق النار! لا يستطيع أن يطلق على تكسي!

كان معين أحمر ودائرة صفراء قد رُسما على برج الدبابة. إنها رسوم مألوفة للوحة تلميذ، وكانت هناك ثلاثة أرقام عربية على الصفيح الأبيض. راح مروان يقطع الطريق وقد انحنى كثيراً. مشى نحو الملجأ،

الذي هو مرآب محطم، وكانت الجدران التي سوّدها السناج مثقوبة بالشظايا، ففتحت الباب من ناحيتي، وركضت مشدوه الفم نحو الخربة الفاغرة.

قال لي صديقي في المرة الأولى:

ـ حين تسقط القذائف، افتح فمك، فإن لم تخفف الضغط عنك، تنفجر طبلتا أذنيك.

حين دخلت المرآب كان خارجاً وهو يركض.

ـ تركتُ المفاتيح على لوحة القيادة!

المفاتيح؟ لم يكن للجملة أي معنى في الوقت الذي كان فيه المدفع يلاحقنا. لقد كنت من يدخل، في حين كان هو الذي يخرج، فتردّد المدفع أمام هلعنا، وخرجت الطلقة حين كنت أضع قدمي في العتمة.

سقطتُ كما يموت المرء، وأنا أهوي على بطني، فتهشم جبيني والتصق نحري بالأرض إثر صفعة نارية. في الداخل كما في الخارج، كانت قدماي على التلّعة، ويداي على الإسمنت، وصعق جسدي، وكان نور أغبر يمزِّق الإسمنت. نهضت حيث الدخان كثيف والغبار رماديٌّ. كنت أختنق، والرمل يملأ حنجرتي، وقد انفتحت شفتاي، وتصاعد الدخان من شعري، فلم أعد أرى، وكانت شذرات فضية تمزق جفنيَّ. لقد سقطت القذيفة، لكنها لم تنفجر حتى ذاك الوقت. لحقت الصاعقة بالوميض، تمزق الفولاذ. ثمة رائحة بارود، وزيت حار، ومعدن يحترق. ارتميت في الحفرة لحظة القصف، وصعدت معدتي كلها إلى حنجرتي، فتقيأت. فخرج سيل من الصفراء وقطع من

لحمي، وصرخت من خوفي وهلعي. كانت قبضتاي مغلقتين وأذناي داميتين، وقد غمرني التراب المالح والظلام الدبق.

كانت المصفحة تتحرك، وتصر بأزيزها نحو المرآب. لم أكن أراها، لكنني كنت أسمع قوتها. راح المدفع يتردد، يمنة، ويسرة، بآليته الصدئة، وكان غطاء القذيفة قد انطلق، محدثاً صدمة معدنية تردد صداها عميقاً على الطريق، وعمَّ سكوت.

ـ هذه مصفحة سوفيتية، من طراز (T55)، أشبه بجد عجوز.

انتفضت حين كان الصوت أجشَّ يتحدث بإنجليزية رديئة، واستلقى رجل مسن على ظهره، في الحفرة، بالقرب مني في العتمة، مع أنني لم أكن قد لاحظته.

ـ أخفض رأسك، سيعيد هذا إلى موضعه.

كان يدخن، بكوفيته، ولحيته البيضاء، والسيجارة بين إصبعيه. وبالرغم من الدبابة، والخطر، ونهاية عالمنا، راح يدخن وفمه شبه مفتوح، تاركاً غيمة هادئة تهيم على شفتيه.

ـ هل وضعك مريح؟

أبدى إشارة نحو بطني حيث كنت أضغط على سلاحه، وقد التصق أخمصه بفخذي وصُوب مخزنه نحو جذعي. ارتميت على بندقية آلية هرباً من القذيفة، ولم أبدِ حراكاً، فهزّ رأسه مبتسماً. في الخارج، بدأت المصفحة تتحرك، وزأر المحرك الذي أسيئت قيادته.

همس الرجل العجوز قائلاً:

ـ إنها تتراجع.

ترك ظل الدبابة مكاناً لنور الفجر وكذلك للأعشاب المحترقة.

استمرتْ في التراجع، أما أنا فقد انتظرتُ ضحك النوارس كي أتنفس. نهضت مستنداً إلى مرفقي وفمي مفتوح.. بحثت عن مروان وسط الصخب، ثم في الصمت. أملِت أن يعود صديقي، وهو يهز مفاتيح سيارته ضاحكاً فوق رأسي، مشيداً بتهوره لعودته إلى سيارته. إنه مجنون وبخاصة لأنه تبعني في هذه الحكاية البلهاء. سيأخذني بين ذراعيه الأخويتين، وهو يبارك السماء لأنها حمتنا. بقيت فترة طويلة آمل ذلك، وكان الرجال في الخارج يطلقون الرصاص من أسلحة خفيفة، فتُسمع صيحات، وأوامر وضجيج حربي. كان هناك وابل من طلقات بندقية آلية، فتدحرجت على جانبي، وساقي تنزف بدفق عنيف. نزع الفلسطيني حزامي بلا حذر وجعله مشدّاً على فخذي، في حين كنت مستلقياً على ظهري، وكان الألم يشتد وهو يطرقني بضرباته. وضع غطاءً تحت رأسي، وقد رفعني قليلاً عن حافة الحفرة.

حينئذٍ رأيت مروان، وقد تجاوزت ساقاه عرض الطريق، فسقط ثانية على ظهره، وقد انتزع الانفجار ملابسه، وكان عارياً ومضرجاً بدمائه.

كانت الدبابة تتنحنح باستمرار، وهديرها يتصاعد.. فعاد أنين الريح، وكذلك نفحة البحر. استدار الفلسطيني العجوز على جنبه، وقد أسند مرفقه إلى الأرض وخده إلى يده. راقبني، فهززت رأسي. كلا، لم أكن أبكي، ولم تعد عندي دموع. قال لي: إنه يجب الحفاظ على بعض الدموع للحياة، وإنه يحق لي الخوف، والغضب، والحزن.

جلست بتثاقل، ثم أبعدت سلاحه بقدمي، فاقترب مني، وكلانا في الحفرة، وقد عُلِق على عروة جيبه شعار مزخرف لمنظمة فتح. أخذ ذقني بلطف فاستسلمت له، وأدار وجهي نحو ضوء النهار، ثم انحنى. تحت شاربه المهترئ، كانت شفتاه مفتوحتين، فظننت أنه سيقبلني. أمعن فيَّ النظر حيث كان يبحث عن شيء ماً، وأصبح وقوراً.

تمتم الرجل العجوز قائلاً:

ـ لقد لاقيت الموت، لكنك لم تَقتُل.

أعتقد أنه اطمأن. أشعل سيجارة، وجلس على كعبيه. ثم سكت، ناظراً إلى النور الواهن من الخارج، ولم أجرؤ على أن أقول له إنه مخطئ.

٢

صموئيل أكونيس

لم أكن أعرف، طوال أشهر، أن سام يهودي. كان يونانياً ولم يكن يدعي شيئاً غير ذلك. إلّا أننا، أنا ورفاقي، غالباً ما طرحنا أسئلة عنه. كان غريباً، وأكبر منا سناً، ومختلفاً عنا في كل شيء. إنني أتذكر يوماً من أيام نيسان من عام ١٩٧٤، حيث كنا نسير نحو قصر الميتواليتيه (Mutualité)، في باريس. كنا نمشي وسط الشارع، وهو يتبعنا على الرصيف بسبب قصر أنفاسه فبدا متوتراً، بوجه منقبض. لقد أجاب عن صراخنا «فلسطين ستنتصر» بقوله: «فلسطين ستحيا» دون أن أتساءل عن الفرق الذي أجراه بين الانتصار والحياة. كنت أحمل وعاءً من الطلاء الأخضر، والرفاق خلفي ينقلون الطلاء الأبيض والأحمر والأسود. حدث ذلك قبل ساعتين من اجتماع صهيوني، فجئنا لنرسم علماً فلسطينياً أمام مدخل البناء.

احتج سام قائلاً:

ـ ليس هذا اليوم يوم ابتهاج.

عشية ذاك اليوم، الخميس ١١ نيسان من عام ١٩٧٤، كان ثلاثة أعضاء من جبهة تحرير فلسطين قد هاجموا كريات شمونة، في الجليل. استهدفوا مدرسة لكنها كانت مغلقة بسبب عيد الفصح اليهودي.

دخلوا حينذاك إلى بناية بلا تحديد، وذبحوا ثمانية عشر شخصاً منهم تسعة أطفالٍ، قبل أن يقتلوا أنفسهم.

اقترح سام قائلاً:

ـ نستطيع أن نؤجل عملنا، أليس كذلك؟

كان هو وحده من فريقنا الذي يُعارض هذا الطلاء الحربي. طرحنا عرضه على التصويت، فبقي هو وحده من جهة، وكان في الجهة الأخرى كل الذين يُقدرون أن هذه المجزرة لا تُغير شيئاً من ألم فلسطين.

حتى إن واحداً منا ادعى بقوله:

ـ إنه ثمن النضال.

تساءل سام قائلاً:

ـ تسعة أطفالٍ؟

نهض، بوقار، وهدوء؛ فمنذ ثلاثة أشهر مضت على لجوئه إلى فرنسا، لم أسمع صوته يعلو مطلقاً، أو يضم قبضتيه، أو يُقطِب حاجبيه. وحين كنا نتقاتل، كان يرفض أن يربك ذاته بعصا حديدية. كان يقول إن زجاجة حارقة لا تشكل حجة. كان سام طويل القامة، مقوسَ الظهر ومفتول العضلات معاً، كأنه نُحِت كشجرة زيتون مُنهكة لدرجة أنّ الناس كانوا يحسبونه شرطياً أحياناً. لذلك كان شعره القصير والرمادي يلفت النظر وسط شعورنا الطويلة لشبيبة اليسار، وبزّته الصوفية التي تحتك بقمصاننا القصيرة. إنه يمتاز بطريقة خاصة للبحث في مكان ما، وتفحص نظرة أحدهم. لم يكن يتراجع مطلقاً، أما إذا فعل فببطء، وهو يسير إلى الخلف، متحدياً الخصم الذي كان يتجمّد من ابتسامته. كنا نخشى الشرطة معاً، وكذلك اليمين المتطرف

أو كمين الصهاينة، أما هو فلم يكن يخاف شيئاً من تلك الضربات. فبعد أن عرف الدكتاتورية، ومعركة أثينا والسجن، كان يقول: إن معاركنا هي ضرب من المسرحيات الغنائية الهزلية. لم يكن يطلق حكماً على التزامنا، لكنه يؤكد أن لا أحد يغيب صباحاً عن التفقد، وأننا لا نترك جسداً ميتاً خلفنا البتة. كان يقول: إن غضبنا شعار، وجرحنا كدمة ودمنا المهدور يحتويه منديل جيب؛ كان يرفض اليقينيات، وليس القناعات.

حدث ذات يوم، وعند مفترق طرق، أن منعني من الهتاف مع الآخرين «الشرطة = النازيين»، واضعاً يده على ذراعي، أما عيناه السوداوان فكانتا تحدقان في عينيَّ. كانت الغازات تطاردنا، وبين سعالنا القوي والمتتابع، سألني إنْ كنت أعرف ألويس برونر. نظرت إليه دون أن أفقه شيئاً، وقد هالني هدوؤه. ألويس برونر؟ أجل، طبعاً، إنه مجرم الحرب النازي. كانت الغازات المسيلة للدموع تبعث رائحة كبريتية، وكانت أحجارنا ترتفع إلى السماء مع صراخنا، وأصوات عصي القمع تطرق الدروع بإيقاعها الرتيب. وعندما كنا معاً على الرصيف، انتزع عصاي الحديدية ورماها في المجرى، وأنزل وشاحه عن وجهه ودفعني أمامه، فتخبطت بعنف.

ــ إنك مخبول!

أخذني نحو رجال الشرطة الواقفين على شكل شريط، كمفتش بلا ملابس رسمية يجر ضحيته نحو سيارة الموقوفين.

ــ هيا، يا جورج، أرني برونر!

كنا أمام صف الشرطة، وحيدين وسط الطريق، بينما راح رفاقنا

يتراجعون من حولنا. استعد رجال الشرطة لتأدية عملهم، وكان ضابط يستعرض الصفوف وهو يصرخ ليتجمعوا.

ـ قل لي، أين برونر بين هؤلاء؟

لم يكن سام يدعني أفلت منه، وراح يشير بإصبعه إلى هؤلاء الرجال ذوي الخوذات فرداً فرداً.

ـ هل هذا هو؟ أم ذاك؟ أين يختبئ هذا النذل؟

ثم حررني. وعندما كان رجال الشرطة يهجمون وهم يصرخون،ففتحفتح باب بناية ودفعني إلى الداخل حيث كنت أبكي وأرتجف من نقص الهواء، وكان هو يختنق. كان أهل الشارع يقتتلون خلف الباب المُغلق، فتُسمع الصرخات والشكاوى، وصخب قنابل الغازات المسيلة للدموع. كنت أجلس تحت العلب البريدية، مسنداً ظهري إلى باب المدخل. وقد تساوينا في الطول؛ فجلس سام القرفصاء واضعاً يده على الحائط، ملتقطاً أنفاسه، خافضاً وشاحي بإصبعه.

ـ ألويس برونر، لم يكن هناك، يا جورج، ولا أي واحدٍ من النازيين. لم تكن هناك كلابهم، ولا سياطهم. إذن لا تُطلق بعد الآن هذا النوع من البلاهات، موافق؟

كنت موافقاً على ذلك، إلى حد ما مع أنّ لم يكن الأمر سهلاً، بل كان باستطاعتي أن أجيب أن شعاراً ما يُشكل صورة، وخطاً عريضاً، ومسوّدة فكرة، إنما لم تكن لي الرغبة في ذلك، ولا الشجاعة، لكنني كنت أعرف أنه على صواب.

قال سام:

ـ أرجوك، إحمِ الذكاء وحافظ عليه.

ثم ساعدني على الوقوف.

في أثينا، كان سام ينادي «بالخبز، بالتربية، بالحرية». كان يقول: هذا أجمل أمر لم يخالطه غضب الرجال مطلقاً. وكان هو، المقاوم اليوناني الذي يحتج على فكرة العلم الفلسطيني. لقد ردد أن تلطيخ زاوية من الشارع بالشعارات، غداة مجزرة يُشكل غلطة. لقد بدا أشد توتراً عما كان عليه دائماً، وكان نظره ينتقل من واحدٍ إلى آخر محاولاً إقناعه، وهو كان يتنفس بصعوبة، ولم يعد يملك زمام الفرنسية فيخلط لغتنا بلغته، مستعيداً لهجات المنفى، فاعتقدت، في ذاك اليوم، أن اليهودي هو الذي كان يتحدث في الخفاء. كان سام الرجل الذي يريد أن يحيا لا أن ينتصر، فرفع يده، لحظة التصويت. كانت يده وحيدة، وبالتالي، انهالت أيادينا عليه لتلوي ذراعه كونه خسر. أذكر أنني صفقت، دون تفكير، في حين كان كل الرفاق، من فتيات وشبان مغتبطين شأن أهل السيرك، ولم يحيّوا موت تسعة أطفال لكنهم كانوا يشيدون بتصميمنا.

أجاب سام قائلاً:

ـ لم يتعرض أحد منكم للخطر قط.

خفض صديقي اليوناني عينيه، وكان بإمكانه مغادرة الصالة، لكن ذلك لم يكن من طباعه. لم يكن يغضب من صديق، لكنه اكتفى بأن قال ما يعتقده عادلاً، حتى إنه تطوع لمرافقتنا.

وبابتسامة ردّد قائلاً:

ــ هذا يُجنبكم رسم العلم مقلوباً.

*

في كانون الثاني من عام ١٩٧٤، حين دخل صموئيل أكونيس حياتي، كان في صفوفنا اثنان من شيلي ينتميان إلى حركة اليسار الثورية، كانا قد غادرا سانتياغو بعد عدة أيام من الانقلاب. وبعد أن أقاما شهراً في لندن، اختارا فرنسا بسبب لغتها وباريس بسبب كومونتها[1]، إذ كانا يعيشان فيها بلا إقامة قانونية، أي متسترين. وبدوره اليوناني، فقد وصل بهذه الوسيلة، حين مرَّ من أثينا إلى مدرج 34B في كلية جوسيو، ليشهد على دكتاتورية الضباط العقداء. كانت الصالة مكتظة بالناس، وكنت أجلس في الصف الأول على الدرجات، وقد مددت ساقي اليمنى فاصابتني رعشة بسبب وجود هذا المقاوم أمامنا.

ــ أدعى صموئيل أكونيس، وإنني أحمل إليكم اليوم تحية طلاب المدرسة العليا (البوليتكنيك)، هؤلاء الذين تحدوا دبابات الدكتاتورية...

قاطعه صوت من الصالة قائلاً:

ــ ولا تحمل إلينا تحية الطالبات؟

عم سكوت في المجلس، وقد صفق النسوة للملاحظة. أما اليوناني،

---

[1] إشارة إلى محطة من تاريخ باريس: انتفاضة كومونة باريس العمالية عام ١٩٤٨ رمز الثورات العمالية المعاصرة.

فلقد ابتسم. سرّه التعليق، فنظر إلى الشابة الواقفة في الصف، وكانت تُدعى أورور قائلاً:

ـ كنت أظن، يا آنستي، أن ذلك حصل تلقائياً، لكن يبدو أن الحال في بلدكم ليست هكذا.

كان يجيد الفرنسية بروعة، شأن لغة تعلمها في الخفاء؛ شرب كأس الماء الموضوعة على الطاولة، وهو يراقب الجمهور الصامت، في حين رجل كان جالساً بالقرب منه، فدعاه للمتابعة. لم يكن واحداً من رفاقنا، كما لم يكن أستاذاً، لكنه دخل إلى الصالة مع اليوناني ولم يكن وجهه غريباً عني.

إذن أدعى صموئيل أكونيس، وأحمل إليكم اليوم تحية طالبات المدرسة العليا للبوليتكنيك وطلابها، هؤلاء الذين تحدوا دبابات الدكتاتورية، ويجدر بهذه الكلمة أن تكون مذكّراً...

تبع ذلك تصفيق وضحكات، ورفعت أورور ذاتها يدها لتقول إنها قد استسلمت، ثم راح صموئيل يروي قصة دقيقة وقاتمة، بلا انفعال، ومن دون تأثر. في الرابع عشر من تشرين الثاني من عام ١٩٧٣، صوتت النقابات الطلابية لمدرسة البوليتكنيك على الإضراب عن الدروس فيها. توارد مئات آخرون من جميع المدارس، وهم ينادون بسقوط الدكتاتورية. أصبح عددهم ليلاً، ألوفاً، تجمعوا حول المبنى. في اليوم التالي، جاء بعض السكان لدعمهم من شباب وشيوخ، وكذلك بعض الأسر مع أطفالها. احتُلت مدرسة البوليتكنيك، وقفل الطلاب الشبكات الحديدية، وتشكلت مجموعة للتنظيم، ولتوزيع المهام، من تأمين للطعام، والنوم، ومراقبة المداخل. أقيم مستوصف، وأنشئت

إذاعة حرة بشكل بدائي للبث في كل أنحاء المدينة. نُصبت حواجز وسط الشوارع العريضة، وتوافدت لجان الفلاحين مع لجان العمال، ومع الناس البسطاء الذين أرهقهم حكم العقداء. هذا هو نيكوس زيلوريس، الفنان الكريتي الأصل، يُغني وسط المُضربين قائلاً: «لقد دخلوا المدينة، لقد دخل الأعداء».

كان اليوناني يتحدث، والمدرج في صمت تام، ولم نكن معتادين على هذا الضرب من الاقتصاد في الكلام وفي الحركات. كان يسرد كلامه كمن يفضي بمكنونات ذاته، مسترداً أنفاسه شأن من يخرج من الماء. فكرت بالربو، وبالتالي بجيفارا. لم يكن ينتظر منا أية تهانٍ أو تعاطف يلي حديثه، وكنا نعرف النهاية عن ظهر قلوبنا، لأننا كثيراً ما قرأناها في صحف لا تفقه شيئاً من هذه الحقيقة. تلك البطولة التي شاركنا فيها بكل غضبنا، متعاطفين مع الجمال المؤثر للأيدي العارية أمام المدافع المصفحة. كم واحداً منا وجد نفسه مكبلاً بأسلاك المدرسة، متحدياً الموت؟ كنت أحد هؤلاء. تخيلت نفسي فوق دبابة، وأنا ألقي رمانة يدوية من برجها المفتوح، كما تخيلت هتاف الجماهير بقبضاتهم الممتدة نحوي. كنت أكرر الحركة البطولية في رأسي؛ فتارة أشهر علماً يونانياً، وطوراً راية حمراء. وبعد عدة زجاجات من البيرة، وقد حملتني ألحان كمان ميكيس تيودوراكيس، ألقيت بنفسي تحت زنجير الدبابة الصارخة. وأثناء تصوير فيلم Z، أنقذت غريغوريس لمبراكيس، حاملاً على ظهري الممثل إيف مونتان.

كنت هناك، أمام اليوناني، وأنا أصغي إليه بكل جوارحي، خجلاً من تخيلاتي الخفية، قبل النوم مباشرة، وأنا أجابه التاريخ

بقبضتين عاريتين، وكان ذلك مدعاة للسخرية. ففي عام ١٩٦٧، أحرقت دفتر الجندية في حديقة (السنترال بارك)، احتجاجاً على حرب فيتنام. وفي عام ١٩٦٩، كنت أحمي الأقليات الكاثوليكية المضطهدة في مدينة بيلفاست الإيرلندية. وفي عام ١٩٧١، تزوجت بأنجيلا دافيس بعد أن أنقذتها من السجن. وفي عام ١٩٧٣، كنت أنقذ الثوار اليونانيين. وفي عام ١٩٧٤، كنت أخفض ناظري أمام مناضل.

كنت أحلم بأنني بطل، ولم أعد أستطيع أن يلتقي نظري صموئيل أكونيس.

كان يروي ليلة المأساة، يوم السبت في ١٧ تشرين الثاني... بعد ست وخمسين ساعة من الاحتلال، تمركز أكثر من عشرين دبابة حول المدرسة العليا، حيث كان في الداخل أكثر من خمسة آلاف، إضافة إلى عشرة آلاف في الشوارع المحيطة، وإذاعة الثوار تردد بلا انقطاع قائلة: «لا تخافوا من المصفحات!». حاول الطلاب التفاوض لتأمين مخرج مشرف، وطلبوا نصف ساعة لإخلاء الأماكن، لكن دبابة من طراز M٤٠ دكت الشبك الحديدي كمنجنيقٍ، على ضوء كشافات حربية، فسحقت البوابة الحديدية حيث ارتص الطلاب. لم يكن هناك أحد ليقفز على برج الدبابة، ولم يكن هناك رمان يدوي، كما لم يكن هناك حلم، ولا ماو صغير فرنسي يضرب الطاولة برجله، لم يكن هناك سوى الهزيمة.

ـ كنت جالساً منفرج الساقين فوق البوابة حين اقتحمتها الدبابة، فوقع بعضنا فوق بعضنا الآخر، وكانت الشرطة تُطلق الغازات المُسيلة

للدموع، في حين كان آخرون يصوبون علينا بنادقهم، فمات أناس في كل أرجاء المدينة، ثلاثون، أو ربما أربعون، ووقع مئات من الجرحى، ورفض كثيرون منهم الذهاب إلى المستشفيات، كي لا توقفهم السلطات.

شرب اليوناني كأساً أخرى من الماء.

ـ جرحني أحد الأسلاك الشبكية، ودخل كسهم في فخذي، فرجعت إلى بيتي وأنا أعرج، فوضعت بعض المتاع في كيس وذهبت ألتجئ عند أصدقاء، في سالونيك كوني معارضاً معروفاً. في اليوم التالي، أتت الشرطة لتعتقلني، لكنها جاءت متأخرة جداً. أمضيت عاماً لأحصل على جواز سفر سياحي وعلى تأشيرة خروج إلى أوروبا، وبعد أسبوع من حصولي على جواز السفر، كنت في إيطالية. أضاف: اليوم أنا هنا، بينكم أنتم الذين تدعموننا. إنني أعرف ذلك، وأشكركم عليه.

ـ سعلت معبراً عن ضيقي فصفَّق الآخرون. في أعلى المدرج، أخرج فتى من حقيبته علماً يونانياً وهزه كمنديل يرحب به كأنه على رصيف محطة وصول.

أطلق رجل جالس بالقرب منه قائلاً:

ـ حدثكم صموئيل أكونيس قليلاً عن نفسه، أما أنا فسأقوم بذلك. إنني أقدر الشرف الذي منحنا إياه وذلك بقبوله أن يكون اليوم ضيفنا.

بدا اليوناني متضايقاً، لكن الآخر تابع حديثه. وبعدة جمل منه، لفظها بعناية، تذكرت صوته بشكل خاص؛ كانت جمله ذات نبرة ضبابية، بين النفحة والمناجاة. كان ممثلاً غير مشهور، يؤدي أدواراً ثانوية، وكنت قد شاهدته في الخريف الفائت يمثل دوراً في ملهاة

موليير مريض بالوهم وقد صمم لباسه جاك ماريليه، مصمم الأزياء المسرحية والديكور. أما هنا، بيننا، فبسبب سترته، وبنطاله من الجينز، وقميصه المفتوح وبشرته بلا طلاء، لم أستطع التعرف إليه.

بدأ الممثل قوله:

ـ إن الرجل الذي أمامكم قد قاوم نظام حكم بابادوبولوس منذ ٢٢ نيسان من عام ١٩٦٧. حدث ذلك يوم السبت وكنت في أثينا...

فعلى العكس من اليوناني، راح يتحدث بنبرة خطابية، وقد اتخذ وضعية تلائم كلماته، كما ذهب به الأمر أن جرؤ على القيام بحركات، بحيث كان نصه رزيناً، وجمهوره مأخوذاً به. من جهتي وجدت الدخيل مزعجاً لكن المدرج قد مده بتوتر رائع. حينذاك ركزت انتباهي على أكونيس، كي لا أسمع من الآخر إلّا الكلمات.

ـ كان قانون الطوارئ قد أقِر، وتمركز الجنود والدبابات في كل أرجاء المدينة، وهم يطوقون المباني الحكومية. لم يكن هناك صحف، وقُطِعت الهواتف، ولم تبقَ هناك أية إذاعة إلّا إذاعة القوات المسلحة. أغلقت المصارف، وكذلك المطاعم، والمتاحف، ولم تعد إشارات السير الضوئية تنير مفارق الطرق، وليس هناك سيارات نقل مشترك، ولا سيارات تكسي، إذ لم يكن هناك إلّا سيارات الإسعاف وسيارات الجيب العسكرية. كانت المدينة كلها تسير مشياً على الأقدام وببطء، أما الجنود فكانوا يُحذرون من أنهم سيطلقون النار على من يصادفونه بعد غروب الشمس.

ملأ اليوناني كأسه ماءً، ودفعها برفق أمام الممثل.

ــ في ذاك المساء، كنت قد حجزت مكاناً لمسرحية أوبي الملك (*Ubu Roi*)، وقد أخرجها بالفرنسية صموئيل أكونيس...

تأثرت بالغ التأثر. إخراج. مخرج. جاء اليوناني من المسرح كما هو شأني. كانت ركبتي تصطدم بالجدار، فوقفت، ولم يعد الجلوس يلائمني، فأسندت ظهري إلى الجدار، وقد التصقت كتفاي كلتاهما برفاقي. إنه مخرج، طبعاً، وخصوصاً، تلك الطريقة في تنظيم حركاته، وكلماته، وهذه الأناقة التي تسمح له بشغل الفسحة وهو يدعنا في النور. كنت واجف القلب، وقد تأثرت بمظهر هذا اليوناني المقاوم والفنان، وكذلك بمشيته، ونظرته، وكان ذلك أكثر من أن يجتمع في رجل واحد.

ــ كنت مقتنعاً بأن مسرح «الريبيتيكو» مغلق شأنه شأن بقية المسارح، لكنني قررت التأكد من ذلك. لم يكلفني ذلك أي عناء، فلقد كان المسرح أمام فندقي. كانت أضواء الواجهة قد أطفئت، واللافتات قد انتُزعت، إلَّا أن شاباً كان يحرس الباب شبه المفتوح مفسحاً المجال أمام المغامرين بالدخول. لقد كان هو ذاته، صموئيل أكونيس الذي أغلق خلفي الشباك الحديدية. كنا لا نتجاوز الثلاثين، في المسرح، وكان ممثلان غائبين، الملكة روزموند والقبطان بوردير.

شرب الممثل كأسه ولم يكن يعرف أين يحط أنظاره.

ــ كان عرضاً غريباً، اختلط فيه الممثلون بالدمى البيضاء. وما حدث ذاك المساء هو أن الفرقة قد ارتجلت، فما كان يُمَثَّل على الخشبة يلبي ما يحدث في مسرح الشارع.

بعدها وقف الممثل أمام الجمهور، واتخذ الوضع المسرحي الملائم،

وهو يقفز من مكان إلى آخر، مقلداً، بالتتابع، الشخصيات الرئيسة. لكن بالرغم من المشهد الإيمائي، لم تُسمَع أية ضحكة في الصالة، حيث كانت الوجوه متوترة.

الأب أوبي

اللعنة!

الأم أوبي

آه! هذا ابتكار جميل، يا جيورجيوس، أنت نذل كبير!

الأب أوبي

كم أود أن أقضي عليك، أيتها الأم أوبي!

الأم أوبي

عليك أن تقتل شخصاً آخر، يا جيورجيوس، لا أن تقتلني!

سكت الممثل، وقد رفع خنجراً وهمياً، قبل أن يجلس.

ـ لقد فهمتم ذلك، كان صموئيل أكونيس قد طلب من ممثليه استبدال «الأب أوبي» بجيورجيوس، وهو اسم القائد العسكري لرئيس الانقلاب.

التفت الممثل نحو اليوناني.

كان هناك واشٍ بين المشاهدين، أو أحد ما لم يتحمل إهانة جاري

المؤلف. وبعد يومين، أوقف صديقُنا الحاضر بيننا وحققت معه المؤسسة الأمنية المعروفة باسم الأسفاليا (L'Asphalia)، في مقرّاتها، فانتُزعت أظفاره، وأحرق صدره بالسجائر، وشققت البواري الرصاصية باطني قدميه، وخنقه معذِبوه بالغاز المكون من حبيبات سائلة ذُوبِت في الكلور ثمّ أدخِلت في فمه.

سكت، وهو يتأمل أثر كلامه شأن محامٍ اجتذب محلفيه.

لم يكن مصاباً بالربو.

ـ لم يُحاكم أو يُسجن مطلقاً، لكنه أبعِد إلى معسكر اعتقال أوروبّوس طوال عام ومعه مئات، ومن بينهم ميكيس تيودوراكيس.

هبت نفحة حارة فطأطأت رأسي.

ـ بعد أن أطلِق سراحه، وضع تحت المراقبة، إلّا أنه لم يرد مغادرة بلاده قط. لكنه بعد احتلال المدرسة العليا للبوليتكنيك، حيث قدَّم عرضاً وحشياً لمسرحية أنتيغون لأنُويْ، قبلَ المنفى مستسلماً.

بعد ذلك وقف الممثل للمرة الأخيرة، فكانت تلك اللحظة من أجمل أدواره. استدار نحو اليوناني، وانحنى ثم صفَّق له، فصفّقت معه، قبل الآخرين، وقبل المدرج بكامله، وأنا واقف، أكسر الصمت مطبقاً فكيَّ.

حينذاك شققت ممراً، وذهبت نحو المكتب حيث كانت أورور تنزل أيضاً، وحقيبتها على كتفها. لم يبدِ اليوناني أية حركة، بل كان ينظر إلى يديه حين مددت يدي.

ـ أدعى جورج، وإنني مخرج.

ـ أنا، أورور. أسعى إلى أن أكون ممثلة مسرحية.

وقف، وقد فوجئ قليلاً. ابتسم لنا.

لم أحب تلك الفتاة. فبعد نقدها اللاذع جاءت تعتذر، والأسف ملء عينيها. لقد أفسد حضورها لقاءنا الودي.

ـ جُرحت ساقي... أنا أيضاً.

عاد اليوناني إليَّ.

ـ العام الماضي، من الفاشيين.

هزَّ رأسه. لا أدري لماذا رويت له ذلك، بغتة، بعد كل ما قاله لنا هذا الرجل. لقد خجلت من نفسي، وخفضت نظري ثانية. طقت ركبتاي، فأصلحت وضعية وقوفي كي أُبقي يدي في يده.

تمتم صموئيل قائلاً:

ـ إنه لشرف رفيع.

كان في الرابعة والثلاثين، وأورور في الاثنتين والعشرين أما أنا فكنت في الرابعة والعشرين.

سيصبح هو أخاً لي، وستصير هي زوجتي.

٣

ألويس برونر

في الثالث والعشرين من تموز من عام ١٩٧٤، صحبني سام، لوحدي، لنشرب كأساً في جادة سيباستوبول، من دون فرقتنا الصغيرة، وقد جاء إلى المدرسة الثانوية بعد انتهاء ساعات مراقبتي. لقد استشف كل واحد منا الآخر شأن حيوانات متناقضة، فكان هو الفرح بعينه، وكنت الحزن بذاته. كان هو القلب المرح في الربيع، وكنت الهيئة الكئيبة في الخريف.

وغالباً ما كان يردد:

ـ لقد تألمتُ إلى أبعد الحدود، لذا ليس من حقي أن أكون تعيساً.

ثم كان ينظر إليَّ وهو يبتسم.

ـ أما أنت فيمكنك أن تسمح لنفسك بالتعاسة.

منذ ذاك الحين، رحنا نتقاسم العالم ونحن نمزح. لي العالم المظلم، وله المنير. كنت أجيب عن نكاته المرهفة بسخريتي الفجة حيث كان حوارنا يستند إلى هذه الصيغة البسيطة، ولم نكن قد ذهبنا حينها، أبعد من ذلك. لم تكن بيننا أحاديث حميمة، لأنّ الحياء كان يمنعني، وكذلك الاحترام، وكنت أشعر حين نسير بأنني أرافق، بتثاقل، رجلاً معذباً.

أطلق يوماً قوله حين كنت أشك في كل شيء:

ــ إنك أشد مني عذاباً.

لكن في ذاك المساء، ونحن في فسحة مقهى، أحسست أنني أقرب إلى الفرح؛ إذ منذ الصباح، لم تعد الإذاعة تتحدث إلّا عن اليونان. فبعد الانقلاب في قبرص، ها هم العقداء يعيدون السلطة إلى المدنيين، وانتهى عهد الدكتاتورية، وقد شطبت سبعة أعوام من التعاسة شطبت بضربة. لقد قلت ذلك للطلاب أثناء الاستراحة، بصوت أستاذ يعيد إليهم مسابقات ممتازة.

وحين مرَّ سام إلى مقرّنا في جامعة جوسيو، في ذاك الصباح من شهر تموز، عانقته الشابات وهنّ يهنئنه، وسأله الشبان متى سيرحل ثانية، فأجاب:

ــ في يوم ما، طبعاً.

لقد أدركت، منذ زمن طويل، أنه كان يزورنا لياقة. وإذا كان يحضر بعض الاجتماعات، ويرفع، بتراخٍ، العلم الأحمر، ويسير في صفوفنا في التظاهرات، فلم يكن ذلك عن قناعة، بل ليشكرنا على دعمنا إياه. لكن في الواقع، ماذا بقي من مجموعتنا؟

لقد حل زعماؤنا التنظيم السياسي، وقبل تسعة أشهر توقفت الجريدة الأسبوعية قضية الشعب (*la cause du peuple*) عن الصدور، وتشتّت الرفاق في معترك الحياة. ثمة رفيق انتحر شنقاً، وآخر أطلق رصاصة في فمه. أما الرفيق ميشيل، فلقد عاد إلى حياته الداعرة، وقتلته صاحبة مقهى. من جهته، جاك الكبير، العامل في مصانع سيارات رونو، فقد رجع إلى صف عمله، والصامدون ما زالوا يناضلون، بقلوب حزينة. كان الأنصار الجدد، وقد أصبحوا

أطفالاً، يتخلى الواحد منهم تلو الآخر عن الجبهة ليرجعوا إلى الصفوف الخلفية المبتذلة. أما المقر فكان يبدو أشبه بصالة حفلة راقصة في الفجر، بمناشيرنا المبعثرة كأوراق زينة ذابلة. لقد تألمنا من إسكات أغانينا القتالية، وكنت أفكر بالجندي الذي جرحه بوق السلام، حين عادت الأمور في نهاية الأمر إلى مجراها الطبيعي، وإلى السكوت. كنا يتامى وقد فقدنا أيديولوجيتنا، بعد أن استنفدنا معتقداتنا اليقينية، وكنت أعرف أن الأيام المقبلة واعدة بالسعادة من دوننا.

لهذا السبب كنت أحرص على سام لأنه لقد شكّل بالنسبة إليَّ كل ما تبقى من مسلماتي. لم يكن يحمل شعاراً، أو كتاباً، أو أمراً رُسم على جدار المدينة، بل كان يجسد نضالنا. لقد أمدني وصوله بيننا، وإن كان متأخراً وخجولاً، بالكثير من الشجاعة. كان هو مقاومتي وكرامتنا.

كان سام يبتسم قائلاً:

ـ الكرامة؟ إنها أجمل كلمة في اللغة الفرنسية.

كنت جالساً في مقهى ذلك الشارع الكئيب، أنظر إلى الآخرين يمرون، وكان سام قد طلب زجاجة من البيرة، في حين كنت أشرب قدحاً من النبيذ الأبيض. رحت أنتظر لأنه إذا كان قد اقترح عليَّ أن أرافقه، فهذا يعني أن ثمة أشياء يريد أن يقولها لي. لم نكن، حتى الآن، قد وجدنا منفردين، بل كان يضايقني ممازحاً أمام الجميع وأنا أحاول الرد عليه.

ـ هل أنت سعيد؟

قلت ذلك لأقطع الصمت. فهزّ رأسه، وشفتاه مبللتان من رغوة البيرة، وعيناه لامعتان.

ــ هناك رجلان اليوم يشكلان سعادتي.

اقتربت منه كوني كنت أعشق وقت المسارّات.

ــ أولاً كارامنليس الذي سيعود إلى بلادنا، وهذا أكيد، وسيشكل حكومة، ويلغي الملكية وكل تلك الأشياء البالية.

راقبني سام من على كأسه.

ــ هل تدرك ماذا يعني كونستنتينوس؟ سيصبح صديقي رئيساً للوزراء؟

هززت رأسي ضاحكاً. كلا. لم أكن أدرك ذلك؛ حتى إنني لم أكن أعرف أن لكارامنليس رفاقاً يونانيين في فرنسا.

فتح سام حقيبة قديمة من شركة طيران الأولمبيك اليونانية، وقد ضُربت عليها حلقتان ملونتان. كان هذا الكيس البلاستيكي التعيس واحداً من قلائل الأشياء التي بقيت له من بلده، وفتح صحيفة مطوية بكاملها.

ــ أما سعادتي الثانية فتُدعى إدّي ميركيس، بطل سباق الدراجات!

أصابني الذهول. لم أكن أقرأ إلَّا صحيفة **قضية الشعب** طوال سنوات، وقبلت خانعاً قراءة الصحيفة اليسارية **التحرير** (*Libération*)، أما سام فكان يقرأ الصحيفة الرياضية **الفريق** (*L'Équipe*). وضع الصحيفة على الطاولة، وقد مسح كؤوسنا ومسح معها كل اليونان.

ــ لقد ربح تسع مراحل، أتدرك ذلك؟ إنه اختطف المقدمة وانتزع ٢٢ شوطاً!

كلا، لم أكن أدرك ذلك، على الإطلاق. كان سباق الدراجات

حول فرنسا قد انتهى قبل يومين، وكان البطل البلجيكي قد فاز للمرة الخامسة. وماذا بعد؟ وما معنى ذلك؟ بالنسبة إليَّ، في هذا التاريخ الواقع في ٢١ تموز، كان الحرس الوطني القبرصي قد صد هجوم الأتراك عن مدينة كيرينيا. وكان جنود فيتنام الجنوبية الأشبه بالدمى قد قاموا بعملية هجوم واسعة على شيوعيِّي تاي نين.

كنت في حرج من أمري حين راح يتحدث بصوت عالٍ، ويضحك، ويفقد زمام الفرنسية. كان يقول: إن الحياة تعني أيضاً هذا، رجل على دراجة يبتلع كيلومترات وهو يصرخ ألماً. كان يقول إن الرياضة هي طريقة أخرى للمقاومة: مقاومة الإنسان لذاته، وللصعوبات، ولسوء الأحوال الجوية، ولهذه الكآبة التي تلائمني أفضل ملاءمة.

ـ هل تسمعني، يا جورج؟

انتفضت. لقد أصبت بشيء من الخيبة، فالتجأت بخيالي إلى مكان آخر. لقد أصبحت تلك اللحظة السحرية، بيني وبينه، بين المناضل اليوناني والمناضل الأممي، قافلة من سباق الدراجات، بزماميرها، ودعايات مسحوق الغسيل وصرخات المشجعين.

ـ هل كان في سباق الدرّاجات متسابقون يونانيون؟

ضحك سام من الجهد الذي بذلته، فاعتقدت أنه كان يقرأ مكنونات قلبي ككتاب مفتوح.

ـ كانت هناك كأس للألعاب الإغريقية، أشبه بالسباق حول اليونان، لكن قميص المنتصر كان أزرق.

قلت:

ـ إنني لا أفهم شيئاً في الرياضة، ولست وطنياً.

تمتمت جملتي، وأطلقتها بلا توقع، فتوقف سام الذي رفع كأسه، دون أن يحيد عني ببصره.

ــ مناهضة الوطنية؟ إنه ترف الإنسان الذي له وطن.

كان قاتم الوجه، متكلف الحركات، وبنظرة غشيها السواد، مع أنني لم أكن قد رأيته على تلك الحال إطلاقاً.

ــ يا جورج، حدثني عن والديك.

انتفضت. قلت له نزراً يسيراً، كي لا أخون اليتيم. ماتت والدتي حين كنت طفلاً، ثم توفي والدي، وقد ألبكه وجودي، جارّاً حياته حتى القبر.

ترك سام سكوتي يهمس له بالبقية، إذ لا يمكن لأحد أن يرمم التلميذ الذي قطف زهرة ليودع بها والدته.

ــ وأنا؟ هل تعرف من أنا ومن أين أتيت؟

بدت مني حركة طبيعية. صموئيل أكونيس، مناضل يوناني.

ــ ولدت في مدينة سالونيك في ٤ كانون الثاني من عام ١٩٤٠، من يشوا أكونيس وراشيل أيليون. أخي الكبير يُدعى بيبو وأختي رينا.

رحت أنظر إليه دون أن أفهم شيئاً، أو لقد فهمت. كان جلدي في حالة تأهب، وكنت أرتجف من معرفة ذلك.. كان صموئيل أكونيس يهودياً.

ــ جاء أجداد والدي من مايوركا، في إسبانيا، كما انحدر أجداد والدتي من البرتغال. لقد محت القرون ذكراهم كما محت أسماءهم. إنني أعرف أنهم كانوا يحيكون الصوف للإمبراطورية العثمانية. والدي كان شيوعياً، وأمي صهيونية. هو يعمل خبازاً، وهي تربي أطفالها، وكنا

نسكن في حي (الهيرش) بالقرب من المحطة. وحين اكتسح الإيطاليون بلدنا، في تشرين الأول من عام ١٩٤٠ انخرط يشوا أكونيس في الجيش اليوناني، وجُرح في بطنه. لقد ظنَّنا يونانيين إلى الأبد، لكنه كان وحده من يعتقد ذلك.

وقف سام، تاركاً كأسه ملأى، ففاجأتني تلك البادرة. وضع عدة قطع نقدية على الطاولة، ثمن بيرته ونبيذي، ثم دعاني لمرافقته. حينذاك دفعت الكرسيَّ، لأنه لم يكن ذاهباً بعيداً، ولن يدعني هنا. كان سيمشي في الطريق، كما لو لم يكن يستطيع أن يروي ما يريد قوله وهو جالس، والكأس في يده. نظر أمامه، حيث الناس قليلون، ونور الشمس على الأرض، والأشجار تهمس بقدوم الصيف.

ـ لم يكن لوالديَّ أمة ينتميان إليها، بل كان لهما نجمة.

اعتذرت منه، فابتسم قائلاً:

ـ عمَّ تعتذر؟

حين وصل الألمان، عُهد بصموئيل إلى عمته ألليغرا التي أخذت الطفل إلى كورفو، في المنطقة الإيطالية، حيث اختبأ طوال الحرب، تحميها أشجار زيتون تملكها أسرة عمال زراعيين. أما يشوا، وراشيل، وبيبو، ورينا، فلقد رحلوا إلى معسكر اعتقال بيركونو ضمن قافلة ١٥ آذار من عام ١٩٤٣.

توقف سام عن الحديث قائلاً:

ـ هل تعرف كم يهودياً من سالونيك قد مات في معسكرات الاعتقال؟

هززت رأسي بالنفي.

تابع مشيته البطيئة في الشارع الباريسي.

ـ ما يقرب من ٥٥٠٠٠. إنه برونر الذي خطط لإبادة اليهود السفرديم.

ثم لكزني بمرفقه.

ـ ألويس برونر. أتذكر ذلك؟

تأمل نظرتي الحزينة، وبعد أن ضحك قال لي: ثمة فراشة في رأسي ولي قلب زائد.

*

بعد عدة أيام، تحدثنا عن المسرح للمرة الأولى، فكان مدعواً إلى مهرجان (فيزون-لا-رومينّ) حيث تُمَثَل مسرحية أنتيغون لأنُويْ، التي يقوم بإخراجها جيرار دورنيل. كانت ليليان سورفال تلعب دور ابنة أوديب، ملك ثيفا، أما دور خالها كريون فلقد كان يؤديه جان روجيه كوسيمون. في دار الشباب للثقافة، كانت العروض الأولى تجمع نخبة القوم أو تُقام مناقشات ودية، ولم يكن الصديق اليوناني يأبى أي طلب أو دعوة، وكان سام شعار المسرح المُحَظَر.

ـ قريباً سأعود إلى العمل المسرحي، لكنني لست مستعداً بعد. إنني أنظر، وأتعلم، وأصغي، وأعوض الأيام التي سُرقتْ مني.

كانت تلك المرة الثانية التي يحدثني فيها عن أنتيغون التي قام بتمثيلها في مدرسة البوليتكنيك في أثينا، قبل وصول الدبابات، والآن، يذهب إلى جنوب فرنسا ليجدها ثانية.

أخرج من حقيبته رواية أنتيغون الصادرة عن دار نشر الطاولة المستديرة (La Table Ronde) في عام ١٩٤٥ بصور مطبوعة طباعة حجرية بلون التراب القاتم والأسود للرسامة جانّ بيشور، وهزّها شأن قبضة مرفوعة.

ـ لقد تألمت مع «الصغيرة النحيلة»، وحاربت هي إلى جانبي.

تابعنا باتجاه ساحة الباليه-رويال لنشرب بيرة أخرى في مقهى على الرصيف. فسألته:

ـ الصغيرة النحيلة؟

توتَّر سام. تلك طريقته في تقطيب حاجبيه. فقد كان دائماً يُغمض جفنيه، كأنه يفكر بحدة.

ألا تذكر التمهيد في بداية التمثيل؟ «هذه هي الشخصيات التي ستمثل أمامكم قصة أنتيغون. أنتيغون هي الصغيرة النحيلة، الجالسة هناك، والتي لا تنبس ببنت شفة...».

كان لصوته المسرحي نبرة أخرى، وكان همس الكلمات حريرياً.

ـ حين تُرفع الستارة، يكون الممثلون واقفين على خشبة المسرح، منهمكين كي لا يرونا، يحميهم الجدار الرابع.

ـ الجدار الرابع؟

كنت قد سمعت هذا التعبير دون أن أفقه معناه.

أجاب صموئيل أكونيس قائلاً:

ـ إن الجدار الرابع هو ما يمنع الممثل من الانصهار في الجمهور. إنه واجهة خيالية، يبنيها الممثلون على حافة خشبة المسرح لتعزيز الوهم. إنه سور يحمي شخصيتهم. فهو بالنسبة إلى البعض، علاج من

وهل الجمهور. أما بالنسبة إلى بعضهم الآخر، فإنه يشكل حد الواقع. إنه سور غير مرئي، يحطمونه أحياناً بردّ يوجهونه إلى الصالة.

ـ تذكر الثواني الأولى. الممثلون حاضرون جميعاً، ولا يوجد أحد في الكواليس. ليس هناك مشهد خلفي، ولا دخول مدوٍّ، ولا خروج يُصفَّق له، ليس ثمة أبواب تُصفِّق؛ هناك دائرة نور فقط يدخلها من يتحدث، والعتمة التي تتلقى تواً من انتهى من الحديث. وماذا عن الديكور؟ إنه مؤلف من عدة درجات، وثنايا ستار، وعمود قديم. إنه التجرد، والجمال الصافي.

كان نظره ثابتاً أمامي، دائماً.

ـ لا تقل لي إنك نسيت أنتيغون!

كسبت بعض الوقت، وشفتاي في كأس النبيذ.

ـ لقد قرأتها كما قرأت بوريس فيان. إنه متاع مراهق. في الصف الحادي عشر، وقعت في الامتحان على محادثة متخيلة بين فولتير وأنتيغون.

ـ فولتير؟

ـ كتاب كانديد، والتفاؤل نحو الإنسان. لم أعد أتذكر شيئاً.

ـ وأنتيغون، والتشاؤم؟

ضحك سام. بلا خبث، لم يكن يجرح الشخص الذي يتحدث على الإطلاق.

ـ غداً، سأذهب لشراء أنتيغون من عند الناشر ماسبيرو. أريد أن تقرأها ثانية.

ـ التي كتبها أنويْ؟

رفع سام كتفيه. أجل أنُويْ. طبعاً، أنُويْ، بدهياً، أنُويْ.

ــ ومسرحية أنتيغون لسوفوكليس؟

أبعد اليوناني هذا الاسم بيده. كان يقول إن أنتيغون لسوفوكليس قد اقتصرت على الواجب الأخوي، وهي سجينة الآلهة.

ــ يخضع غضبها لما هو إلهي، أما الصغيرة والنحيلة فتشبهك.

ــ تشبهني؟

ــ خلال أربعة وعشرين قرناً، مرت من الكورس الطقسي المقدم للإله ديونيسوس إلى قصة حديثة، عبرت ما هو ديني إلى السياسي وما هو مأسوي إلى المأساة البحتة...

ــ وما علاقتها بي؟

ــ إنها بطلة «الرفض» التي تدافع عن حريتها الخاصة بها؟ تصور!

ابتسمت لسام وقلت: إنني متفق مع أنُويْ، وشكراً لإهدائي إياه. سأقرأه؛ وعدته بذلك شأن من يجيب عن الوقت لعابر مستعجل. لم أكن أتصور أهمية الهدية التي قدمها لي صموئيل أكونيس، كما أنه لم يستشف أن ذلك المقهى في تموز سيغير حياته وحياتي. في تلك اللحظة شعر بأنني لم أكن أصغي إليه. كان وعدي متراخياً، وجسمي متباعداً يلتفت نحو خادم المقهى، ليحصل على قليل من النبيذ الإضافي، ومع ذلك لم يحقد عليَّ.

في اليوم التالي، أهداني سام الكتاب، وقد كنا على موعد في مقر (أنصار ماو) حيث راح العمال، وقد استفادوا من العطلة الصيفية، يغيرون أقفال قاعات الدروس. كان الحجّاب يراقبون عملهم حين

دخل اثنان منهم إلى الغرفة التي كنا نشغلها في جامعة جوسيو منذ عامين وبدون موافقة.

سأل سام قائلاً:

ــ هل يمكنني مساعدتكما؟

كان أحدهما يلبس قفازين. كنا نسميه «الشارب»، وهو كورسيكي، وفي الصف الأول دائماً حين يوجد عنف وقلاقل في الكلية. كان قد صدني مرتين بعنف، مع أنه كان يعرف أنني من جامعة السوربون، وأن لا عمل لي عنده. وحين علم أنني سأصبح مدرساً، أشفق على طلابي في المستقبل. إنه لم يكن من النوع الذي يُقدم شكوى أو يشي بمناضل، بل كان يقاتل بشرف واستقامة، ويضرب بعنف، ويتحمل الضربات. كان بعض الرفاق يُقسمون أنه قد سُجن، فيجيب المضرج بالدماء إن السجن هو المكان الوحيد الذي اصطدم فيه بأحد الأبواب، لذا كنت أحترمه.

لم يسبق أن دخل الحاجبان إلى مقرنا مطلقاً ولكن، في ذاك اليوم، لم نكن إلَّا ثلاثة مع أورور وسام، حيث تقدم «أبو الشنب» خطوة نحو العتبة.

كرر اليوناني جملته قائلاً:

ــ لقد طرحت عليك سؤالاً.

ابتسم الحاجب قائلاً لرفيقه:

ــ أنطلب منهم بطاقاتهم الطلابية؟

أظهر الحاجب الآخر بادرة ملل.

تقدمت منهما وقبضتاي مغلقتان.

ــ ابتعدا من هنا!

تصنع الحارسان المفاجأة.

ــ ثلاثة ضد اثنين، ماذا سنضرب!

وضع «الشارب» يده على كتف زميله.

ــ هيا، فلنهرب قبل أن يقتلونا...

وخرجا إلى الممر وهما يضحكان.

لم نكن نحتاج، أنا وسام إلى الكلام. فمنذ عدة سنوات، كنا مئات احتللنا الكلية.. كنا مسيطرين على جميع الأماكن، من الأقبية حتى المصطبات. وحين كانت الشرطة تدخل، تصبح الأبنية مدينة ندافع عنها شارعاً فشارعاً، وتتحول طاولة الصف إلى أربع عصي حديدية، وتُضرب دروعهم بظهور الكراسي. كان هناك، في كل المخابئ، زجاجات حارقة تنتظر لتحمي تراجعنا، لكن الهزيمة قد دقت في ذاك الصيف، بلا عنف ولا صراخ. لقد نزحنا شيئاً فشيئاً عن المكان المحصن، وها هم أولاء يُغيرون أقفال الأبواب.

حين غادرنا المقر، ألقيت نظرة أخيرة على الصالة ذات مصابيح النيون المحترقة حيث كنت قد كتبت، في عام ١٩٧٢ باللون الأحمر، على يسار النافذة: «لا تستسلموا مطلقاً». أغلقت أورور الباب بالمفتاح، فكسرتُه بضربة قدم، داخل القفل، واحتفظتُ بالحلقة المكسورة.

قال لي سام ونحن في ساحة الجامعة:

ــ هناك مسارح أخرى غير هذا المسرح.

أهداني أنتيغون، فقبلت الكتاب كرسالة وداعٍ. كنت حزيناً وقلقاً

من حالنا. ابتسم صديقي، إذ منذ المشاجرة مع الحراس، كان يتنفس بصعوبة.

ـ لا تحزن وتتصور أسوأ الأمور، سنلتقي ثانية.

ضحكت. كان على علم بمخاوفي لكنه كان يحترمها. لن يعرضنا للخطر مطلقاً. كنت أعرف الخطر، وكنت أعيه بشكل حيواني، بغريزة رجل الكهوف. كنت أستشفه في الشارع، من حركة، من كلمة زائدة. كنت أقرأه في الصمت، في النظرات، وفي الضحكات البلهاء. كنت أشعر به في الوعود كما كنت أحسه في الوعيد. كنت أرتابه عند الصديق وكذلك عند الخصم.

لكنني لم أشك به عند سام قطّ.

٤

ناتاليا ستيبانوفنا

ناتاليا ستيبانوفنا

كان أبوكَ مقامراً ونهماً!

لوموف

وعمتك نمّامة يندر وجود مثيل لها!

وقفت، ولم يكن لأورور حضور مميز على المسرح، كما لم يكن ثمة شيء على ما يرام سواء في النظرة، أو في النص، أو في الحركات، أو في النبرة. ربما كان بطنها هو السبب؛ فطفلنا ينمو فيه. إذ كيف يمكن أن تمثل مخطوبة شابة، وهي حامل في الشهر السادس؟ لم تصبح ناتالي، وكانت تعرف ذلك، فدرت حولها.

ــ إن لوموف خارج عن طوره. وأنت؟ ماذا تفعلين، أنت؟ عليك أن تعضي! استندت أورور بظهرها إلى الحائط، ويدها على بطنها.

ــ «الظلم يُغيظني!» هذا ما تقوله ناتاليا. إذن، حين تهينين لوموف بوصفك عمته «بالنمّامة»، أريد أن يصرخ جسدك كله بالاشمئزاز. تقيَّئي هذه الكلمات، يا أورور! إنها صفعة تسددينها له. لم أرَ تلك الصفعة، كما لم يشعر هو بها!

جلست أورور على الأرض، وأشعلت سيجارة.. إنني أكره تلك البادرة، خصوصاً أنها كانت قد وعدت بالكف عن التدخين.

ــ أريدك أن تستشيطي غضباً، هل تفهمين؟

كانت تفهم ذلك.

ــ إنك تُدافعين عن زهو ناتاليا وكبريائها! «فالحقول-الصغيرة-لتربية-البقر» أرضها، وشرف أسرتها، ودماؤها، وأصلها، على حد قول تشيخوف! ولوموف يريد أن يستحوذ على كل ذلك؟ إنك تُقاومين! يموت المرء من أجل أرضه، يا أورور! ناتاليا مستعدة أن تقتل من أجل أرضها.

كنت أريد إخراج الغضب الحقيقي على المسرح.

هزت زوجتي رأسها. لقد فهمت.. كانت تفهم بسرعة.

ففي خريف ١٩٧٥، شعرتْ باهتمامي بها. يكفي أن أنظر إليها، أن أضع يداً على كتفها، أن أدلها كيف تحرك وركيها على المسرح. لقد مثّلت في المدرسة، وفي الثانوية، وفي الصالات الرعوية، كما مارستْ السياسة في الكلية، ثم عادتْ إلى التمثيل، حين نفدت السياسة. ومن جهتي، كنت قد قمتُ بالتمثيل في المدرسة، وفي الثانوية، وفي الصالات الرعوية، ومارستُ السياسة في الكلية، ثم قمت بالتمثيل ثانية حين أعيتني السياسة. كان كل واحد منا يراقب الآخر في مدرجات جوسيو، وقد سرتنا تظاهرات الشوارع، ونحن نضيع فيها في لحظة تفريقنا بعنف وفظاظة. كان سام يكن لها صداقة كبيرة، قائلاً إن خشبة المسرح تلائمها أكثر مما يلائمها مكبر الصوت، وإن ردود أي مؤلف

أفضل لها من شعاراتنا. كان حديثه معها عن المسرح، وهو يريد أن ينتزعها من شوارعنا، وكان يحميها شأن من يحمي ابنته.

يوم أخرجتُ مسرحية طلب الزواج لتشيخوف، فرضت أورور نفسها. كانت بشرتها ناصعة كالحوار، وعيناها صافيتين، ووجنتاها مشدودتين. إنها من مقاطعة الفينيستير في بريتانيا، وهي تجسم تصوري عن ناتاليا ستيبانوفنا. لقد مثلنا خمس مسرحيات مجانية، في بيوت العمال الشباب في الضاحية الشيوعية بحيث صار المسرح بالنسبة إليَّ مكاني للمقاومة، وسلاحي لفضح الظلم. فعلى الذين يتهمونني بالتخلي عن النضال، كنت أكرر جملة بومارشيه: المسرح؟ «إنه عملاق يجرح حتى الموت كل من يضرب». كنت أثير الانفعال ليس على خشبات المسرح المتفق عليها فقط، بل كنت أدخل الضحكات، وكذلك رعشات تُسترق بين جدران بلا فرح. حدث ذلك أولاً في مدرستي، ثم في المستشفيات، ودور المسنين، وبيوت المهاجرين. لقد تعبت من المسرح المناضل الذي كنا نمثله في زاوية أحد الأرصفة أمام عشرة رفاق كئيبين، كما قد رفضت الحاضر الذي أخرجه على المسرح لأجيب عن ضرباته. لم أعد أريد علماً أميركياً نحرقه ولا علماً أحمر تحركه الريح. كنت أبحث عن التعقيد، وأرغب في ذكاء بين الرمادي الفاتح والرمادي الأدكن، فقررت العودة إلى الكلمات التي سبقت المنشورات، وكان سام يقول لي حين أشكُ بنفسي: إن تمثيل غاتّي، وجارّي أو بريخت لا يعني الخيانة مطلقاً.

لقد شكَّل فرقة، فرقة حقيقية، ذات مقر، بجدران وسقف، وكان

يقول إن الفرقة هي المادة الأولية لمسرحه، ولم يعد يكتفي بتأليف أسرة تدوم مدة العرض فقط. كان يريد أن يُمثل وهو يشعر بالأمان والثقة، شأنه كما كان أمام دبابات بلده القديم. كان يريد تشكيل قاعدة من الأصدقاء تدوم أبداً، شأن أبطاله في زمن السلم من أمثال روجيه بلانشون وباتريس شيرو.. كان مسرحه مؤلفاً من لغة وصور، وكان حلماً صغيراً كالجيب في شمال باريس، أطلق عليه اسم «ديوميدوس الصغير» تكريماً لديوميدوس كومينوس الذي قتلته رصاصة في رأسه وهو في السادسة عشرة، في 16 تشرين الثاني من عام ١٩٧٣ حين كان يسير باتجاه مدرسة البوليتكنيك. طلب مني سام الانضمام إليه، لكنني رفضت. كنت أريد أن أخرج مسرحيات، أما هو فكان يريدني أن أمثل. كان قد تبنى أورور، لكنها اختارتني، وكان شاهد زواجنا.

ابتسم يوم عرسنا وهو يردد ما قاله غوغول:

ـ فليحملني الشيطان! إن الزواج هو شأن يسبب لكم كثيراً من الهموم والمشكلات.

كان هو يرفض الزواج، ويخشى أن يرى أطفاله يموتون، وكانت قصص حبه القصيرة كلها يونانية. هل كان اللواتي يقعن في حبه: في حب سام أم في حب أكونيس، لم أكن أعرف ذلك مطلقاً. هل في حب مقاوم الأمس، أم المخرج اليوم، أم لمجرد الرجل الوسيم صاحب الكلمات الصائبة؟

في خريف عام ١٩٧٩، أردنا ثانية أن نقدم مسرحية **طلب الزواج** لعمال مُضربين عن العمل، بسبب النص الغاضب وطرافته، لأنّ

إضحاك الطبقة العاملة هو عبارة عن مشاجرة شأنها شأن أي مشاجرة بحتة. فمنذ 11 تشرين الأول، كان عمال المعادن في مصنع ألستون في سانت-وين يحتلون الموقع، ولم يكونوا يريدون تغيير العالم ولا إشعال النار في السهل. ثمة ألف امرأة ورجل يناضلون للحصول على أجر شهر إضافي وعلى أسبوع خامس من الإجازة المدفوعة، وكان تمثيل تشيخوف لهؤلاء العمال يعني تسلية المقاومين.

في ١٤ تشرين الثاني من عام ١٩٧٩، يوم مسرحيتنا، دخلت الشرطة المصنع المُحتَل، ورجعوا بأعداد كبيرة في الساعة السادسة صباحاً، خلف هراواتهم، ففتح أصحاب السلطة والمدراء الأبواب لغير المضربين.

كان الرفاق قد أعلمونا عن اقتحام الشرطة في الصباح الباكر، وقال لنا أحد النقابيين إن نساءً يبكين، وصرخ رجل بأنه لن يستطيع العيش بعد الآن، ومع ذلك، في الساعة الثالثة ظهراً وصلنا، أنا وسام وأورور لنمثل تشيكوف. كان سام يتقدم، حزيناً، وقد أمسك الشمعدان النحاسي، ولم يكن عندي إلّا الغضب في قبضتيَّ. كنت أريد أن أسمع ماذا سيقول هؤلاء الأنذال. وحين طلب منا أحد رجال الشرطة العودة إلى الكواليس، لم يكن هناك عنف، ولا كلمة زائدة. كان العمال قد رحلوا، وعلى سبيل الحذر، رفع عامل لم يشارك في الإضراب مزلاج باب الحديد الشبكي.

وقعت فجأة، على الرصيف، وأطحت بضربة واحدة، وانقلبت، كأن رصاصة طائشة قد أصابتني. اصطدم ظهري بالأرض، وكذلك رأسي، ويديَّ، فبقيتُ مستلقياً، بفمي المفتوح، وبعينيَّ المذهولتين، وأنا أرتجف لحظة قبل أن أرقد كالميت. حينذاك أدرك سام الموقف،

نظر إلى رجال الشرطة، مكافحي الإضراب، وتفحص الشبك بالقفل المكسور. لاحظ هذا الجمهور غير المضرب والمجند، وقد تملكه البكم والذهول، فجال ببصره نحو السماء ونحو الأبنية المحاصرة، متخذاً قناع المأساة. سقط نظره، وتهدل فمه، فظهرت تجاعيده العميقة، وبدا جبينه من الجص البالي، فانحنى فوقي، وذراعاه مرفوعتان نحو الآلهة.

تشوبوكوف

آه!... ماذا جرى؟ ماذا تريدين؟

ناتاليا ستيبانوفنا

(تئن، ويداها على بطنها)

لقد مات!

تشوبوكوف

من مات؟ (ناظراً إليّ) إنه ميت حقاً!

ربي، ربي! أعطني ماءً! أحضروا طبيباً!

(يُخرج سام من حقيبته كأساً فارغة.

قربها من فمي.)

تشوبوكوف

إشرب... كلا، إنه لا يشرب... إذن فهو ميت، وأشياء أخرى من هذا القبيل! إنني أتعس إنسان بين الناس!

بعد ذلك تسمرنا في أماكننا بلا حراك لأكثر من دقيقة. أنا، بلا حياة،

وسام بدون حركة، وأورور قد كفت عن الصراخ. وحين نهضنا، كان السكوت تاماً.

أنا الميت، أولاً وقد عدت، ثم سام، الذي كان منحنياً عليَّ وأنا أنازع. وأخيراً، أورور، وقد أمسكت رأسها بين يديها، بفم مفتوح وبعينين تنظران إلى سماء تشرين الثاني.

تركنا الرصيف شأن من يخرج عن خشبة المسرح، لكننا لم نكن ننتظر شيئاً.

أطلق شرطي قائلاً:

ــ لقد أخافني، هذا الوغد، فاعتبرنا تلك الكلمة هتافاً لنا.

٥

لويز

لم أعد طفلاً وذلك في ٩ كانون الثاني من عام ١٩٨٠ في الساعة السادسة صباحاً، لكنني لا أذكر أنني تمنيت ذلك. فقد سُميت ابنتنا لويز، شأن جدة أورور، بائعة سمك السردين من بلدة دوارنينيز والتي أفنت حياتها كلها تكرر هذا العمل، ويداها في السمك. إنّ اسم لويز يعود إلى هذا السبب، ولقد شرحنا ذلك للأهل المسرورين حتى اقتنعنا نحن بذلك. أما الرفاق فكانوا يعرفون أن تسميتنا هي على شرف لويز ميشيل أيضاً، المعلمة التي فضلت الأسود على الأحمر، أي الحداد على الأوهام، وعلى دماء جنودنا، تلك التي ألهمتني موضوع رسالتي الجامعية في نهاية مرحلة الكفاءة وهو: «لويز ميشيل والحق الإنساني.»

وبالفعل، كانت الاثنتان اللتان تحملان اسم لويز متعادلتين، وقد وجدت أورور عندهما ما هو مشترك من الغضب والكبرياء. لقد أغرتني زوجتي بابتسامتها وبقصة جدتها، في الوقت الذي كانت فيه «بائعة السردين» تقطع الشارع، تطقطق بقبقابيها، وهي تسير بمحاذاة المواكب بلا خوف وصولاً إلى أحزمة الدرك. كانت تغني غضب المصنع معتمرة قبعتها. تغني، بأعلى صوتها، وقبضتاها على وركيها،

شأن العاملات في السمك اللواتي كنَّ يُغنينَ أثناء ذهابهن صباحاً إلى عملهن، وهنَّ يملأن العلب، وكذلك وهنَّ عائدات مساءً ليحضِّرن حساء البحار. في عام ١٩٢٤ أضربنَ عن العمل للمطالبة بفرنك أجر ساعة عمل عوضاً عن ثمانين قرشاً، وقد استسلم رب العمل لمطالبهن. حتى إن واحدة قد انتُخبت عضواً في المجلس البلدي، وكان انتخابها مخالفاً للقانون الذي لا يمنح النساء حق التصويت.

فمنذ بداية العام، كنا أنا وأورور نعد الأسابيع، ثم الأيام. كنا نريد لويز ذاك الأربعاء، لتولد في ٩ كانون الثاني، في ذاك اليوم الذي أغلقت الثائرة عينيها.

وعدت أورور قائلة:

ــ سأتوصل إلى ذلك.

ولقد نجحتْ، مقدمة لنا اسم لويز لنتشارك فيه.

لم أحضر الولادة، بل كنت في بهو مشفى الولادة، ثم في الشارع، وفي الميترو، وفي الشارع من جديد، أمام غرفة عملي، ثم على الرصيف المتجمد، وأنا أدور في مكاني لأمضي ساعاتي الأخيرة التي لا رابط بينها.

*

كنا قد تزوجنا، أنا وأورور محاطين برفاقنا. كنت أسخر من الزواج، أما زوجتي فلقد كانت تأخذه على محمل الجد، وهي التي طلبت الزواج بي. كانت تلبس ثوباً غجرياً فضفاضاً لتخفي بطنها الحامل،

أما أنا فلبست كنزة ذات طراز بريتاني، بثلاثة أزرار على الكتف لتغلق الياقة المستديرة. كان المحتفلون بالعرس الذين سبقونا يلبسون الملابس البيضاء، وملابس أيام الآحاد؛ كانوا في حلل الأعياد، كما كان المحتفلون بعدنا كذلك. كانت العروس تنتظر صابرة، وقد غطى حجاب صغير عينيها، بينما راح خطيبها ينظر إلينا كالخائف. كان ثوب أورور جديداً، وقد ابتاعته لهذه المناسبة، أما كنزتي فكنت أرتديها للمرة الأولى، وهي من الصوف الجيد، ولونها أقرب إلى البياض. لقد تركت قميصي في حجرة الثياب وكذلك حذاءيّ الضخمين، وقد مررنا المكواة على بنطالينا المصنوعين من قماش الجينز لتحديد ثنية رسمية. ومع أنَّ ملابسنا لم تكن منسجمة لكننا كنا لائقين. لبسنا لنشرف هذه المناسبة، لكن العمدة قد حقَّرنا. ولكونه منتخباً من اليمين، فقد جاء حاملاً وشاحه وكذلك احتقاره لنا.

ـ تعني الجمهورية احترام المؤسسات.

استقبلنا هكذا، أنا وأورور والرفاق المشوشِين. قال إن الزواج هو فعل مميز، وهو يوم خاص يفرض موقفاً مميزاً ومظهراً يليق بذلك.

أجاب سام، شاهدي، دون أن يرفع صوته:

ـ إن الجمهورية هي احترام الاختلاف.

كان العمدة مستاءً، فزوّجنا بسرعة شأن من يتخلص من مهمة مزعجة. وقبل الحفلة، كنت منزعجاً من هؤلاء البلهاء الذين علقوا صور لينين على ظهر ياقاتهم، لكنني رحت فيما بعد أعتز بهم. لقد لمت نفسي لارتدائي قميص العريس، أما ثوب العروس فكان بألوان الربيع، ولشرائه جمعنا ثمنه من رفاقنا، فبذلنا قصارى جهدنا، لكن

جهدنا الأقصى لم يكن كافياً لهم.و حين تكلم العمدة، استرسلت أورور في البكاء. لا شك أن طفلنا بكى هو الآخر.

رأى العمدة ذلك، وربما فهم مدى إساءته، لكن الأذى قد وقع. حينذاك غنينا نشيد غضب الثورة الشيوعية، وقبضاتنا مرفوعة عالية على درجات دار البلدية. لم أرتدِ بعد ذلك قميص العرس، ومزّقت أورور ثوبها حين عادت إلى البيت، لأننا أدركنا، مرة أخرى ما كنا نناضل من أجله في الحياة.

*

وجدت نفسي قد أصبحت أباً في الشتاء، والخوف يعصر أحشائي، فانتقلت من وضعية الطالب في قسم التاريخ الذي كان يمثل للغد، إلى الرجل الذي يحمل الغد بين ذراعيه. كانت لويز رائعة، فيما أعتقد، كما أنّ الرجال الصغار متشابهون حين يرون النور. كنت جالساً على الكرسي الصغير بالقرب من السرير الذي تستريح فيه والدتها، فتركت امرأتيَّ تستريحان. أجل امرأتيَّ. خرجت متسللاً شأن هارب، فاخترت مقهى في محطة، وكان أولَ ما صادفت في طريقي. بدأت بشرب كأس في مقهى صغير، رفقة مشوهي الحرب، والكؤوس التي تُملأ بحركة أو بنظرة.

ـ إنني أب.

قلت ذلك لكل الناس، دون تحديد. لشخص بالقرب مني، كان يتحدث مع كأسه، وكذلك إلى صاحب المقهى الذي كان يجهلني شأنه

شأن من يسير بمحاذاة جدار رمادي. قدمت كأساً من النبيذ أو كأسين، وزجاجة بيرة، ثم ذهبت إلى رصيف المحطة، على حافة السكك المقفرة، التي لا تنتظر وصولاً، ولا قطاراً. لم يكن هناك إلَّا القطع الثابتة بين السكك كأنها تركض مودعة، ولم أكن أرغب في العودة إلى البيت، لأن الوقت لم يحن بعد. الشقة، وغرفة الاستقبال التي تحولت إلى غرفة الطفلة، والسرير المُعد، والصوان الأبيض، والهاتف الجوال المصنوع من الوبر ليهدئ المخاوف. لم أكن أرغب في هذا الصمت فنزلت إلى الأرض المصنوعة من الحصى، ومشيت بمحاذاة السكك حيث كان الظلام يحميني، فدخلت إلى قاطرة قديمة، مهجورة وسط القطارات المنسية. جلست في مقصورة، بالقرب من النافذة، شأن مسافر يرحل. وتحت رفوف الأمتعة الشبكية، كان هناك صورة لمدينة كليرمون-فيران، بكاتدرائيتها السوداء، وكان النور عذباً، ينبعث مائلاً إلى البرتقالي من فوانيس الجسر، وأبيض من إشارات الطرق، ومذهباً من الليل المضيء. ألصقت جبيني بزجاج النافذة حيث كان عمال السكك الحديد يصعدون إلى القطار من بعيد، وكنت أرى مصابيحهم التي يحملونها بخفة. لم أكن أخاف شيئاً، بخاصّة منهم، أي رجال السكة. ماذا أفعل هنا، يا سادتي؟ إنني أفكر. أغلق ثانية كتاب طفولتي. أعطي لذاتي ليلة لأسترد أنفاسي. هل لي منزل؟ طبعاً عندي منزل. تريدون رؤية مفاتيحي؟ ها هي ذي. المفتاح الأول المنبسط، إنه باب المدخل، والمفتاح الصغير لعلبة البريد. والثالث؟ هذا؟ المكسور؟ إنه باب الجنة. كان يفتح غرفة سرية، في الجامعة. سقفٌ كان سقفنا، وملجأ كان ملاذنا. إنه رحمنا. لا تفهمون شيئاً؟ لا يهم ذلك. فمن أجلكم كنا نناضل. من

أجلكم أنتم الذين تمشون على طول السكك. من أجل عمال مصنع القشاشة، نناضل مع المضربين عن العمل في مصانع ألستوم، من أجل النساء اللواتي ضُربن، والشبان المحتَقَرين، والمهاجرين الذين حُرموا من حقوقهم، وعمال المناجم الذين هم في أعماق الأرض، والبحارة في محيطهم. من أجلكم يا سادة، يا رفاق، يا أصدقاء. من أجلكم أنتم الذين لم تفكروا يوماً بذلك على الإطلاق. إذن، من فضلكم، دعوني أنَمْ. دعوني، في هذه الليلة الأخيرة، أقوم بتلك الرحلة الثابتة في هذه القاطرة المهجورة. دعوني أسترجع أفكاري. دعوني أصبح أباً قبل أن أصير كذلك تماماً. أتركوني وشأني.

نمت حتى الصباح الجليدي حيث كانت الخامسة صباحاً، وكان عمر لويز يوماً واحداً فانتظرت أمام الشبك حتى يفتح المستشفى أبوابه. كنت سعيداً. كنت في سلام. كنت أباً. لم يكن لي مثال للأب إلَّا غياب والدي. كنت أباً، اقتضى مني ذلك ليلة لأقبله. كنت أباً، ركضت وأنا أعرج في الممر المقفر لأجد امرأتيَّ.

*

ولدت يوم الثلاثاء في ١٦ أيار من عام ١٩٥٠. جئت هكذا، وأنا أقلب حياة شخصين شابين. لم يكن أبي يرغب في الأطفال، أما أمي فلم تكن تعرف أنها حامل فأخفتني في بطنها عن والدي خلال عدة أشهر. كان أبي بروتستانتياً، وهي كاثوليكية، فسهرت عليَّ مريم العذراء، لذا أبقتني حياً، واحتفظ بنا والدي، ولكن لا شيء أكثر

من ذلك. كانت أمي المسؤولة عني، شأن شراء الحاجات، وتنظيف المنزل، ومسح الغبار تحت الأسرّة، لذا أظن أن والديَّ قد تحابا قبل أن أرى النور.

كان هو باريزياً، حقيقياً ترعرع في حي «الروكيت» في أسرة عمال، وكان أبوه حداداً وأمه تصنع مشدات. روى لي عمي أنهما في يوم من أيام كانون الأول وقفا في الرتل أمام مكتب الإعانات، مع المعوزين. كانت أمي تنتمي إلى منطقة «مايين»، وقد ولدت وسط مزرعة بالقرب من قرية «كومّير». وحين مات والداها وقد أودت بهما الحمى الدماغية، كانت في الخامسة عشرة من عمرها، فأوتها خالتها في «مونترويْ» إحدى الضواحي الباريزية، فعلّمتها، طوال سنوات، مهنة الغسيل والكيّ، قبل أن تسمح لها بالعودة إلى الدراسة. لقد التقى فيما بعد أبي وأمي، أثناء الحرب، فأمضيا أوقاتهما بمشاغل يومية، وهما يناضلان للحصول على الفحم والخبز، ثم خرجت أعلامنا ثانية من الخزانات تعلن النصر. كان هو أستاذ تاريخ، أما هي، فصارت معلمة. وفي آب من عام ١٩٤٩ أخذت زوجها لزيارة «مايين» لأنها كانت ترغب في أن ترى الأشجار والسماء ثانية، وكذلك مزرعة والديها؛ هناك بدأت لحظة تكوّني الأولى مصادفة، ذات مساء، وسط الأعشاب العالية.

عندي من ذكريات طفولتي النزر اليسير، وكذلك الحال بالنسبة إلى الصور الفوتوغرافية التي وجدتها ذات مساء، قبل أن أغادر بيت أبي. أربع صور مخرمة من الطراز القديم، أكبر بقليل جداً من حجم

الطوابع البريدية الجميلة. في الصورة الأولى كنت أبدو كفتاة، كوني ألبس قميصاً أبيض انزلق في بنطال قصير فضفاض وقبعة من القماش المخرم، وكنت أمسك يد امرأة، أخفى الإطار صورتها.

كان أبي يقول لي دون أن يتذكر فعلاً:

ـ إنها يد والدتك.

هناك صورة أخرى تُظهر عربة أطفال، تحت شمس منطقة «السافوا»، كنت فيها، دون أن تتبين معالمي. أما الصورة الثالثة فتُظهر مراهقاً، يُخفي، بحركة من يده، تقاطيعه الفظة. لم تكن الصورة تفصح إلَّا عن نظرة، وعن شعر منتصب، وعن تعبير غامض. أما الصورة الأخيرة الأشد ألماً، فقد التقطت في عام ١٩٥٥، أثناء جنازة أمي، ولم أكن قد تجاوزت الخامسة، ولم أعرف من هو الذي سلّط آلة التصوير على ذاك الطفل التائه، ومن الذي ضغط على الزر في ذاك اليوم ليوقف الزمن. لا شك أن المصور قد جلس القرفصاء على الطريق، إذ لم يكن يظهر إلَّا بناطيل داكناء الألوان، وثياب حداد، وشباك المقبرة. كان هناك، على حدة، ظلٌّ جلس القرفصاء، بملابس رخيصة، يقطف زهرة من التلّعة يودع بها أمه. بعدها، سرقت هذه الصورة من أبي، وأخذتُها من علبة البسكويت التي لم يكن يُخفي فيها كثيراً من الأشياء.. أخذتها حينذاك، وهي معي دائماً.

ثم انتقلت من الطفولة إلى الصبا، فكنت في مدرسة داخلية طالباً صعب المراس أعد الأيام الصاخبة. تعلمت أن أقاتل، وأن أكف عن الاستماع، وكذلك عن الإصغاء؛ أن أتبع غريزتي شأن الذئب في اقتفاء الأثر. في الإعدادية، كنت طالباً ذا نتائج متوسطة، كما كنت فيما بعد،

في الثانوية، طالباً بالمستوى ذاته من النتائج. كانت الرياضيات تُخيفني، ولم أفهم تلك اللغة على الإطلاق، إذ طالما رأيت هذا الكابوس وهو طفل يُدعى إلى السبورة. أما التاريخ والمسـرح فلقد كانا يعلوان فوق كل المواد. كنت أفضل أن أمثل دوراً، وأن أضع ملابس مختلفة، وأقوم بحركات أخرى، بصوت آخر، وبنص مختلف. منذ الروضة، لم أكف عن كوني ممثلاً، ثم عن إخراج مسرحيـات صغيرة. كنت أبتكر الأدوار حتى قبل أن أجيد القراءة. في المدرسة الإعدادية شكلت فرقة أسميتها «فرقة الكسالى»، وهي عبارة عن عدة طلاب رحت أدربهم على التمثيل في الأعياد وفي حفلة نهاية العام. أما في الثانوية فألفت «فرقة اللوحات الخشبية الأربع» ثم فرقة «المسرح الزائف»، وكانت تلك الفرقة عبارة عن إرادات مختلفة ومواهب متنوعة، وحصلت على شهادتي الثانوية في عام ١٩٦٨. لم يكن هناك امتحانات كتابية، بل كان فحص شفهي سألوني فيه عن أحوالي. تحدثت عن ريمبو، وعن رونسار، وعن الحب. أما في امتحان التاريخ، فلقد تحدثنا عن الحاضر. قلت: «أفسح النظام مكاناً للحرية». كنت قد قرأت هذا الشعار على أحد الجدران وأنا آتٍ، فابتسم الأستاذ، الذي كانت إحدى ذراعيه مضمدة، وقد أقسم الطلاب على أنه قد ذاق ضربة عصا من الشرطة، مع أنني لم أعرف شيئاً عن ذلك. كان يهز رأسه إثر كل كلمة أقولها، شأن كلب من الوبر قد عُلقَ على الزجاج الخلفي لسيارة عطلة. لم يكن ذلك دليلاً على أدبه، لكنه دليل موافقته على ما أقول، وقد أسكرني ذلك.

أصبحت حاملاً للبكالوريا من جيل ثورة أيار، ثم طالباً في تشـرين الأول، في جامعة السوربون بعد المعركة. كنت أريد أن أعمل في

المسرح، لكن والدي أرغمني على دخول قسم التاريخ، مقدماً لي كرسيه الجامعي المتواضع، وهذا كل ما كان يستطيع أن يُقدمه لي، فقبلته، فحصلت على إجازة في التاريخ، ثم شهادة الكفاءة، ولم أنجح في شهادة أهلية التعليم التي تقدمت إليها مرتين، فقمت بدروس لا نهاية لها، ثم صرت مراقباً في بهو الطعام وفي الباحة، على أمل الحصول، في يوم ما، على مكانه كمدرس. وماذا عن المسرح؟

كان أبي يقول:

ـ إن المسرح لعطلة نهاية الأسبوع، شأن البستنة.

هكذا كان علم التاريخ مشتركاً بيننا ولكن لم يكن تاريخنا هو المشترك، كما لم يكن من ذكريات حسية نسترجعها. لم أحتفظ بشيء من والدتي، إذ ليس ثمة أثر لشفتيها، ولا أية بادرة حنان، ولا أية نظرة. لم أحتفظ بأية ذكرى عن والدي لأنه لم يكن أي شيء بيننا. لا أتذكر يده، ولا أصابعه التي تُطمئن حين تصر العاصفة، ولا حتى غضبه، وفرحه، وصيحاته. لا أتذكر صوته، كما لا أتذكر ضحكاته. وحين أفكر فيه، حتى اليوم، أرى الصمت ثانية. هناك أطفال يُحبون، أو يُكرهون، أطفال يُضربون، وأطفال يُغتصبون أو يُغمرون بالمحبة والحنان. أما أنا، فلقد بقيت بعيداً عن كل ذلك. وغالباً ما ابتسمت، وأنا أحاكي في المسرح القبلة الأبوية: شفتان على جبين الطفل الذي ينام، أو حنان الأم، بصدرها المقدم، وذراعيها المفتوحتين، وعينيها اللتين تبرقان من أعماق البطن. لقد جئت إلى العالم لأن امرأة قد أحبت رجلاً وقد رحلتْ دون أن يتسنى لها الوقت لتحبني. كنت فماً إضافياً ليُطعَم، فأصبحت قلباً زائداً.

كنت في العشرين من عمري حين توفي والدي، فبقيت واقفاً، أنظر إليه، في حين راح أناس يدخلون الغرفة، بعضهم يُقبله، وبعضهم الآخر يلامس يده، كمن يتأكد. كنت أمام النعش، مطأطئ الرأس، وبلباس يسحق فخذيَّ من الألم. كنت أراه كله، ولم يكن لديّ خيار إلّا أن أبسط يدي؛ فجلدي من جلده وإن كانت عروقه بارزة، وحتى واهنة. لم يكن أمامي إلّا حركة أقوم بها كي نتحد. لم أعرف ذلك. كانت يداه مضمومتين، أما أنا فكانت ذراعاي متصالبتين، كأنني معاقب في زاويتي، دون أن أجرؤ على التنفس، فكنّا كلانا شأن تمثالي موتى مسجيين.

بقيت هكذا طوال الليل؛ ورفضت الجلوس على كرسي، كما رفضت كأس ماء، وقطعة بسكويت؛ كل تلك الأشياء الفظة التي تدندن بالحياة، فاضطروا، صباحاً، أن يدفعوني برفق كي يغلقوا الصندوق. كانت يداه آخر ما رأيت، وقد وضعتا على قماش من الأطلس، ينقطهما الموت الأسود. كان في استطاعتي أن أدخل أصابعي تحت الغطاء، دون أن أرى، وأن أتمسك بكمه كي أبقيه معي، لكنني لم أحرك ساكناً. بقيت أمام النعش. كنت يتيماً، في الأمام، في الصف الأول. من جلدينا بقي جلدي. قلت لنفسي عليَّ أن أدافع عنه، ضد الذين يبغون له السوء، ومن الذين يودون له الخير. عليَّ أن أحمي جلدي، واتخذت هذه الجملة شعاراً لي حين كنت أقاتل، أي أن لا أكون قشرة، أو جلد ميت يجره المرء شأن كفن. كان الرفاق يُشيدون بالشيوعية، وكنت أتبع شعائري الخاصة، وهي النضال، أي البقاء واقفاً، أرفض الركوع على الركبتين، أو التمدد، مطلقاً. وحين كنت أسقط تحت الضربات، كنت أرى

جثمان أبي الذي كانت يداه المضمومتان تخجلانني. لقد قاومت وأنا طفل، ثم يافع، وقد تدرجتُ من تلوث أصابعي بالحبر إلى جلفها.

*

أخذت لويز بين ذراعيَّ، ضممتها طويلاً، وقد مرّرت يدي تحت رقبتها، فكانت ترتعش، وتفوح منها الحياة. لم أكن قد حلقت لحيتي، وقد حاذى خدي خدها بوجل، فتحدّثت إليها بعذوبة، كأنني أحدث ذاتي.

ـ أحبك، أحبك، أحبك.

تمتمت ذلك ثلاث مرات. تلك الكلمات التي كان يفتقر إليها كل طفل مع الآخر. وضعت شفتيَّ على جبينها، ولم أشعر يوماً بجمال كهذا الجمال ولا بعنف كهذا العنف بتاتاً. لم أعد وحيداً. كان عليَّ أن أحمي كائنين، أن أدافع عنهما بكل قواي؛ أم، وابنتها، خفت عليهما.

ـ ماذا قلت، يا جورج؟

رفعت رأسي. كانت أورور جالسة في سريرها، وقد استندت بظهرها إلى وسادة. كانت تنظر إليَّ، حينذاك كررت كلامي.

ـ سأقتُل من أجلها.

ـ لا تقل أشياء من هذا القبيل، إنها ترعبني.

انحنيت على ابنتي.

إنني حارس، وجندي، وخفير.

ـ سأقتُل من أجلك، يا زوجتي الحبيبة.

٦

جوزيف بوكزوف

إنني خائف، وأدرك أن ما يجري فيَّ هو شيء غير الدموع والدماء، لذلك أكظم غيظي. ففي المدرسة الداخلية، كنت أقلب سريري بيديَّ كي أحطم غضبي، مع ذلك ضربت معلماً قال عن طالب إن كيانه غير مكتمل، وكان ذلك صحيحاً. لم يكن مثل الآخرين، بل كان يعاني قصر بصر كبيراً، أقرب إلى العمى، ويتابع الأسطر بإصبعه الخرقاء. يُدعى بشير، لكنّ المعلم كان يناديه «بوشيمان»، وقد شوّه اسمه ليسخر منه. وحين كان بشير يتلمظ بإجابة لا تخرج من فمه، يروح المعلم مقلداً لغة رجال الأدغال، مشيراً عليه بالعودة إلى كهفه، وبتسلق شجرته، ناصحاً إيّاه بالمجيء إلى المدرسة حافي القدمين، إن لم يعتد على انتعال أحذية المدينة.

فمنذ أيلول إلى تشرين الثاني من عام ١٩٦٢، أساء أمبرواز فانسي، مدرس الصف السادس في مدرسة «توماس ـ إديسون» معاملة الطالب الجزائري بشير طيّبي، الذي أعيد إلى الوطن مع متاع والده الحَرْكي[٢]. وقد تركتُه يسترسل في سوء معاملته مدة طويلة جداً. استمر ذلك ساعات وساعات، وسط فرح الآخرين الذين يعرفون أنهم فرنسيون. ذات يوم جمعة، في نهاية الدروس، ترك بشير نظارتيه

[٢] الحرْكي هو متطوع في الجيش الفرنسي في شمال إفريقيا، قديماً. (المترجمة).

السميكتين كنوافذ السفن تسقطان على الأرض، وراح حذاء تلو حذاء يقذفهما من طرف القاعة إلى الطرف الآخر. نظرت إلى فانسي الذي كان يراقب اللعب، ويرى كل شيء؛ عين على ساعة الحائط، وأخرى على النظارتين. وقف بشير، ممتد الذراعين من دون أن يبكي، أو يصرخ، لأنه تعلم ألّا يتوسل. كان همّه أن يجد النور بصوت خفيض.

كان فانسي جالساً على حافة الطاولة عندما رفع نظارتيه، ونظر إلى زجاجهما الملطخ في ضوء النهار الذي بدأ ينخفض. نفخ مرتين، قبل أن يمسحهما بعناية. وحين دق الجرس، قال «إلى يوم الاثنين»، دون أن ينظر إلى شيء ما، وتسارع الآخرون، وهم يخبطون الأرض بأحذيتهم الضخمة. التقطت نظارتي بشير، ووضعتهما في يده. لم يشكرني، ولم يقل شيئاً، بل ذهب وهو يركض شأن الآخرين، والخجل يعصر أحشاءه. لم يبقَ في الصف إلّا أنا والمدرس، فتقدمت نحو مكتبه من دون أن أنبس ببنت شفة وضربت وجهه بعنف بمحفظة كتبي ذات المنافخ من دون أن أفكر بشيء، ولم تكن بي إلّا رغبة واحدة وهي إيلامه، فخدَش الجلد خده، وفقد توازنه ووقعت نظارتاه على الأرض، فمشيت فوقهما، وسحقتهما. ولغايةِ اليوم ، تحتفظ أحشائي، بصوت الزجاج المتكسر، وكذلك بصورة هلعه. لقد جلس القرفصاء ليلملم البقايا، أما أنا فخرجت، دون أن أنتظر شيئاً. يوم الأحد، نظرت إلى السماء وأنا أفكر في أن حياتي قد توقفت هناك.

يوم الاثنين في ٢٦ تشرين الثاني من عام ١٩٦٢،عدت إلى مكاني على اليسار، في الصف الثاني من قاعة الصف، حيث أخرج فانسي دفتره

لمادة الرياضيات. كتب تاريخ اليوم على اللوح، وكانت له نظارتان أخريان، مستديرتان وسوداوان، أعطته طابعاً صارماً، ورجع بشير طيّبي إلى ضبابيته.

لم يحدث شيء، ولا كلمة، على الإطلاق. تجاهلنا الأستاذ، أنا، وهو. كنت مطمئناً ومصاباً بخيبة معاً. كنت يومذاك في الثانية عشرة، وكنت أحلم بمجابهة علنية، ومع ذلك طويت نصل سكيني.

*

قال لي سام:

ـ إن العنف يكشف عن ضعف.

كان قد فتح لي بابه في كانون الأول من عام ١٩٧٥، بعد كمين كنَّا قد نصبناه لمناضلين من أقصى اليمين كان أحد الرفاق، قبل عدة أيام، قد تعرف إلى واحد من جماعتهم، وهو يخرج من منتدى لأقصى اليمين، في الدائرة الخامسة عشـرة، في باريس، فعاقبوه بصرامة، وجردوه من انتمائه إلى فريقهم. كان المناضل شجاعاً، لكنه طائش، إذ سجل في دفتر يومياته، اليوم، والساعة، وكل شيء عن موعد اجتماع فرقته القادم. لا شك أنه كان كثير الكبرياء أيضاً، فلم يذكر لقادته الضربات التي تلقاها. وفي ليلة اجتماعهم، كنا مائة شخص، توزعنا فرقاً مؤلفة من خمسة أفراد، في الشوارع المحيطة، في حين كان عددهم أربعين، وربما أكثر بقليل، وهم يتناولون عشاءهم في مطعم فطائر. كانت أورور وصديقة لها من جامعة «سانسييه» قد حجزتا طاولة، في الصالة،

فلبستا ثياب الفتيات، وقد رفعت كلّ منهما شعرها، فرفع أحدهم كأسه وشرب نخبهما وهو يبتسم. وحين طلبوا الحساب، خرجت الفتاتان لتعلماها. لقد شربوا كثيراً، حتى إنه صعب عليهم أن يفترقوا على الرصيف حيث كان اثنان منهم يغنيان أغنية لساردو، ويضم أحدهما الآخر، رافعين قدحيهما باتجاه النوافذ المظلمة.

كفوا عن تسميتي بعد الآن «فرنسا»
إن فرنسا قد تخلت عني...

كنت أول من تلقى الصدمة. وبما أنني لم أكن أستطيع الركض سريعاً، رحت أضرب كل ما وقع في متناول يدي. كنت أصرخ أنا ورفقائي كرهط من الكلاب عندما برزنا من جهتي الشارع، بعصينا الحديدية المرفوعة، وبخوذاتنا، وقفازاتنا، ومناديلنا المسدلة حتى عيوننا، ككتلة واحدة، كل واحد ضد الآخر، بحيث كنا نمثل ثأر المجموعات، لذلك تراني أتذكر مدى قوتي، وغضبي، وكذلك فرحي الوحشي. كانت ركبتي تصطك شأن أسناني. كنت أتألم، لكنني لم أكن أبالي بل كنت أنحني متخفياً شأن السرطان كي لا أدع أي دليل للعدو. كان قفزي مُقلقاً، يشبه رقصة غريبة بدت كأنها متعمدة، وكنت أمد ساقي أمامي فجأة، بعد كل عشر خطوات، وأنا أطرد الهواء بجنون. عندما ضربت أحدهم على ظهره، انزلق على الرصيف لأنه كان سكران، فسقط، ثم نهض. كان يريد العودة إلى المطعم حين ضربته بكل كراهيتي، فقذفته الصدمة إلى الأمام، وبعنف، اصطدم جبينه

بالواجهة، واستدار بعينين جنونيتين. أصبته ثلاث مرات، من أنفه، وذقنه، وفمه، وأنا ممسك بيديَّ بالعصا الحديدية المضرجة بالدماء، ثم مزقت شفتيه، وكسرت أسنانه. كنت أصرخ، ولم يكن هناك أي سلوك إنساني. كنت أغطي صراخه بصياحي، وكانت رجل الطاولة في فمه، جررتها بعنف نحو أذنه، فحمل الفولاذ المكسر بعضاً من خده معه.

صرخ رفيق قائلاً:

ـ رضفات الرُّكب، اكسروا الرَّضفات.

حين كنا نقع في أيديهم، كانوا يهشمون رُكَبَنا. كان ذلك من اختصاص العدو، فأضحى ذلك اختصاصنا. كنا نبغي منعهم من الركض ثانية، ومن المشي ثانية، ومن السير رتلاً، لنرغمهم على الاستناد إلى العكاز، والكرسي، والألم مدى الحياة، وكان هدفنا أن نترك لديهم أعمق الجراح، كما فعلوا بي، لذلك كنت أقفز من الواحد إلى الآخر، ولم يفلت منا أحدٌ، لأننا كنا ثلاثة ضد واحد. كان الرجال قد تقوقعوا على الأرض بشكل منهجي، منطوين على ذواتهم شأن الأطفال الذين سيولدون، فكانوا يحمون رقابهم، وجباههم، وقد تركوا لنا الباقي. لم تكن الكلمات تفارقني، مندفعة في رأسي حتى اللامعنى. «راح قلبي يخفق بعنف...حقولي الصغيرة...عيناي منبهرتان...» تلك جملة قالها لوموف لناتاليا ستيبانوفنا. في ذاك الصباح، كنت أكرر المشهد مع أورور، وفي اليوم التالي، كنا سنمثل مسرحية تشيخوف في مقر للمهاجرين في منطقة كورباي. «قلبي يخفق بعنف. كان كثير من أهل الحفلة منبطحين أرضاً. عيناي

منبهرتان...». فقد واحد منهم حذاءه وهو يركض. كنت مناضلاً، كنت مخرجاً، وناظراً في مدرسة باريزية، وطالباً متأخراً في قسم التاريخ، أحارب العدو، وأسلي عدو عدوي، كنت أربي أطفالاً لأجعل منهم أصدقاءَ لي.

صرخ رفيق:

ـ تباً! إنهم غير مسلحين! عُزلٌ لا يحملون شيئاً.

أجبته قائلاً:

ـ وأنا؟ هل كنتُ مسلحاً في حديقة اللوكسمبورغ؟

*

قبل عامين، في ٢٦ آذار من عام ١٩٧٣ صباحاً، حاولنا أن نسترجع كلية «أسّاس» من «الجرذان السود» كما كانوا يسمّون أنفسهم. كان «أنتراسيت» تميمتهم التي يتفاءلون بها، وهو شخصية من القصص المصورة في الخمسينيات. إنه جرذ كئيب بأذن ممزقة، وخطم طويل، وأسنان رديئة، فكانوا يضعون صورة هذا القاضم على إعلاناتهم، ومناشيرهم، باعتباره توقيعهم. كان «أنتراسيت» زعيم الأشرار في حكايا الأطفال التي نُشرت في مجلة تانتان، كونه يحلم بالمال، وبالسلطة، وكذلك بالقدرة. أما زعيم الظرفاء فيُدعى «كلوروفيل»، ولم أكن أعرف إن كان شاباً أو فتاة على الإطلاق، بل كان فرنباً أي من القواضم، عينه محاطة بالسواد شأن من تلقى ضربة موجعة. كان «أنتراسيت» ضخماً، ماكراً وبلا رادع، أما «كلوروفيل» فكان صغيراً،

ذكياً، يحزن لكل شيء. في الكتاب المصور، كان الفرنب ينتصر في كل مرة، أما في قتال الشوارع، فلم يكن الأمر بهذا الوضوح، وكنت أكره فكرة أن أعدائي يمتازون بروح النكتة.

في ذاك اليوم، هزم «أنتراسيت» «كلوروفيل»، فتركَنا الجرذ ندخل إلى شارع «أسّاس»، في كلية الحقوق. تم ذلك بمنتهى السهولة حيث كنا نعتمر قبعات حديدية، مسلحين ومستعدين للهجوم النهائي، فدخلنا المجارير، وكنا سنطرد الجرذ إلى الأبد. حينذاك برزت حشود سوداء، من الممرات، من الشارع، من القاعات، وكان الجرذ مستعداً، كان على علم. لقد نصب لنا فخاً، ولم نستطع مجابهة الصدمة، لأنّ معظمنا قد حُشروا في الداخل. وعندما وصل رجال الشرطة، لم يشعر الرفاق يوماً بسعادة كتلك التي شعروا بها وهم يرفعون الأيدي وسط سور من الهراوات، أما أنا، فسعيت إلى مخرج. كنا أربعة، كلنا من جامعة السوربون، فركضنا نحو الباب، لكن العدو كان في كل مكان من الشارع، فاستدرت نحو اليسار، رميت عصاي الحديدية كقذيفة، وأطلقت الغاز حولي، وأفرغت قنبلتي قبل أن ألقي بها. ولأن الريح كانت تهب من الجهة المعاكسة، فقد كدت أختنق. أعتقد تماماً أنني كنت الوحيد، فركضت متجنباً الجرذان، شأن مرافق جناح لفريق «الروكبي» يجرب اللعب. كان خمسةٌ في أعقابي فظننت أنهم سيتركونني، لكنّ ثلاثة منهم لم يتركوني لشأني، ودخلت حديقة اللوكسمبورغ كما يلتجئ المرء إلى كنيسة إذ اعتقدت، ولا أدري لماذا، أنهم لن يعبروا الشباك الحديدية. يمكن قتل أحد ما على الرصيف في شهر تشرين، ولكن يستحيل ذلك في أجمة مشجرة في الربيع.

لقد أمسكوا بي بعد مسافة بعيدة، خلف حوض الرمال، واقتصرت آخر قواي على تجنب الأطفال الذين بدأت أمهاتهم بالصراخ حين وقعتُ. كنت معتمراً قبعتي المعدنية، فحميتُ ركبتيَّ وتدحرجت على شكل كرة، وقد وضعت قشـرة صلبة، وقطعاً تحمي مرفقيَّ، وكرتوناً بين قميصي وكنزتيٍّ. فكرت «بكلوروفيل». يا لها من صورة جنونية. في لحظة سقوطي، وحين اصطدم ذقني بالرصيف، رأيت «الظريف» يقطب حاجبيه، وقبضتاه على وركيه ليمثل دور الشرير. أحاطوا بي، وراحوا يكيلون الضربات بأقدامهم، وبأيدي المعاول، كما كان لأحدهم عصا كرة المضرب التي أدخلها في خوذتي. لم أصرخ. لا شيء من هذا القبيل، لأنني أصرخ حين أكيل الضربات، وليس حين أتلقاها. كنت أبغي الصمت وسط الرهط، وهم كذلك لم يقولوا شيئاً على الإطلاق. لا كلمة خرجت من أفواههم، ولا شتيمة. كانوا كحطابين يؤدون عملهم، فانفجرت. لم أكن أعرف ما هو الألم الحقيقي، الألم مدى الحياة. لقد التقيته، ولم يبقَ أي عظم من عظامي في مكانه. لم يكتفوا بضربي فقط بل راحوا يحطمونني. لقد عطلوا جسدي كله، فكنت مشلولاً تماماً. كان رأسي، ورقبتي، وذراعاي، وساقاي، أي كل جسمي يتقصف وهو يصر. خفضت بيدٍ، خوذتي على جبيني، فسدّد لي جرذ إصابة محكمة على ركبتي اليمنى غير المحمية، فشعرت بألم مميت، كنصل حارق قطع ظهري وفجّر رأسي. لن أمشي بعد الآن، بتاتاً. مزقتُ لساني، أحسست بدقات في صدغاي. توقفت الضربات، لكنني كنت أحسها لا تزال تنهال عليَّ. رحل الجرذان، فتابع قلبي الوجل عملهم، يُكسـر رأسي، ويورم شفتيَّ، ويلطم جسمي

بتشنجات جنونية. كنت أنزف، وقد أشرفت على الموت، ويبدو أنني رفعت قبضتي على الشرطي الذي تفحص شرياني السباتي.

كان هناك كسر مفتوح في الركبة اليمنى، وقطع مشتتة وتطويق بشريط حديدي، وسيخ طوال سبعة أشهر. ثم العصا، وبعد ذلك أربطة، وتدليك طبي، وآلام لا تنقطع، حين أصعد السلم، وحين أنزل، وكذلكحين أثني ساقي. توقفت ركبتي عن الحركة في ربيع 73، وكان هناك ثلاثة أضلاع مكسورة، وكذلك عظم الترقوة وعظم النقا، إضافة إلى أنف مهشم، وقطبٌ على الجبين، وعلى الرقبة، مع ست عشرة سناً ناقصة، والعين اليسرى مريضة منذ ذاك اليوم، أما الغضب فبقي على حاله لم يُمس.

كنت أجيب عن الذين يقولون لي إن شبان «النظام الجديد» عنيفون كالبرابرة، بأنها الحرب. كانوا يهاجمون، وكنا نرد. كنا نطلب عينين مقابل عين، والفم كلّه مقابل سنّ واحدة. لم تكن أسلحتهم أكثر وحشية من أسلحتنا، كما لم تكن خططهم الحربية أشد هولاً. كنا إخوة في العنف. إذن، لا تصرخوا بالهمجية، وعلى الأخص، لا تنددوا بذلك.

كانت أفكارهم كالعنصرية، ومعاداة السامية، واحتقار الآخر تهديدات يجب محاربتها، شأن حقدهم للحاضر، واشمئزازهم من المساواة، ونفورهم الشديد من الاختلاف. إنّ كل ذلك يعدّ من الوحشية البحتة، لكن طريقتهم في الدفاع عن أفكارهم كانت تعادل طريقتنا. هذه الأفكار راودتني عندما سقطت على عشب الحديقة، فشعرت أنني خسرت، وبأنه قد جاء دوري، فكنت مغتاظاً لأنني لم أستطع قهرهم؛ سيحتفلون بألمي، وتلك مسيرة الأمور. دخلت دائرة

العنف لأدافع عن الإنسانية التي يكابدونها بالأسلحة ذاتها. لقد فات وقت التراجع، وكنت أقبل عدم فهم الآخرين لذلك. كنت أصغي لمن يرفضون الوحشية الحمراء كرفضهم للوحشية الرمادية، لكنني لم أكن لأقبل أن من سدد ضربات يشي بالضربة التي يتلقاها بالمقابل.

*

عدت إلى مطعم الفطائر وكلي برهان على الهجوم. ببزتي الممزقة، وبصليبِ سلْتيّ مُذَهب قد عُلق على الثنية. مددته لسام، فلم يأخذه، وسألني قائلاً:

ـ ماذا حدث؟

أجبته:

ـ لقد غير الخوف معكسره.

فردّ بالقول:

ـ إن العنف ضعفٌ.

بدت مني حركة لا معنى لها، فرفعت كتفيَّ، وسألته ماذا كان يمكن أن يفعل، في مدرسة البوليتكنيك، لو كان بيده سلاح ما؟ ولو قُدِر له أن يدافع عن ديوميدس كومينوس، ألم يكن يفعل ذلك؟ هل يتركه يُقتل دون أن يدافع عنه؟

كان سام يقرأ نصاً حين أدخلني بيته، فهدوؤه يخرجني عن طوري، إذ غالباً ما كان يطفئ نور الكهرباء ويُشعل شموعاً، وكان يُصغي إلى ما لا نهاية إلى بعض ألحان «رتبة القداس الإلهي للموتى» لموريس دوريفليه

«يا يسوع الرحوم ...». وعندما كان الترتيل الجماعي ينطلق في الختام يتوقف الأرغن والفرقة الموسيقية ليُفسحا المجال للصوت وحده. روى لي سام، منذ شهر أيار، أن الموسيقار قد حبس ذاته في بيته، بعد أن جُرح جرحاً خطراً في حادثة سيارة. وكان صديقي يقول إن هذا الموسيقار لن يؤلف ألحاناً بعد الآن، على الإطلاق، وإن هذا العمل الموسيقي الطقسي قد وهبه دوروفيه كوصيته لأكونيس، وكانت رتبة «يا يسومع الرحوم الراحة الأبدية أعطهم يا رب... »... تؤثر فيه بالغ التأثير. كان سام يريد مغنية أوبرا تمتاز بصوت من طبقة ميزو سوبرانو (Mezzo-soprano) في مسرحيته حيث كان يحلم بهذا الصفاء لوداع أنتيغون.

أنتيغون

لم أعد أعرف لماذا أموت.

كان هناك موهبة المغنية، والزمن الذي توقف، وألحانه الأولى، وآلة التشيلو الآتية من بعيد، خفيفة كالنسيم.

ـ أجبني يا سام، من فضلك، لو استطعت إنقاذ ديوميديس...

نظر إليَّ، ثم نهض بتثاقل، مُصَفِّراً بتنفسه، فأحضر مرآة وفتَّش في جيبه الخلفي. أخرج كيبا[٣] سوداء، مضلعة بخيط ذهبي، لّمعتها الأفراح والأحزان، كانت لأبيه الذي ذهب يموت حاسر الرأس. وبعد أن وضعها على رأسه، جاء نحوي، ويده على كتفي، وقد أمسك بالمرآة أمامنا. أنا وصموئيل أكونيس، صديقان في الصورة.

ـ قل لي ماذا ترى، يا جورج.

---

[٣] Kippa قلنسوة يعتمرها اليهود المتدينون. (المترجمة).

لم أفلت منه، لكنني لا أحب هذا الضرب من التمثيل. كان على خشبة المسرح، يتحدث كمن يتلو دوره، وهو عدو الكلمة الزائدة. كنت أتساءل كيف استطاع أن يواكب نضالنا منذ سنتين من دون أن ينتقد حقاً، ومن دون أن يُظهر شيئاً من الغضب أو من السخرية. من كان هو، في الواقع؟ إنه مخرج يوناني مثّل في مسـرحية أوبي الملك تحت حكم الدكتاتورية، وقد أسيئت معاملته لهذا السبب. وماذا أيضاً؟ لا شيء يُضاف؟ كلا. لا شيء. لقد أدار خده الآخر. تحدث عن المسرح، وترك المجال حراً لحكم العقداء. تسلق شبكاً، وقع، وجُرحت ساقه. إنه حادث مألوف، ثم هرب ملتجئاً إلى فرنسا، فصفق له الديمقراطيون، ودعي إلى كل المنابر، وليفضح الدكتاتورية، تحدث عن المسـرح. حُمل على الأكتاف، وسط الأعلام الحمراء، والسوداء، والفيتنامية، والصينية، والشيلية، والفلسطينية، والبسكية. رفع ذراعيه، وابتسم، تحدث عن المسرح عوضاً عن أن يُجند جيشاً لإنقاذ فتى في السادسة عشرة من عمره، سرق اسمه ليؤلف به فرقته المسرحية. أخذ نضالنا ليجعل منه ردوداً مسرحية. شكل من قتالنا حوارات، وكان في مكان آخر، متحفظاً، ولم يظهر على خشبة المسرح إطلاقاً. كان يتجول في الكواليس، يراقب ما نحن عليه. لم أحب في حياتي إنساناً كما أحببته قط، أجل مطلقاً، وكنت ألوم نفسـي لأنني لا أفهم صمته.

ـــ قل لي، يا جورج، ماذا ترى؟ ومن ترى؟

كانت قلنسوته تزعجني. تُظهره بعيداً، مختلفاً، في منأى عني.

ـــ سأقول لك ماذا أرى، يا جورج.

تخلص مني، وهو يبسط لي المرآة.

ــ إنني أرى رجلاً يرفض الظلم واللامبالاة. إنه شخص حسن.

كان يلاحظ صورتي في المرآة.

ــ أرى ناظراً في المدرسة أسعفه الحظ لأنه لم يُقتَل، منذ عام في حديقة اللوكسمبورغ، ولم يحكم عليه مطلقاً، وقد استعاد عمله بفضل استنفار رفاقه وتفهم وزارة لا تدين له بشيء.

سوّى سام قلنسوته.

ــ لكن الشخص الطيب كان محظوظاً، وهو يعرف ذلك. إنه محكوم عليه في كل مكان مع وقف التنفيذ؛ فعند أبسط زلة، ستصرعه العدالة. التي تعشق الفرائس السهلة.

غيّر مكانه، وقد تركني وحدي في الإطار.

ــ إن أورور تحبك، وكذلك المسرح.

وضع المرآة في مكانها.

ــ إن ما نعيشه قاسٍ لكن ذلك ليس بالحرب. إنكم لستم مقاومين وجيسكار ليس بيتان. صب كأساً من الأوزو[4].

ــ سيصدمك كلامي، لكنني أعتقد أن رفاقك الصغار لشارع «أسّاس» ليسوا نازيين أو فاشيين على الإطلاق، وهذه الكلمات لا تعني شيئاً.

ــ ربما هم ديموقراطيون؟

ــ إنهم عنصريون خطرون. إنهم كذلك، لكنهم ليسوا ألويس برونر.

---

[4] صنف من مشروب العرق اليوناني.

تذكرت ذلك.

ذهب إلى مكتبته حيث كانت صورة قديمة، منقطة بالأصفر داخل كتاب عتيق. إنها صورة رجل جدي، أو قاسٍ، لكنه شبه بسام. كان الوجه بارز التقاطيع، بعينين محمومتين، وفم مُطبق. أما وجنتاه فكانتا غائرتين، وروحه تستشيط غضباً. كان الرجل يلبس معطفاً ووشاحاً ثقيلاً لفه على الوجه الداخلي؛ كانت الصورة جانبية، وقد رفع شعره إلى الخلف، وهو واقف أمام جدار رمادي.

ابتسم صموئيل أكونيس قائلاً:

ـ أعرِفك على جوزيف بوكزوف.

تذكرته طبعاً. إن صورته واحدة من اللاصقة الحمراء التي كانت تراود نضالنا. كان رفيقاً لمانوشيان، وأعدِم معه رمياً بالرصاص، في ٢١ شباط من عام ١٩٤٤ على جبل «فاليريان». كان يهودياً من المجر، وقائداً غير عادي، وقد كتب النازيون تحت صورته أنه قام بعشرين عملية قتالية. لقد ترك قريته التي ولد فيها وهو في الثالثة والعشرين ليس هرباً، ولكنْ ليلتحق بالجمهورية الإسبانية، فانهزم بهزيمتها، وسُجن في فرنسا، وأرسل إلى أحد معاقل النازيين في ألمانيا، ثم هرب، وعاد إلى باريس، لينضم إلى منظمة الأنصار القناصة وأطلق أول رمانة يدوية له على محطة «بلفيل».

ـ أنظر، يا جورج، أنظر جيداً إلى هذا الوجه. بوكزوف واقف على جدار مع هؤلاء الذين سيُرمون بالرصاص. إن المصور عدو، سيقع تحت رصاصهم. انظر إلى عينيه. أنظر إلى ثنية فمه.

نظرت إليهما: إلى جوزيف وإلى صموئيل وإلى قلنسوتيهما.

ـ إنه سيموت، لقد مات. لم يعد لديه أمل، ولا مستقبل، ولا أي صباح أمامه. سيرحل من عالم مقهور، يصحبه حشد من ملايين الضحايا والعبيد. لا يعرف، ولن يعرف ما سيكون الغد على الإطلاق. لن يعرف إذا كان نضاله بلا جدوى، أو إذا كان لموته قيمة. أنظر إليه، يا جورج. إنه سيموت. لم يعد في مقدوره شيء. لكنه ما زال يحلم بتمزيق جندي. أنظر كم هو هادئ. كم هو وسيم. لا يعدهم بشيء آخر غير الموت.

رتب الصورة في الكتاب. إنه مؤَلف كُرس للطبخ الألماني. لم يكن سام في المكان الذي يُنتظر فيه البتة، ثم وقف بدوره أمام المرآة.

ـ هل تعرف ماذا أرى هناك؟ لا أرى مقاوماً، ولا بطلاً، ولا أسطورة، لكنني أرى يهودياً من سالونيك، أصبح يونانياً بسبب الهجرة الجماعية وهو يُفضل أن يكون فرنسياً ومخرجاً لأنني حين لا يبقى عندي فكرة، أختلق شخصية مسرحية. هذا كل ما في الأمر، وذلك يناسبني.

ـ ونحن، يا سام؟ أنا، وأورور، والرفاق، ماذا نعني لك؟

ـ إنكم أولئك الذين وضعوا حداً لتسكعي.

رفع قلنسوته، ثم وضعها على رأسي بشيء من الابتسامة.

ـ بوكزوف قد ربح الحرب، يا جورج. إنه هو الذي ربحها.

٧

أورور

قالت لي أورور، ذات يوم أحد، في وقت القيلولة:

ــ لو لم يأتِ سام إلى فرنسا لما التقينا مطلقاً.

ربما. لا أدري. لقد لاحظتها هي ورفيقاتها، منذ زمن طويل. كنَّ أشد اهتماماً بموقع النساء في النضال أكثر من الاهتمام بالنضال في حدّ ذاته. حين وقفتْ، في المدرج حيث كان يتحدث اليوناني للمرة الأولى، لم أكن أجهل أورور، كنت أعرف أنها ستتهم ضيفنا باستعمال المذكر.

أطلقتْ في اجتماع، في عام ١٩٧٣، حين كنا نكتب منشور دعم لإنشاء جبهة البوليزاريو قائلة:

ــ يجب العمل لتأنيث كل الكلمات.

أجبتها وأنا أضحك:

ــ كل الكلمات؟ إذن. هناك كلمات تثير السخرية إذا كتبت بالمؤنث.

اعتبرتني ذكورياً، وأبله المولد. كانت تسميني «بماوب»، كلما صادفتني اختزالاً لـ«ماو الأبله»، وكانت تلك التسمية تلائمني، ولم تكن خطرة لذلك كنت أرغب في أن أجعلها تبتسم، وكانت تُبعد تلك اللحظة.

ذات يوم، قام رفيق بعيد بملاحظة تمييز لمصلحة الذكور، فطلبت منه أن يوضح فكرته علناً، وأن يقوم بنقد ذاتي لكلامه، وقد ترأست هذه المعركة لأن هذا الشاب كان يثير اشمئزازي، وكذلك لأن أورور تعجبني. قمت بمداخلة عن المساواة، فذكرت ماو، وعلاقته بالتحقيق الذي قام به عند الفلاحين في هونان في آذار من عام 1927. «فبالإضافة إلى أن النساء يخضعن للسلطة السياسية القبلية والدينية، فإنهن يجدن أنفسهن خاضعات لسلطة الرجال. إن من شأن هذه الأنظمة الأربعة الإقطاعية-الأبوية أن تشكل الحبال المكبلة للشعب.»

سألتني أورور قائلة:

ـ أحسنت يا ماو، ولكن ما هي النتيجة في حياتك العملية؟

أجبتها:

ـ إنها مجرد جهود.

كانت واقفة في الغرفة، أمامي، وكان كل الرفاق جالسين.

ـ لا يزال أمامك عمل كثير!

ـ ساعديني لأتقدم!

أجابتني، فأجبتها، ثم ردت عليَّ أيضاً. كانت الردود للانتصار على الآخر، ثم إنها مَصوغة للإقناع قبل أن تتصادم بتؤدة، كمن يقارع كأساً نخب الآخر.

قالت لي بعد زمن طويل:

ـ كنت متعجرفاً بشكل لا مثيل له!

ـ وأنت، كنتِ بكبرياء لا حد لها!

استمرت الوثبات، حتى إن حججنا قد أنهِكت، وكانت بعض الابتسامات الخبيثة تزعجني في الصالة.

اقترح واحد من مسؤولينا قائلاً:

ــ سنترككما وشأنكما.

احمرّ وجه أورور، فجلست. احمر وجهي وجلست. كان كل واحد أمام الآخر كمرآة. في اليوم التالي، دخل سام إلى مدرج جوسيو.

لم تكن أورور من أتباع ماو، كما لم تقرأ ماركس إطلاقاً، وهي لم تهتم بكل ما يشكل بنيتنا السياسية. كانت من أنصار المطالبة بحقوق المرأة، مناهضة لأية سلطة كانت، متعلقة بشغف بحريتها، وكانت تجد المقومات المنطقية في حركتنا لتدافع بها عن نفسها. كنَّ ثلاثين فتاة معنا، مختلفات عن المناضلات اللواتي هن من أنصار لينين. يوماً، يسرن في تظاهرة مع رفيقات لهن دفاعاً عن حق الإجهاض، وقد رفعن إبهاماتهن وضممن سباباتهن، ليرسمن جهاز المرأة التناسلي. وفي اليوم التالي، كنَّ يمشين رافعات قبضاتهن، دفاعاً عن كرامة المهاجرين المتجمعين في أطراف مدننا. كانت تدوي صباحاً صفارة حركة تحرير المرأة، ومساءً، ينددن بعنف بأتباع ماو.

*

قررت أورور، حين ولدت لويز، أن تترك السياسة، لكنها ستستمر في نضالها من أجل الكرامة، إنما بأشكال أخرى. كان الاستقلاليون

يخيفونها، كما لم يكن العمل المباشر يلائمها. لم تكن تُشحم الأسلحة، لكنها كانت ترضع طفلتها، وكنت أعرف ذلك. منذ البداية، راودني شعور أن أورور ستقف عند حافة الهاوية. هي أستاذة للغة الفرنسية، وأنا أدرس التاريخ إلى ما لا نهاية. كنت ناظراً طوال ثمانٍ وعشرين ساعة أسبوعية لأكسب قوتي، ووصلتُ إلى حد السن النهائية للدراسة الذي قررته وزارة التربية الوطنية، وكان وضعي كطالب يثير ابتسامات السخرية، فوجدت نفسي ناظراً للطلاب في مؤسسة سخية.

كان يُسمَع، في الليل، سعال في البيت، إذ ولدت لويز قبل وقتها، ولدت صغيرة، ولدت ضعيفة البنية.

ــ أقسم لك إنه لن يحدث لك أي مكروه.

كنت قد تمتمت بهذه الكلمات عند رأسها إثر ولادتها.

ابتسمت أمها قائلة:

ــ سيثير ذلك مللاً قاتلاً.

كنت أدرك ما أقول. لن يؤذيكما أحد، ولن يُصيبكما أي أذى، مطلقاً، لا أنت ولا هي.

أطلقت أورور قائلة:

ــ ولا لك.

كلا. ولن يلحق بي أي أذى على الإطلاق.

*

في ١٠ أيار من عام ١٩٨١، قررت، بدوري، إعلان الهدنة مع الصراع والنضال. وكانت لويز في شهرها الرابع عشر عندما ذهبنا

ثلاثتنا إلى ساحة الباستيل، وهي تحمل علم مقاطعة بريتانيا، علم طفولتها، وثبتت بدبوس لاصقة لصورة لينين على عربة لويز. مررنا فجأة من المجموعة الصغيرة إلى الحشد الجماهيري. كنت أفتقد سام، ولم نستطع أن نقترب من الساحة، بل كنا نترنح بين الساحة وبين مكاننا. وضعتْ إفريقية سواراً يجلب السعد في معصم لويز، وانضمّ رجل عجوز إلى الموكب جاء من شارع معتم، وكنت قد رأيته قبل الآن، تحجبه ستارة من القش وقف خلفها. كان قد رفع ياقة قميصه، وعقد ربطة عنق على شرف تلك الليلة، فكان المطر ينهمر، وهو يمشي إلى الأمام، عالي الجبين. لم يكن يعرف العربي، إنه هو الذي قاد خطانا إلى تجمع لليسار، في تلك الليلة، كما لم تشك أورور بذلك مطلقاً. وحين كان يتقدم، كنت أتقدم، وعندما يتردد، كنت أتردد. يتراجع إلى الخلف فنعود أدراجنا. كنت أتابع سعادته خلسة، وهو الذي كان يستند إلى عكازه. يضحك لضحكنا، يرفع يداً مترددة، ويراقب هذا النصر الغريب عنه. كان يصلح ربطة عنقه، يسحب كمَّي بزته البيضاء على قميصه المتلألئ بياضاً. كان قصيراً جداً، ووحيداً جداً. كان وسيماً، بشاربيه الرماديين وبنظارتيه الكبيرتين جداً. وفي لحظة ما، تخلى عن كآبته، ليحل مكانها فرح الفرنسيين. وبعد أن نظر إلى ساعته، تابع مشيته في اتجاه مختلف.

سألتني أورور:

ــ هل نرجع إلى البيت؟

أجل، حان وقت العودة. نزلنا شارع سانت ـ أنطوان، وعند زاوية شارع جاك ـ كور، كان الرجل العجوز لا يزال هناك، وقد استند

إلى عكازه. لا أدري ماذا خطر لي. وعندما وضعت يدي على كتفه، انتفض، واستدار نحوي، فماذا أقول له؟

ـ أرجو المعذرة، ظننتك أحد أصدقائي.

ابتسم، ونظر إلى لويز التي كانت تبكي، وتمتم قائلاً:

ـ ما أجملها! كانت طفلتنا جائعة، فرحلنا.

٨

جان أنُويْ

لم يشأ سام أن آتي إلى المستشفى بل كان ينتظر أن يتحرّر من أنابيبه، بينما انتظرت نداءه، طوال ثلاثة أشهر. في كانون الثاني من عام ١٩٨٢، حين أدرك أنه سيحتفظ بمسابره وحقنه حتى النهاية، قَبِل أن أزوره.

إنني أكره المستشفى: رائحته، ونظافته، والنظرات الحريرية الموشحة. عرفت من الصحافة أن سام مريض، فألغِيت عشرة عروض لمسرحية بريخت صعود أرتورو أوي الذي لا يُقاوم، بعد العرض الافتتاحي، ولم يكن هناك إلّا عدة أسطر في الصحيفة تُشير إلى طريقة استرداد ثمن البطاقة. لم يكن قد قال لي شيئاً.

*

منذ عام ١٩٧٩، كان صموئيل أكونيس يعيش بين بيروت وباريس، لكنه عاد إلى فرنسا أول مرة، ليكون شاهداً على زواجنا المدني، كما نظم سفراً آخر كي يكون عراب لويز على جرن العماد. كان سام مثلي، ليس مؤمناً حقاً لكنه مؤيد لفلسفة ديكارت التشكيكية بشكل معقول. بين هذين الترددين، استطاعت أورور أن تحتل زاوية. ومن أجلها،

وبسببها وبفضلها، دخلنا أبواب الكنيسة لنتزوج، بعد عام من ولادة ابنتنا.

كان أفضل رفاقنا حاضرين، وقد لبسوا سترات، كما فعلت أنا، وكان أحد رياضيي جوسيو بقميصه قد وضع ربطة عنق بقماش صوفي، أما أورور فكانت تلبس هذه المرة ثوباً أبيض. لم يسخر أحد منا، بل كانت سعيدة، وكنتُ سعيداً أيضاً، مع لويز التي كانت في الصف الأول، على ركبتي صديقة لنا. تحدث القس حديثاً قصيراً وصائباً، ولم يكن يهتم من أين جئنا، لكنه كان يريد التأكد من المكان الذي نذهب إليه، ومن أننا سنذهب معاً، أنا وهي.

وعدتْ أورور بذلك، ووعدت أنا أيضاً. كان القس، يوم الحفلة، أكثر أناقة من العمدة، ممثل الجمهورية، الذي جمعنا. لقد زوجنا بفرح جعلني أبتهج. وعلى الدرجات، رمى الرفاق أرزاً مصبوغاً بالأحمر. أتذكر المطر في ذلك اليوم، لأنني نسيت الباقي.

لم يستطع سام أن يغادر لبنان في ذاك اليوم، ومع ذلك، كان قد وعد أن يكون عرَّاب لويز.

ـ في الوضع الذي أنت مستغرق فيه!

كان يمزح، على ما أعتقد، لكن بعد شهرين، كانت أورور تُذكره بوعده.

تمتم وهو يمسك الشمعة بيديه:

ـ يمكنك أن تفعلي بي ما تشائين.

كانت قلنسوته في جيبه، فوضعها حين خرج من الكنيسة، وهو يحمل لويز على ذراعيه لالتقاط صورة. كان صديقي اليوناني قد هزل

جسمه، بشكل مرعب. كان يستدير ليسعل، بصوت أجشّ، ويقول إنه تعب، ومصاب بالتهاب قصبات لا ينتهي. كان يُخرج مسرحيتين بالتوازي، مسرحية لبريخت في باريس ومسرحية أنتيغون لأنُويْ في بيروت، وقد كرمته صحيفة ليبيراسيون بمقال تحت عنوان: «يوناني يكتسب شهرة عند اللبنانيين.»

كان العنوان غامضاً، أما المقال، فكان في مصلحته. كتبت الصحيفة تصف صموئيل أكونيس في صفحتها الأخيرة قائلة: إنه الطفل الذي نجا من الموت، واليوناني المقاوم، واليهودي الذي صار صهيونياً وبقي مناصراً للفلسطينيين. إنه المخرج الذي تفضله الأوساط الباريزية، دون أن يتورط في انتماءاتها مطلقاً.

كان يجيب عن أسئلة المتحمسين للفن المأسوي:

ـ إنني مخرج شعبي لمسرح الشارع.

كانت المأساة هدية يلفها بالسخرية.

تروي الصحيفة أنه كان يعرف كيف يطرق الأبواب بشدة ليدافع عن مسرح الجيب الذي يمثله. ونظراً لأنّ حصيلة بيع التذاكر لم تعد تكفي أحداً، حينذاك راح يمد طاسته بلا خجل نحو المراكز الثقافية، والجمعيات، والوزارات. تابعت الصحيفة معلقة بقولها: «كان يستطيع أن يقف عند ذاك الحد، لكن لبنان قد استهواه»، وكذلك سحرته أنتيغون، أما هذا السحر، فلم يكن الصحفي يعرفه.

كان سام يريد دائماً أن يُخرج مسرحية أنُويْ السوداء في منطقة حرب، ليقدم دوراً إلى كل واحد من الأطراف المتحاربة، ويقيم

سلاماً بين البلاط والشعب. فكر أولاً باليونان التي هدأت، وبأن يخلط المضطهدين القدامى مع الطغاة القدامى في عرض فريد، على مسرح ديونيسوس الذي يقع على منحدرات الأكروبول. تخيلَ الجمهور تحت ضوء قمر صيفي، وقد جلس بين العشب والأحجار القديمة. سأله صحفي ليبيراسيون قائلاً: «لماذا أنتيغون؟»، أجابه صموئيل أكونيس «هناك موضوع الأرض والاعتزاز». فقد وجد لدور أنتيغون ممثلة يونانية كانت قد سُجنت، كما وجد لدور شخصية «المربية» أم أحد المناضلين القتلى، أما رفاقه فرأوا أن الفكرة كريهة.

اتهمه أحد الشيوعيين قائلاً:

ـ أنت تخلط الضحايا بالجلادين.

كما فعل المستحيل ليقنع ضابطاً متقاعداً بالتمثيل، وكذلك أفراداً من رابطة الشرطة. كان لهم أبناء يمثلون؟ وربما أقرباء؟ أو أصدقاء؟ وضع عبثاً إعلانات في الصحف، حتى إنه تلقى تهديدات بالقتل. حدث ذلك في كانون الثاني من عام ١٩٧٦، حين تخلى سام عن فكرته، وعاش مقتراً، وهو يؤجر مسرحه المتواضع «الصغير ديوميدس» إلى منشدي أغانٍ يلفّهم الحزن.

جاءني، ذات مساء، وهو بالغ التأثر، يتنفس بصعوبة. لقد هاجم مسيحيون لبنانيون مخيماً فلسطينياً في منطقة الكرنتينا في بيروت، حيث كان ثلاثون ألفاً من المعدمين مُجَمعين في أكواخ مغطاة بصفائح معدنية. بعد قصف الحي، قام رجال الميليشيا بعملية فرز، وقد هشموا جماعات كبيرة تحمل الأعلام البيض، واضعين النساء والأطفال على

اليسار، والرجال الذين في عمر حمل السلاح، على اليمين. وقع مئات القتلى، ثم نُسف الحي بالديناميت كي لا يعيش أحد فيه بعد الآن، ولا ينبت فيه زرع. وبعد يومين على الهجوم، دخل فلسطينيون، ولبنانيون، وميليشيويون أجانب إلى الدامور، وهي ضاحية لبنانية مسيحية في جنوب بيروت، فقتلوا الأحياء من أطفال، ونساء، ورجال، ودنسوا الموتى بإخراجهم من قبورهم. كان عقاب مدينة مقابل استشهاد حيّ.

إنني أتذكر وجه سام الذي كان منهاراً، متألماً ومضطرباً معاً. أحسست ذلك، وعرفته. لقد وجد للتو مسرحاً لتمثيل أنتيغون. كان محموماً طوال أشهرٍ، وهو يبحث عن ممثلين لمسرحيته فاتصل بالسفارة الفرنسية، وبالقنصلية، وبالمركز الثقافي، وبالرابطة الفرنسية للعمل الفني، وبجمعيات، وبأندية من جهتي خط التماس. اتصل أولاً بالمسلمين، بفرقة من السنّة الشباب في منطقة الحمرا، ثم اتصل بمجموعة شيعية من مسرح «التعزية» التي لم يكن في برنامجها المسرحي إلّا مصرع الإمام الحسين، كذلك اكتشف فرقة فلسطينية في شاتيلا تمثل قصيدة لمحمود درويش إلى ما لا نهاية. وبكثير من الصبر والوقت، أتى برابطتين مسرحيتين من الدروز في الجبل، ثم جاء بممثلين مسيحيين من حي الأشرفية وبلدة دير القمر.

قال للجميع إنه يوناني فقط، ومخرج، ويريد إخراج أنتيغون في لبنان، فكانت كل طائفة تعتقد أنها وحدها موضع اهتمامه. لم يكن سام يستطيع أن يشرح مشروعه بالرسائل، فانتظر أن يرى الجميع وجهاً لوجه كي يقوم بذلك. وبناءً على نصائح السفارة اليونانية، أطلع وزارة

الثقافة الفرنسية على مشروعه، وكذلك السلطات الدينية، كما أعلم الحكومة اللبنانية.

كان يرفق في كل رسالة له المضمون ذاته: تنازل المؤلف عن حقوقه، والاتفاقية المبرمة للتمثيل، وتوصية وقعها عدد كبير من مديري المسارح، وكذلك، عدة كلمات لطيفة بشكل خاص وقعها جان أنُويْ.

انتظر سام جواباً، طوال أيام، ثم أسابيع، وبعد أربعة أشهر، أجابه المسيحيون، ثم الشيعة، ثلاثة إخوة. وصل جواب الدروز في تموز من عام ١٩٧٦، وجواب السنة في تشرين الثاني.

قبل الجميع استقبال اليوناني، كانوا يريدون معرفة ما ينتظره منهم هذا الرجل.

*

كان سام وحده في الغرفة، يتحدث بصوت واهن، ويعتذر. أجل، كان عليه أن يُخبرني أنه مريض، فمنذ وصوله إلى فرنسا، كان يشكو من صدره، ويتنفس بصعوبة، وتنتابه أوجاع في رأسه، وتؤلمه مفاصله.

ــ لم أدخن في حياتي مطلقاً.

فكر حينذاك بنتائج التعذيب الذي عاناه، وبالغاز في حنجرته.

قال له طبيب الأشعة:

ــ لا أحب هذه البقعة التي أراها.

وفكر كذلك بأن سام قد جاء للعلاج متأخراً جداً.

لقد شهيته للطعام، وهزل جسمه. كان طبيب سفارة اليونان

يعالجه، في بيروت، ، أما في باريس فكان يعالجه صديق له وهو طبيب مختص بالسرطان. لم تعد الجراحة تجديه نفعاً، فأجريت له جلسات في المعالجة الكيميائية عبثاً، وبعد الرئتين، أصيب الكبد.

ـ بي رغبة في التقيؤ.

قال ذلك، كما قال، إن رأسه يدق، وإن في فمه ورقاً من الكرتون، ولسانه كله قد صار قُلاعاً.

كنت ألومه، كما ألوم ذاتي أيضاً. وهكذا جاءت نهاية الحراك السياسي لتفرّقنا، كما تكفلت الحياة بتشتيتنا. كان سام قد أعطاني عنوانه في بيروت، ورقم هاتفه أيضاً، لكنني لم أهتف له البتة. كان موجوداً، وكنت أكتفي بذلك. كنت أظن أن صداقتنا تتغذى من المسافة، ولقد أخطأت في تقديري، لذا فقدت ثلاثة أعوام من وجوده.

وقفت حيث النافذة تُشرف على الطريق المتحلق عن بعد، والشتاء قد حل بالمدينة التي راحت ترتجف تحت ألواح الجليد، فابتسم صموئيل، وهو كان يراقب زائريه شأن مخرج يوزع الأدوار.

كان هناك المتأثر الذي لا يجرؤ على النظر إليه خوفاً من العدوى. كان يقرأ تدهور حالته الشخصية في عينيّ المتأثر الذي يداعب حافة الشرشف، ولا يمس يده، ويمكث فترة قصيرة، يشكو من شدة الحرّ، لكنه يعود سريعاً لزيارته، الأسبوع التالي، حتماً. ربما.

كان هناك القَلِقُ الذي يسأل:

ـ كيف عرفت أنك مصاب بهذا المرض؟

لأنه هو أيضاً يشكو من آلام في رأسه، وألم في ذراعه، ومن السعال، واللهاث. كان على سام أن يطمئن القَلِقَ بأنّ عليه استشارة الطبيب؟

أجل إنها فكرة صائبة، وبخاصة أنه يُدخن، في حين لم يمسس سام سيجارة في حياته. طبيب يوثَق به؟ هل عندك قلم حبر؟

كان هنالك العارف، الذي مر بهذا الطريق، ويشغل الحيّز كله. كان يقارن، ولقد نجت أخته من هذا المرض أو ربما لم تنجُ. تأملت في النهاية.

ــ أليس لديك طساسة مورفين؟ يا لهذا الغباء! في أيامنا، إنها توجد في كل مكان!

كان يقيس الغرفة، يتأكد من وضعية السرير، يراقب شأن مختص المرضة التي جاءت تغير الحقنة. لم يكن يبعث الاطمئنان، ولا يتعاطف في شيء، ويُسجِّل بغتة أنه قام بواجبه الاجتماعي.

هناك السائح، الذي يتجاهل السرير، يلامس المريض بالسرطان؛ وبمجرد أن يدخل حتى يهرع إلى النافذة ويتأمل المشهد.

ــ حسناً يا عزيزي، إنك لا تمل!

يفعل السائح ما يمكنه عمله، يبتسم، ويغمز بعينه، بينما يصرخ الخوف في رأسه. لقد وجد نفسه طريح الفراش حين دخل الغرفة، وراحت هذه الصورة تراوده حتى الصباح التالي.

ــ وأنا، من أي صنف من الزائرين؟

ــ أنت؟ الصديق المتأخر. إذن الغاضب.

ابتسم سام الذي كانت تنقصه أسنان في جانب من وجهه، أما بشرته فكانت صفراء، وعيناه محاطتين بالزرقة، ومنقطتين بالدماء كمن تلقى ضربة. كان ظهر يديه ملطخاً باللون البُني، وأظفاره قاتمة، أقرب إلى السواد، ولم أتعرف عليه حين دخلت غرفته، فحبست دموعي، وكان واهناً بسبب كل الوقت الذي فاتنا.

ــ لا ذنب لك، أنت تعرف ذلك؟

كنت أعرف ذلك، طبعاً. فتح يده، فوضعت يدي مع أنني لم أمسك قط صديقي هكذا إلّا بالنظر.

ــ ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

رفع عينيه نحوي.

ــ كثيراً. يمكنك أن تفعل الكثير.

اقتربت منه، وكانت تنبعث منه رائحة حامضة، وكذلك رائحة الأثير والصبار. كانت لحيته تعود إلى أيام كثيرة فمرّرت ظهر يدي على خده.

ــ هل تعرف لماذا لم أطلق لحيتي يوماً ولم أرخِ شعري؟

هززت رأسي. كلا. لم أكن أعرف السبب. حين كنت شاباً أطلقت شاربيَّ حين قال والدي ذات يوم إن فرانك زابّا يشبه القرد، ولأنني كنت أحب موسيقاه، إذن اخترت ملامحه.

تنفس سام بجهد قائلاً:

ــ في سالونيك، كان النازيون يحلقون لحى اليهود المسنين. كانوا يفعلون ذلك، وسط الشارع، لإذلالهم، وكانوا يرغمون الأبناء على كنس الرصيف بقبعاتهم، وكذلك على قطع لحى آبائهم.

كان صديقي يقتر في أنفاسه، لم يكن يتكلم، لكنه كان ينفُث الكلمات.

ــ في تموز من عام ١٩٤٢، أوقف الألمان والدي، في سالونيك، ساقوه إلى ساحة الحرية مع عشرات آلاف آخرين، جمعوهم تحت أشعة الشمس، وأرغموهم على القيام برياضة سخيفة. وقوف،

جلوس القرفصاء، وقوف، أيادٍ مبسوطة ورأس عالٍ. كان لأبي لحية وسالفان طويلان مجعدان، قصهما أحد النازيين، ثم حلق رأسه من جهة واحدة وهو يسلخه بخنجر. أرسِل غالبية الناس للعمل في الأشغال العامة، أما هو، فكانت على قميصه بقع من الدم. حينذاك أعيد إلينا وقد أعطيَ مهلة إعفاء لثمانية أشهر.

ـ وحين منع العقداء اليونانيون الرجال من إرخاء اللحى وكذلك إطالة الشعر، قررت ألّا أتيح لهم حق إذلالي البتة. حينذاك قصصت شعري قصيراً وأحسنت تسريحه، وحلقت دقني، ولبست سترة أهل المدن. كان كل ذلك يُحير رفاقك حين التقينا.

أغمض سام عينيه لأنه كان منهكاً. أراد أن يُحدثني عن بيروت، وعن أنتيغون، مع أنه كان عليَّ أن أعود بسرعة. كان يقول إن الحياة تهرب من جفنيه؛ إلى الغد؟

في اليوم التالي، عدت إلى مكاني بالقرب من رأس السرير، فكان سام نائماً. انتظرت، بكت أورور حين عرفت أنه مريض، وهي ستأتي لزيارته هذا الأسبوع مع صديقتين قديمتين لها من جوسيو. كان سام يدعوهن «مولِعات النار بالبترول»، وهذا اللقب تحبب إليهن. كان قد وضع على الطاولة قرب رأسه، مسرحية أنتيغون، التي نُشرت في عام ١٩٤٥، والتي أراني إياها قبل عدة سنوات، وكذلك قلنسوة والده. كان يتنفس بصعوبة، وتخرج من صدره أصوات هامسة، وتأوهات اختلطت بنفَسه. فكرت بالجحيم، بلوحة الرسام بوش، إلى حشرات من الناس غُطِّسوا في أتون. ركّزت تنفسي على تنفسه، فحين كان يحبس

نفسه، كنت أمتنع عن التنفس. كنت أنظر إلى قلبه يخفق على شاشة جهاز تخطيط القلب، ثم أغمضت عينيَّ، ورحت أعد النبضات، بعدها غفوت. وحين جاءت الممرضتان للعناية بنظافته حين كان مستغرقاً في النوم، لمستُ أصابعه وخرجْتُ.

عدت بعد يومين، فكان سام مستيقظاً، وقد أسندت رقبته إلى وسادتين، وهو في انتظاري.

ــ ستُمثَّل أنتيغون في بيروت.

هززت رأسي لأنني كنت أعرف ذلك. كان سام قد وجد ممثليه، وبعض الممثلين البدائل، لكنه لم يكن قد بدأ التدريب على الأدوار مع أنّ الجميع قد التقوا للمرة الأولى، في مقر يخص سفارة اليونان.

كانت أنتيغون فلسطينية وسنّية، وكان هيمون، خطيبها، درزياً من الشوف، أما كريون، ملك ثيفا، ووالد هيمون، فكان مارونياً من حي الجمّيزة. في البدء رفض الشيعة الثلاثة أن يمثلوا دور «الحرس»، لأنهم وجدوا دور تلك الشخصيات تافهاً. ولإضفاء التوازن، صار أحدهم خادماً لكريون، كما قبل الثاني أن يلعب دور «الرسول»، وعلى المخرج أن يتكفل بالباقي. كذلك اختيرت امرأة شيعية مسنّة لتلعب دور الملكة أوريديس، زوجة كريون، في حين كانت «المربية» من الطائفة الكلدانية، أما إسمين، أخت أنتيغون، فكانت كاثوليكية وأرمنية.

استغرق ترتيب الأدوار عامين، وكان هؤلاء الشبان قد مثلوا على المسرح قبل الآن، ما عدا أوريديس، التي اقتصر دورها على شغل

الصوف لفقراء ثيفا. قدم سام نفسه، أول الأمر على أنه يوناني، وهو سيقوم بدور «الجوقة» وهي الصوت الأساسي في المسرح الإغريقي، ثم اعترف بيهوديته. حينذاك وجب استبدال الشيعة الثلاثة بآخرين، كما لم تتحمل الفتاة الكاثوليكية هذه الحقيقة.

ــ ستُخرج أنتيغون، يا جورج.

اقتربت منه أسأله:

ــ عذراً؟

ــ كلا. أنا الذي أستميحك العذر. لم يبق لي الوقت ولا القوة.

أغمض عينيه، فبدا كرجل مسنٍّ جداً.

ــ إن أقسى مرحلة قد تمت، فشخصياتك مستعدة، والجميع في انتظارك.

شخصياتي؟

هذه المرة، أنا الذي كدت أختنق. كان يهمس بصعوبة، وفي صوته رنة معدن. راح يشرح أن كل ممثل قد تعلم دوره، ويكفي بعض التدريب. لن يكون هناك سوى عرض واحد، في تشرين الأول، لذلك يلزم صالة حيادية، ليست في غرب بيروت، ولا في شرقها، بل على خط التماس، كأن تكون مدرسة قديمة، أو مستودعاً، أو أي شيء كان. كان يريد مكاناً يعبر عن الحرب، حفرته الرصاصات والشظايا، عبارة عن أربعة جدران، أو ثلاثة فقط، بلا سقف، لأنه كان يرضى بالقليل. زار صالة سينما خربة أعجبته، وكان يتصور كل الطوائف تدخل إلى مسرح الظل هذا، من طرفي جبهة القتال. كان يراهم بكراسيهم التي تُطوى، ووسائدهم، وزجاجات الماء، والفستق، وقد اجتمعوا كلهم

معاً، في عرض يستغرق ساعتين في أمسية خريفية، مع المتقاتلين، وقد رفعوا أخامص بنادقهم في هدنة تستغرق فصلاً.

سألني سام:

ـ ألا ترى ذلك؟

كلا، أما هو فكان يراه. وصف لي مشهد الأنقاض، والأبواب الثلاثة رُسمت على جدار خشن. وجه المتفرجين. دائرة الضوء البيضاء. ممثّلوه. إنه على خشبة المسرح.

ـ هذه الشخصيات ستمثل قصة أنتيغون. أنتيغون، تلك الصغيرة النحيلة الجالسة هناك، والتي لا تنبس ببنت شفة...

رفع ذراعه بمشقة، مشيراً بإصبعه إلى زاوية الغرفة.

ـ إنك تراهم، أليس كذلك يا جورج؟

فتح عينيه، فكانت نظرته عائدة من الموت.

ـ ألا تراهم، الآن؟

قلت:

ـ أجل.

كنت أرى صموئيل أكونيس يناضل من أجل الحياة، وذراعاه مثقوبتان بالأنابيب، وجلده مغطى بالكدمات البنية. أطبق جفنيه مرة أخرى، وقد ترك دمعة تهرب نحو صدغه. ترددت. أردت أن أمحو هذا الأخدود من الألم، لكنني لم أفعل شيئاً. لقد جمدني طلبه، كما جمدتني الشراشف الزمادية، وكذلك قلبه البائس الذي يتعرج على الشاشة الخضراء. كان صموئيل أكونيس يناضل من أجل حياة أنتيغون، ويناضل وهو مستلقٍ، يجمع ما تبقى له من شجاعة.

ـ خذ دفتر عملي، على الطاولة قرب رأسي. اقرأه، تمّمْه، املأه. سيكون خريطة طريقك. خذ أيضاً الجيب البلاستيكي الصغير مع كل محتواه. سأعطيك، المرة القادمة، أسطوانة وهدية للممثلة الفلسطينية.

نظرت إلى الدفتر الأسود بحافته البنفسجية، والمغلق بشريط من المطاط، والذي كان موضوعاً على قلنسوة أبيه. فراح سام يراقبني، وبدا خائباً من سكوتي.

ـ قل نعم، يا جورج.

ـ نعم.

لم أندم فوراً، ولا في ممر المستشفى، ولا في الشارع، وأنا أستنشق رائحة الشتاء بكل جوارحي، ولا في السلالم، وأنا أصعد ببطء نحو صوت ابنتي. شككت بذاتي أمام أورور.

ـ ماذا وعدته؟

كانت لويز في الثانية من عمرها، فتعلقت بركبتي الضعيفة. كانت تشبه أمها، حقاً. إنها أورور الصغيرة جداً، بخديها، وشعرها، وقد أخذت شيئاً من قلقي في نظرتها.

ـ أجبني، يا جورج، وعدته بالذهاب إلى هناك؟

وضعت ابنتي في كرسيها الصغير المصنوع من الخيزران المجدول؛ إنه كرسي أمها ذاته حين كانت طفلة، وكذلك كرسي والدة أمها، المناضلة في دوارنينيز حيث كانت شقتنا مسكونة بالآثار.

ـ هل فكرت فينا؟

بصراحة؟ كلا. فعند باب شقتنا ظهرت أسرتي أمامي، وفي المستشفى، كان صموئيل وحده موجوداً، بقوته، وإرادته، هو وأنتيغون، نضاله الأخير. كنا في كانون الثاني من عام ١٩٨٢، فقلت في نفسي يكفي أن أقوم بثلاث رحلات؛ اتصال بالممثلين، بعض التدريبات المسرحية، الحفلة الأولى وعرض في شهر تشرين الأول، كما كان يرغب سام. يستغرق ذلك أسبوعين أو ثلاثة في كل مرة، ويمتد على تسعة أشهر. في وزارة التربية الوطنية، لم أعد موظفاً رسمياً، وكنت أستطيع أن أتدبر أمري بأيام عطلتي كناظر، أتلاعب بأيام عملي، وأتغلب على الأيام والأسابيع.

رفعت أورور لويز لتقول: حان وقت الطعام، فتبعتُها إلى المطبخ.

ـ لا تساعدني، إنني أقوم بالعمل.

أخذت من يدي صدرية الطفلة، والصحن الملون، إذ لم تكن تريد إطاراً هادئاً لمعركتنا؛ حينذاك خرجتُ من الغرفة.

ـ لقد أحسنتما إعداد ضربتكما، أليس كذلك؟

جاءني صوت زوجتي من الطرف الآخر من الشقة.

ـ أية ضربة؟

ـ كان هذا هو السبب، صور الهوية لسام؟

عدت إلى المطبخ.

ـ أية صور؟

كانت أورور تسخن وعاءً صغيراً.

ـ كفى، أرجوكَ! الصور إذن، ألهذا الغرض؟

لم أعرف بماذا أجيب.

قبل حفلة عماد لويز، طلبت مني أورور خمس صور هوية، وكان ذلك مفاجأة من سام؛ إذ بمناسبة عيد ميلادي، أراد أن يلصق صورة وجهه، وصورتي وصورة بعض الرفاق. قال ذلك لزوجتي، نذهب إلى مقصورة تصوير في محطة الشرق، وفمي ملتوٍ في واحدة، وشبه أحول في الأخرى. ضحكت أورور، أما سام فوجد الصور ممتازة. انقضى زمن، ولم يتحدث سام ثانية عن الهدية مطلقاً.

بدت لويز بهيئتها القلقة، أما أورور فقد طردتني بظهر يدها.

ــ ثم، إنك تعرف أنك لم تغادر فرنسا قط؟

كانت هذه المرة على صواب. قمت وأنا صغير بسفرتين إلى «الغابة السوداء»، هناك ذكرى سفرة إلى سويسرا، وصورة من تورينو في إيطالية. رفضت الذهاب إلى إسبانيا ما دام فرانكو حياً، كما لم أسافر إلى اليونان بسبب العقداء. مات فرانكو، وانهزم العقداء، ولم يبقَ لي عذر لكن الوقت كان ينقصني، أو الرغبة في السفر الذي لم يكن يوماً بالنسبة إليَّ مصدر متعة؛ كانت فكرة إعداد حقيبتي، وإغلاق منزلي، والرحيل، والتخلي عما اعتدت عليه تجمد عروقي. لقد جلت فرنسا شرقاً وغرباً، فشمالاً وجنوباً. أعرف فيها البساتين، والجبال، والشواطئ، والمسيرات والحدود، ولم يكن ذلك كافياً لأورور لكنه يلائمني.

ــ هناك حرب. أتذْكر ذلك؟

كنت أسمع صوت الملعقة تقشط الوعاء الزجاجي، وتعتعة لويز.

أجل، الحرب. كنت أتذكر ذلك، وكان سام قد اختار لبنان ليفرض فيه عكس ما كان موجوداً. كانت أورور تعرف كل ذلك، وكانت تعرف

أيضاً أنني قد اتخذت قراري، فراحت تبذّر ثلاث كلمات، لكنها لم تعد تأمل إقناعي البتة.

وضعت أورور لويز في سريرها، فهي تخاف عليها، كونها ابنتنا. راحت تتحدث، ولم يكن الموضوع، هذه المرة إلقاء ثلاثة ردود مسرحية في دار الشبان، ولكنه احتجاج ومقاومة ضد الحرب بشكل عام. كان ذلك سامياً، ولا يمكن أن يخطر على بال، ومستحيل، ومثير للسخرية: الذهاب إلى بلد الموت بأنف مهرج، وتجميع عشرة شعوب دون معرفة من هو كل واحد منهم، وأخذ جندي من كل معسكر للعب دور السلام، وجعل هذا الجيش يصعد على المسرح، وتوجيهه كمن يقود رقصة باليه، وكذلك الطلب من كريون، الممثل المسيحي، أن يحكم بالموت على أنتيغون، ممثلة فلسطينية، والاقتراح على شيعي أن يكون خادماً لمارونيّ، فكل ذلك لا معنى له. قلت لها إنها على حق، وإن ملاحظاتها صائبة. كان سام يقول إذا كانت الحرب ضرباً من الجنون، فعلى السلام أن يكون هكذا أيضاً. يجب بالضبط أن نقترح ما لا يقبله العقل. إن إخراج أنتيغون من موقع خط النار سيفاجئ المعارك والقتال، وكم سيكون المشهد رائعاً إذ تسدل البنادق.

ضحكت أورور باستهزاء قائلة:

ــ لمدة ساعة.

كانت جالسة، فجلست القرفصاء بين ركبتيها.

ــ ساعة من السلام؟ وتريدين أن نفوِّت هذه الفرصة؟

استعادت ابتسامتها وكانت تريد ضمانات، تريد أن تعرف من سينتظرني في بيروت، ومن سيحميني من تلك المدينة ومن سيخلصني

منها. كانت تريد موعد عودة محدداً لكل سفرة. تريد معرفة أسماء الممثلين، جميعاً. تريد أن يكون كل شيء جاهزاً هناك قبل وصولي. ألا يكون لدي أي شك عن شيء. تريد أن أعدل عن السفر إذا ما صادفني أدنى تحسب، أو أقل إنذار، وأمام أبسط خطر.

ــ أقسم!

ــ إنني أقسم.

ــ كلا! ليس هكذا! أنظر في عينيَّ، وأقسم بابنتنا.

ــ أقسم بابنتنا.

أخذت يدي أورور، وأنا راكع، نظرت إليَّ، طويلاً، وهي قلقة، ضمت أصابعي بشكل مؤلم، فصرخت لويز وهي نائمة.

قالت زوجتي:

ــ ستشتاق إليك، ثم نهضت لتذهب وتطمئن على ابنتها.

٩

موريس دوريفليه

قرأت أنتيغون التي ولم أكن قد قرأتها من قبل. ففي عام ١٩٧٤، حين أهداني سام نص أنُويْ، بقي الكتاب على الطاولة قرب سريري، فتراكمت عليه الصحف والأزمنة. فتحته، فيما بعد، لأقرأ عدة صفحات فقط. لم يكن قلبي في «ثيبا»، ولم تكن رائحة الثوم والجلد والنبيذ الأحمر المنبعثة من حرس كريون لتستحوذ على اهتمامي. نضدت الكتاب في مكتبتي، ونسيته، وكان ذلك منذ ثمانية أعوام.

قرأت أنتيغون، وقد تأثرت كثيراً، وبخاصة الجمل التي سأقولها بصوت عالٍ.

*

إذن، أنتيغون. قصة الصغيرة النحيلة، ابنة أوديب وجوكاست، حاكمي ثيفا. فبعد انتحار الأم ونفي الأب نفسه، تقاتل ولداهما حتى الموت للاستيلاء على العرش، حتى الموت، حقاً، ولم يعش أي واحد منهما. حينذاك أصبح كريون الملك، شقيق الملكة الميتة. كان يدعي أنه يفاضل، بين ولدي أخته، إيتيوكل على بولينيس، فأمر بدفن الأول مع المراسم اللائقة له، بينما رفض دفن الثاني. بالإضافة إلى ذلك، أصدر

أمراً ملكياً يحكم بالموت على كل من يجرؤ على تكريم الجثمان الذي تُرك تحت أشعة الشمس لتفترسه الوحوش التي تهوى الجيف. إنه يريد أن يترك هذا «الخائن، والمتمرد، والداعر» بلا دموع، وبلا مراسم دفن، وبلا قبر، لأن بولينيس أراد قتل أوديب، وكان كريون على علم بذلك.

ذات صباح، لاحظ أحد الحراس الذي يسهر على الجثمان أن الأرض قد حُفرت حوله، ثم رُشَّ التراب على الجثة وفق الطقوس، وقد جُعل لها كفن من التراب، فاستشاط كريون غضباً، لأن أحد رعاياه قد أهانه. لقد قام خائن بالتكريم المأتمي المشَرِّف لمنبوذ، ووجد الحارس في دغل مجرفة للأطفال، صغيرة يعلوها الصدأ. ضُبطت أنتيغون، ظهراً، وعادت لتتمم الطقس المأتمي، وحدها، والتراب تحت أظفارها، وركبتاها مجلوفتان. لم تتبعها إسمين، أختها التي تفوقها جمالاً إلى حد كبير، والتي فعلت كل ما في وسعها لتجعلها تعدل عن عملها.

تأثّر كريون بالخبر المروع، لأن أنتيغون هي ابنة أخته التي يحبها، والتي ستتزوج بهيمون، ابنه. حينذاك اقترح الملك عليها أن تنسى، وأن يبقى السر دفيناً، إذ يمكن تسوية الأمر بصفعة وبالخبز اليابس، لكن أنتيغون رفضت العرض، فهددها كريون قائلاً: «إنك كبرياء أوديب»، فأجابته إنها لا تؤمن بالسعادة؛ فهي لا تستطيع أن تتصالح مع الحياة، وإنها تتمنى الموت وتنتظره.

يسلمها كريون، وهو في أقسى حالات العذاب، إلى الحرس ليدفنوها حيّة، ولكن في لحظة إقفال الباب، علم الملك أن هيمون، ابنه، قد حبس نفسه معها، فرفعوا بسرعة أنقاض الصخر عن القبر، لكن الوقت كان قد فات. كانت أنتيغون قد شنقت نفسها بحبل حزامها الذي شكلت

منه طوقاً كطوق الأطفال، فأمسك بها هيمون بين ذراعيه، وراح يبكي. وعندما رأى في العتمة شعر والده الفضي، نهض، والسيف في يده؛ تراجع كريون، فنظر إليه ابنه نظرة احتقار، وغرز السيف في بطنه هو.

فقد كريون كل شيء، وبقيت أوريديس، ملكته، وزوجته التي تحوك الصوف بلا توقف لفقراء ثيفا. لكنه حين ذهب للقائها، وقلبه ممزق، لم يجد إلَّا جثماناً. فبعد أن أنهت صف الزردات، وضعت الصنانير جانباً، وتمددت على سرير ابنها الميت، ووسط الألعاب الوبرية، قطعت رقبتها، فكانت تبتسم حين دخل كريون.

كريون

زوجتي نائمة أيضاً. الجميع نائمون. حسناً. كان النهار شاقاً (بعد فترة، يقول بصوت خفي). إنه من المريح أن ينام الإنسان.

أغلقت الكتاب، كنت مهيأً للصغيرة النحيلة، ومستعداً لأن أستقبل في نفسي هذه الضحية التي اختارها القدر. كنت مستعداً كذلك لأن أخضع لهذا الواجب الأخوي، ولم أكن أعرف عنها إلَّا رفضها العيش، ولم أكن أعرف عن ذاتي إلَّا رغبتي في الحياة.

*

تذكرت سوفوكليس، فاشتريت مسرحيته **أنتيغون**، وكذلك اشتريت مسرحية بريخت، وترجمة فريدريش هولدرلين التي استوحى

منها مسرحيته. كتبت في دفتر سام: «أنتيغون، هنا والآن». ولدت في اليونان، وتخيلها المؤلف في أيدي العرش الألماني (Reich) أو مُثلت في باريس المحتَلة. كانت أنتيغون من كل الأزمنة، ومن حاضرنا.

كتب صموئيل أكونيس: «لا لزوم للباس مسرحي، إذ يأتي كل ممثل بما يلبس في المدينة، ويجب أن يشعر المشاهد بأنه يحضر تجربة للمسرحية، ويجب أن يُفاجأ المشاهد بالتباين بين النص واللباس. كانت أنتيغون في العرض الأول لأنّويْ، في مسرح لاتوليه (*l'Atelier*) في (٤٤/٠٢/٤) تلبس ثوب سهرة أسود وتضع صليباً في عنقها. كريون بطقم رسمي، وصدرية، وربطة عنق بيضاء على شكل فراشة وحذاءين من الجلد اللامع. أما الحرس فكانوا يلبسون معاطف من الغبردين وقبعات رخوة (هل عنى المؤلف الجيستابو ؟) لم يكن المقصود مدينة ثيفا، بل باريس المُحتَلة في الشتاء. يجب أن تتحدث المسرحية بلسان الحاضر».

كان سام يحدد اتجاه المشهد، صفحة تلو صفحة، وكانت ملاحظاته قديمة، بحيث أنّ أول ملاحظة تعود إلى العام الفائت، وهو يعرف أنه سيراجعها. كان خطه مرهفاً، مائلاً، ودقيقاً. كتب بالفرنسية، كتب من أجلي، إنني الآن مقتنع بذلك.

«يجب ألا نخلط بين كريون الفظ في مسرحية سوفوكليس والرجل المفعم بالمرارة الذي رسمه أنّويْ. فعند سوفوكليس، كريون

هو الشخصية المأسوية. أما عند أنْويْ، فإن أنتيغون هي التي تحمل المأساة...».

كان اسم دوروفليه وموسيقاه لرتبة قداس الموتى يتردد كثيراً. ولقد كتب في أحد الهوامش اسم مغنية الأوبرا بيلار لورنغار، مع إشارة استفهام.

«سيكون هناك آلة التشيلو وصوت غناء ضروري من طبقة ميزوسوبرانو! أريد أن أسمعها تنشد: 'يايسوع الرحوم الراحة الأبدية اعطهم يارب! وليرقدوا بسلام' في اللحظة المحددة حين يقود الحرس أنتيغون».

«الراحة الأبدية اعطهم يارب! وليرقدوا بسلام»، كان قد نقل الجملة بالفرنسية. فمن رسم إلى إشارة، ومن وضعية الأجسام إلى اقتراح عن الديكور، كانت في يدي وصية صموئيل أكونيس. لقد سلمني إياها وهو على فراشه في المستشفى، مع رسالة أنْويْ وقلنسوة أبيه، فرفضتها، لكنه ألحّ. كان يريد أن تلبسها «الجوقة»، على المسرح، وكان على القلنسوة المخملية السوداء أن تشكل رداً على حجاب إحداهن، وعلى قبعة الآخر، وعلى الكوفية التي سترميها أنتيغون على كتفيها.

ــ ستكون أنت يا جورج «الجوقة». ستلبس القلنسوة.

ثم ابتسم بوهن.

ـ ستكون أنت اليهودي.

*

كان سام قد أعطاني مع دفتره، وملاحظاته، ورسومه، رسائل تشجيع للممثلين، وكذلك أسماءهم، وعناوينهم حيث كان الجميع قد كتبوا إليه بالفرنسية. كتب بعضهم عدة كلمات، كما روى له آخرون حياتهم، وحياة حيهم، وشغفهم بالتمثيل. حتى إن واحدة منهم قد أرسلت سيرتها الذاتية. أحسست بيروت للمرة الأولى، في الرسائل الواردة من الشباب على الورق المجعد. كل ذلك كان موجوداً، حتى إن كلاً من أنتيغون وكريون أرفقا صورة مع رسالتيهما.

كانت إيمان شابة، نحيلة، وقد سحبت حجابها الأزرق إلى الخلف، على شعرها الأحمر، وهي تكاد تكون في العشرين من عمرها. لقد وجدتها جميلة بشكل عنيف، بمقدار تتجاوز فيه ربما المطلوب لدور «الصغيرة النحيلة». فقد كانت ذات بشرة بيضاء وشعر حريري، لذا كتب سام على قفا الصورة: «يجب إضفاء الضعف والوهن على هذا الوجه»، كما دوّن باللون الأحمر: «موافقة قطعية من ياسين، أخيها، المقاتل في فتح».

أما شربل، فكان في الثلاثين، وتلزمه ثلاثون سنة أخرى. «طلي بالمساحيق، جعل الشعر رمادياً، بتعابير جميلة صارمة». كان للشاب وجه كالصوّان ونظرة قلقة، ولا أعرف إن كانت صورته قد أخذت بوحي من دوره أم أنه كان حقاً هكذا. وضعت كل صورة بجانب الأخرى. أنتيغون، كريون. وإيمان، شربل، ركيزتاي. وبقي سبعة أشباح وجب اكتشافها.

اتصلت بإيمان يوم الاثنين من كانون الثاني، فأجابني صوت عربي، طفل، ثم صوت رجل آخر، وأخيراً أنتيغون.

ــ صموئيل؟

ــ أسعدت صباحاً يا إيمان، أدعى جورج.

رحت أتكلم، وأنتيغون تصغي. كانت تتنفس بصخب. المخابرة، الهاتف، الانفعال. رويت لها كل شيء، كانت على علم بالسرطان، وبالمستشفى؛ حاولت الاتصال لأن الأخبار لم تكن جيدة. لم يأتِ الشيعة إلى الموعد وكذلك الماروني...

ــ شربل؟

ــ أجل، شربل. لم يرد أخوه أن يقطع خط التماس.

ــ هل هو ملزم بالطاعة؟

حل صمت في الطرف الآخر من الخط.

ــ كيف ذلك، مُجبر؟ إننا نعيش كلنا، ما عداه، في بيروت الغربية أو في الضاحية الجنوبية. وحتى نكد، فإنه ترك الجبل وجاء إلى الحمرا.

ــ نكد؟

ــ الشاب الدرزي الذي أقامت أسرته مقابل فندق «كافالييه». لن نجتاز خط التماس، نحن الثمانية، للقاء شخص واحد!

ــ ما العمل؟

ــ ليس عندي أية فكرة. حتى إن أسرته لا تعطينا إياه ليرد علينا بالهاتف حين نطلبه. أعتقد أن أخاه يرفض أن يعاشر مسلمين، هل ترى الوضع؟

أرى جيداً، طبعاً، لكنني لا أفهم شيئاً. كان سام قد قال لي إن أول لقاء قد جرى في وسط المدينة في غيابه حيث تمت قراءة عامة للمسرحية التي وصفها لي كما روتها له إيمان، مع ضحكات الجميع وروائح الشاي. لكن هذا اللقاء لم يحدث قطّ، وقد أقرت لي الفلسطينية بذلك، هي التي ابتكرت هذه القراءة العامة كي لا تزيد عذابه. فمنذ إقامة المخرج في المستشفى، راحت ممثلته تراعيه، فكانت تخفي عنه الأنباء السيئة وتجمل المنجزات الصغيرة. كانت تعرف الشابة الأرمنية والكلدانية، كما التقت الممثل الدرزي، وادعت أن الكل قد جاءوا أيضاً. في مساء آخر، اتصلت هاتفياً بإسمين، فأصبحت هذه المحادثة البعيدة بالنسبة إلى سام تبادلاً رئيساً. تصور أنتيغون وأختها يتمرنان على نصهما وسط الشارع، مع تصفيق عشرين شاباً يضحكون. لقد أعلنت لي كذلك أن الشيعي الذي كان سيمثل دور الخادم قد أدرك تفاهة دوره وسخفه. أربع جمل تُقال في النهاية هي عبارة عن إحدى عشرة كلمة فقط. وضع هو وإخوته كل ذلك موضع بحث. إنهم يمثلون نصف مسلمي لبنان، لذلك يريدون ضمانات ليقبلوا المشاركة في تلك المغامرة. هل هذا هو كل ما في الأمر؟ كلا. فالممثلة التي تلعب دور إسمين قد درست نص سوفوكليس، وتدربت ثلاثة أشهر عبثاً، ومنذ عدة أسابيع، لا يعرف أحد أي شيء عن «المربية».

كنت بالغ التأثر، فما عدا الموافقة المبدئية التي أعطتها منظمة تحرير فلسطين إلى سام، لا يوجد شيء. لم يكن شيء قد وجد البتة. كان حلم سام موجوداً في ثلاثين صفحة من دفتر صغير، وصوت الهاتف يخدش أذني، وإيمان تتنفس.

ــ هل أنت معي على الخط؟

أجل، كنت هناك، واقفاً ثم جالساً قبل أن أنهار.

ــ وأنت، يا إيمان؟ ما وضعك؟

أجابت أنتيغون:

ــ أنا؟ على أتم استعداد.

عادت أورور إلى المنزل مع لويز، إثر خروجهما من دار الحضانة. فأغلقت الخط.

قلت لها:

ــ كنت أتحدث مع بيروت.

ــ وماذا حدث؟

ــ إنهم مستعدون، ولا ينتظرون إلّا وصولي.

كذبت ببراعة.

قالت زوجتي:

ــ في نهاية الأمر، أظن أنني أحسدك. ابتسمت، وكان بطني مليئاً بالرمل.

*

ــ هل حدثتَ إيمان؟

كان سام يُحدق في السقف، وكنت أرتجف غضباً. سألتني ممرضة في بهو الاستقبال إلى أين أذهب، فلم أجب. في الممر، صرخت ممرضة

أخرى بأن لا عمل لك هنا، وأن ساعات الزيارة قد انتهت. تابعت طريقي، قطعت عليَّ الطريق، فدفعتها، ووضعت يدي على كتفها لإبعادها عن طريقي. خرج طبيب من صالة المناوبة، كان طويل القامة، وشاباً، لكن شعره فضي. صرخت ممرضة قائلة:

ـ ليس لهذا الرجل الحق في أن يكون هنا!

واجهت الطبيب الذي كانت نظرته مضيئة، ولم يكن يخشاني.

ـ هل أنت من أسرته؟ فانفجرت.

ـ أسرته؟ أتريد أن تعرف أين هي، أسرته؟ أسرته ميتة! أبيدت في محرقة أوشويتز، أسرته! هل تفهم ما أقول؟

ـ إهدأ.

خرجت ممرضة من غرفة، وقد وضعت إصبعها على شفتيها. هناك ضجة كبيرة.

ـ أسألك إن كنت من أسرته، وعمّا إذا كان عندك سبب ضروري جداً لتزعج مستشفى في هذه الساعة المتأخرة.

كان الطبيب ينظر إليَّ، حيث كنت أقف أمامه، فوضعت يديَّ في جيبيَّ لأهدئهما وراح غضبي يذوب. أسفت لمنظر وجهي، ولكلماتي، ولتلك التهديدات الليلية. كان الممر هادئاً، والنساء خائفات، أما الرجل فكان رابط الجأش. كنت آسفاً، فخرجت من بيتي وأنا أركض، إذ يجب أن يعرف سام الحقيقة، الآن، وفوراً. فليعرف أن مسرحيته أنتيغون في حالة حطام، وأن ممثليه لا وجود لهم على الإطلاق، وإذا كنت سأذهب إلى بيروت، فلتصفية الموضوع، ولأعتذر عنه، وعن نفسي، ولألتقي جميع الشخصيات،

والمنظمات، والمؤسسات، ولأقول إن صموئيل أكونيس قد عدل عن مشروعه. لقد كذبت إيمان عليه، ويجب أن يعلم ذلك. كنت أركض في الشارع، وفي الميترو، وفي بهو المستشفى، وفي الممر، فتقطعت أنفاسي. كنت أريد أن أرى عيني صديقي، ويداه في يديَّ، حتى هنا، مع صوت صخب قلبه، وامتصاص الأنابيب، وتنفسه الثقيل، وروائح المنظفات، والزنخ، كل ما هو نظيف وما ينبعث من الاحتضار. كنت مديناً له بالحقيقة.

ـ إنني أسرته. لم يعد له سواي.

سأل الطبيب قائلاً:

ـ عمن تتكلم؟

أجابت المرضة:

ـ عن غرفة زهرة «الميوزوتي».

نظر الطبيب إلى ساعته، على علو بطاقة اسمه المعلقة على صدره. «دكتور أشكول كوهين».

ثم راقبني حيث كنت قد طأطأت الجبين على اسمه.

ابتسم الطبيب قائلاً:

ـ أعطيك ربع ساعة.

ـ هل تحدثت مع إيمان؟

جلست، ويداي تحت فخذي. هززت رأسي، وكنت مرتبكاً من غبائي. القلب منهار، وهلع المرضات في أعماقي.

ـ هل روتْ لك جلسة التدريب؟

أجبت بغموض وبشكل آلي.

التدريب؟ أجل، طبعاً. ولكن ليس كل شيء. روت لي قسماً فقط. كان الاتصال مع لبنان رديئاً، كما أنني قد اتصلت في ساعة متأخرة قليلاً. أدار سام رأسه، ولم أشعل النور في الغرفة. كان المصباح الخافت الأزرق ينير وحده، وكانت عيناه تسألانني، حينذاك أجبت.

ـ كان من العسير على الشاب المسيحي أن يجتاز خط التماس بسبب أخيه، لكنه قطعه، فوصل متأخراً، وسط القراءة.

كانت نظرة صموئيل نحوي، وقد فتح فاه، وشفتاه ناشفتان.

ـ وماذا؟

ـ قالت لي إيمان إنّ التدريب كان يفوق التصديق. لقد وقفوا كلهم: هيمون، إسمين، المربية، أوريديس، الحرس، وضم الجميع كريون في أذرعتهم.

ابتسم سام وتهادى صوته.

ـ كما ترى، يا جورج، فالمسرح في سلام، والحرب في كل مكان خارج المسرح.

هززت رأسي وكنت أسحق يديَّ، فأغمض عينيه.

ـ هذا ممكن. كنت أعرف ذلك.

كما قلت له إن الممثلين قد حفظوا نصهم، ربما أستثني إسمين التي كانت تلقي على الطريقة الإغريقية، وقد اتخذت بعض الوضعيات المثيرة للسخرية قليلاً. قَبِل الشبان الشيعة في نهاية الأمر أدوارهم الصغيرة وقاموا بالتمثيل، أما أوريديس فكانت تحوك وشاحاً ولا تنتهي من عملها.

لاحت ابتسامة على وجه سام.

ــ قالت لي إيمان إن المربية كانت تؤدي دورها جيداً، وكانت رقيقة ناعمة، ومرتاحة على أكمل وجه، كما كان كريون رائعاً أيضاً.

ــ وأنتيغون؟

ــ إنها على أتم استعداد، هذا كل ما قالته لي.

ــ متى ستسافر؟

ــ الأسبوع القادم. لم أفكر فيما أقول.

استدار سام نحو الحائط، وقد تحول عني ببطء.

ــ خذ الظرف من على الطاولة، مع الأسطوانة، والكيس الصغير الموجود في الحقيبة لتتقاسمه إيمان مع أخيها، ياسين، فلقد وعدتها بذلك.

ثم استغرق في النوم.

كان الممر خالياً، فمررت أمام صالة الممرضات، ومشيت نحو المصعد حيث كان الطبيب خارجاً، وملفات في يده.

ــ هل استطعت أن تتحدث إليه؟

أجبت بهزة رأس إذ كنت أبحث عن كلماتي.

ــ أود أن أعتذر إليك.

ــ عن أي شيء؟

ــ عن أوشويتز.

راقبني، بوجه كئيب.

ــ قل ذلك للممرضات، فلقد جرحتهن.

لم تكن لديَّ الشجاعة لأعود أدراجي.

ــ أتفضل أن يفعل ذلك مكانك شخص من أسرة كوهين؟

عدت إلى الباب حيث بقيت الممرضتان جالستين. كنت عند العتبة، وأنا مرتبك. رفعت واحدة عينيها، وتابعت الأخرى كتابة صفحاتها. اعتذرت منهما، أردت أن أفسر غضبي، وألمي، وخوفي من فقدان صديقي، وأنتيغون، وبيروت، والحرب التي تنتظرني، لكن الكلمات عزت عليَّ.

ــ أرجو معذرتي. كان غباءً وظلماً ما بدا مني.

هزت الصغرى رأسها، أما الأخرى فنظرت إليَّ.

تمتمت قائلاً:

ــ عفواً، وأطلقت ساقيَّ للريح.

*

كان مغلف سام يحتوي على عناوين: السفارة الفرنسية في بيروت، ومقر إقامة سفير اليونان، وهواتف القناصل المباشرة، والأندية الثقافية، والجمعيات. وكان ثمة أشياء أكثر غموضاً، شأن أسماء أفراد الميليشيات، مع هواتفهم المباشرة، وكيفية الاتصال بالسلطات اللبنانية.

أرفق سام بهذه القائمة خمسة أذون مرور، وبطاقات تحمل اسمي غلفها بالورق البلاستيكي. كانت واحدة بالعربية وأخرى بالفرنسية مع الأرزة الخضراء محاطة بدائرة حمراء وصليب القوات اللبنانية المزخرف. كان ثمة بطاقة أخرى طبع عليها شعار الحزب الاشتراكي

وقوامه خريطة الكرة الأرضية يتوسطها مثلث يتضمن معولاً وريشة، وكان هناك إذن مرور من الجيش اللبناني، وجواز مرور لحركة أمل، الميليشيا الشيعية، وكذلك إذن مرور لمنظمة فتح الفلسطينية. وعلى كل مستند كانت صورتي وأنا أقوم بحركة مضحكة، أحرك شفتيَّ، وأخفض ناظري، فدُهشت مما رأيت. إنها صوري الفورية. أصابت أورور لأن العملية كانت مُعَدة منذ زمن بعيد.

كنت أريد أن أوقظها لأخبرها بذلك، لكنني لم أستطع؛ فقد كانت تنام، هادئة، ولدينا الوقت كله لنلعن صديقنا. لا شك أن لويز قد بكت في الليل، فوضعتها أمها مكاني، فنظرت إليهما. كانت أورور تنام على جنبها، شأنها دائماً، وقد وضعت يديها تحت خدها، وكانت ابنتي مستلقية على ظهرها، وقد فغرت فاها. مررت إصبعي على جبينها، فقامت بحركة كأنها تطرد ذبابة صيفية، ثم استدارت، والتصقت بأمها. هو ذا ظهر ابنتي، وظهر زوجتي، وظهر صديقي، كما لو كانوا يتركونني، ويفارقونني الواحد تلو الآخر. لم أشعل المصباح، نظراً لأن سام كان قد أهداني شموعاً من الكنيسة.

كان يقول:

ـــ يسيطر الظلام.

أشعلت شمعتين عاجيتي اللون، ووضعت أسطوانة سام على جهاز الحاكي. القداس الجنائزي، المؤَلَّف رقم ٩ لموريس دوريفليه. لم أكن أعرف هذا الموسيقار؛ فلقد أحببت موزار على غرار كل الناس، والموسيقار فوريه، كما يحبه بعضهم، وجاك مودوي شأن قليل من الناس، بالرغم من أنه كتب قداساً لجنازة الشاعر رونسار. لقد جعلني

سام أرتعش لسماعي لحن كاديش للحزانى، كما أهداني القداس الجنائزي لديمتري كاباليفسكي، الذي كتب «ذكرى إلى كل الذين هلكوا في نضالهم ضد الفاشية». ولكن، باستثناء بعض الألحان التي كنت أسمعها خلسة حين كان صديقي يستقبلني، لم أكن قد سمعت الصلاة التي خصني بها على الإطلاق.

كانت الأسطوانة قد سُجلت في عام ١٩٥٩ حيث كانت هيلين بوفيه تغنّي، ودوريفليه نفسه يقود الفرقة الموسيقية التي تحمل اسم «لامورو». جلست في العتمة، وسمعت قداس الموتى حيث كانت المقدمة تتدافع كأمواج من الجوقات الحديثة. كرياليسون، و ورتبة القداس الإلهي للموتى التي يهديها سام إلى أنتيغون. فعلت مثله، وأعدت سماع الأسطوانة عشر مرات وذلك بوضع إبرة الجهاز الماسية على كريستال الصوت. كانت الخمرة، والتعب، وتوتر المستشفى، وصدمة الصور، والخوف من الغد حاضرة كلها، فتركت الحزن يحتل المكان كاملاً، وكنت أترنح مع لهب الشموع، وعيناي نصف مغمضتين، وقبضتاي مطبقتان تؤلمان راحتيَّ، ثم فتحت كتاب أنتيغون، ورحت أقرأ من خلال دموعي.

أنتيغون

مسكين أنت يا كريون! فبأظفاري المتكسرة والملأى بالتراب، والزرقة في ذراعي والتي أحدثها حرسك، والخوف الذي يصهر أحشائي، إنني أنا الملكة.

كنت أسمع رتبة قداس الموتى وكانت أصوات الرجال تجيب على أصوات النساء، واحتفظت في جيبي بالصرة التي سأعطيها لإيمان ولأخيها. كانت هدية سام في كيس صغير شفاف، وقد أغلق بشريط أسود من المطاط. عشرون غراماً من التراب البنّي، على شكل طحين لم يُغربل وحصى صغيرة جداً. أردت أن أفتحه، لكنني لم أجرؤ على ذلك، فلقد سلمني صموئيل أكونيس، اليهودي الذي نجا من المحرقة، والمناضل اليوناني، هذا التراب الذي لا اسم له لأعطيه إلى ممثلة شابة من مخيم شاتيلا وإلى مناضل فلسطيني، ومن واجبي أن أنفّذ وعده من دون طرح أي سؤال.

١٠

مروان

ـ يورغوس؟

تقدم الرجل نحوي، بذراعيه المفتوحتين، فهززت رأسي.

ـ عذراً، كلا. أدعى جورج وأنا فرنسي.

انفجر مروان بالضحك.

ـ مثل جورج حبش الحكيم، الإرهابي الفلسطيني؟

كانت صورتي معه، نظر إليها بسرعة، ثم مدّ لي يده.

ـ لقد أخطأت في كتابة اسمك. إنني آسف، لكن بما أن صموئيل يرسلك، فأهلاً وسهلاً! وجدت هنا أسرة وأرضاً.

سحق أصابعي في يده.

ـ إنني مروان، سائقك.

لاشك أن نظرتي بدت غريبة. ربما كنت في عجالة من أمري، كنت تعباً، وقلقاً، وأريد أن أنتهي من كل ذلك بسرعة، وكنت طوال الطريق، أتساءل ماذا أفعل هنا.

سألتني جارتي، في الطائرة:

ـ هل تعلم إذا كان معبر المتحف مفتوحاً؟ كلا، لم أكن أعرف.

ـ و(الرينغ)؟ يبدو أن العبور كان ممكناً، أمس صباحاً.

و(الرينغ)؟ أي (رينغ)؟

كانت سيدة مسيحية من حي الأشرفية، وهي تتساءل كيف تجتاز خط التماس.

ابتسم مروان قائلاً:

ــ إنني درزي.

تلقاني من أرض المطار، إثر نزولي من الطائرة، وبحركة، أخرجني من رتل المسافرين كي أتبعه. وصلنا أمام باب يحرسه جندي، أو ميليشيوي، لا أعرف. كان للرجل عصابة رأس على شعره الطويل، وسترة من كتان خشن وبنطال من الجينز. كانت بندقيته على ظهره، بفوهتها في الهواء، فصافحه مروان، ففتح الآخر الباب، فوجدنا أنفسنا أمام بساط الأمتعة.

ــ أعطني جواز سفرك، واهتم بحقيبتك.

مددت جوازي إلى اللبناني، بثقة مطلقة، ولم يكن لي الخيار قط. كان سام قد وصف لي سائقه كأنه أمير؛ في الستين من عمره، رجل وسيم، طويل القامة، نحيل، بتقاطيع وجهه البارزة، وشعره الرمادي، وبشاربيه وبندبة قديمة، من زاوية الفم إلى الصدغ الأيمن. كانت الندبة أول ما رأيت، ثم يده الممدودة نحوي، ابتسامته، ولكنته وهو يختم جمله بلفظ الحرف الصوتي الأخير. ثمة رجال على هذا النحو. من النظرة الأولى، من أول لمسة جلد، ترسخ العلاقة. ليس لذلك اسم، ولا سبب، ولا وجود، إنها الغريزة التي تهمس بتتبع خطاه.

أعاد لي مروان جواز سفري مختوماً، وكانت سيارته مصفوفة أمام المطار، عند أحد الأرصفة. إنها مرسيدس سوداء يغطيها تراب أمغر.

كان البحر من جهة، والبنايات وسط الضباب، والجبال عن بعد، ونضارة الربيع تعبق. جلس خلف المقود، وهو يراقبني.

ــ هل سنترافق في الطريق؟

قلت نعم. طبعاً. كنت هناك لخمسة عشر يوماً ولم يكن لي سواه.

سحب مسدساً من حزامه، ثم أخرج المشط ومده لي. ترددت قبل أن آخذه، فقد كان فارغاً.

ــ افتح يدك الأخرى.

في راحتي، وضع ثماني خرطوشات.

هل تعرف كيف تعبئها؟

أجبت بنعم متردداً. لقد قمت بذلك مرتين عند رفيق، حين كنا نفكر بأن نلعب لعبة الحرب. نظرت من النافذة، فكان هناك بعض المارة، غطيت يديَّ بقميصي، وكنت ارتجف.

قل لي:

ــ هل تقوم بذلك كيفما اتفق؟ أم كمحترف حقيقي؟

ضحك مروان مرة أخرى. كان ذا مزاج صاخبٍ، ومنفتحاً، بلا تحفظ.

كان النابض قاسياً، ولقد احتجت إلى كل قوتي لأعبئ الذخيرة. صرّت رصاصة، فخرجتْ بعنف وهي تصدم إبهامي. كنا في ١٠ شباط من عام ١٩٨٢، وأنا الذي وصلت وصلتُ إلى بيروت منذ ساعة لأنقذ أنتيغون، كنت أعبئ مسدساً من طراز «توكاريف» لدرزي وهو يضحك ساخراً.

حجز مروان غرفة لي لمدة خمسة عشر يوماً في فندق «كافالييه» الواقع في وسط بيروت. كانت المؤسسة درزية، يُديرها دروز، وكان مضيفي يعيش على بعد شارع من سريري. في مساء وصولي تحدثنا عن الشؤون المالية، لأنه كان عليه القيام بذلك، وقد تم الأمر. كان سام قد رتب الأمور بشكل رائع؛ فغرفتي، ووجبات طعامي وتنقلاتي كلها تسددها جمعية ذات نشاط فنّي، تحت رعاية وزارة الثقافة ووزارة الخارجية، وكذلك المصاريف التي تلزم للممثلين من طعام، وتنقل، وفندق إذا أغلقت المعابر بين البيروتين. كان مروان ينال راتباً شهرياً، وبشكل سرّي، من موظف في سفارة اليونان، سُجن في عهد العقداء.

ابتسم السائق قائلاً:

ـ لكن سام كان يضيف أحياناً بادرة كرم منه.

كان عليه إعالة زوجة، وأربعة أولاد، وتكاليف سيارتين. كانت سيارة المرسيدس ٢٨٠ SL للمناسبات، ولقد جاء إلى المطار ليستقبلني بها، وثمة سيارة أخرى تويوتا حمراء وبيضاء موديل عام ١٩٧٢ كان يُرقعها من الرصاصات المتتالية منذ خمس سنوات.

فقد وضع سام في الملف ليرات لبنانية ودولارات، وهي العملة الأخرى للبلد، وكنت أستطيع أن أطلب اسماً من السفارة الفرنسية؛ فبفضل هذا الشخص أعيد سام إلى فرنسا لأسباب صحية.

قال لي مروان:

ـ لن تعاني مشاكل مالية.

قدم لي قهوة بيضاء، وهي ماء مغلي يُضاف إليه ماء الزهر المقطر. كنت في غرفة استقباله، على أريكة كبيرة. جلس هو على مقعد، وكان

نكد، ابنه البكر، جالساً علِى المسند، وبقي الأولاد جالسين على العتبة. كان يدخن. في إطار ذهبي معلق على الجدار حيث يوجد رجلان يشبهانه، فهل كانا أخاه؟ وأباه؟ انفجر ضاحكاً، وهو يكرر سؤالي لزوجته التي دخلت، كما ضحك الأولاد أيضاً.

ــ إنه كمال جنبلاط، وهذا هو وليد بك، ابنه. كان كمال أبانا جميعاً. قتله السوريون في عام ١٩٧٧.

رفع مروان كأسه، فشرب نخبهما.

ــ ووليد؟

ــ إنه ليس ذاك الرجل، لكنه زعيمنا مع ذلك.

ــ زعيم اللبنانيين؟

ضحك مروان. تُرجم كلامي، فصرخ الأولاد فرحاً وهم مجتمعون.

ــ إنهما درزيان! أنت هنا مع الدروز، يجب أن تبدأ بالتعلم!

إنه مذهب من المذاهب الإسلامية، أتباعه هم أحفاد اسماعيل والشيعة، وهم وحدهم يملكون روحاً، وقلباً ينبض. ابتسمت.

ــ كيف ذلك، هم وحدهم. وماذا عن الآخرين؟

مط شفتيه اشمئزازاً.

ــ إنهم جلادون، وعبيد، وسارقون، لكنهم ليسوا بشراً.

هز نكد رأسه، وهو يرفع إصبعه حيث كان الشاب يتكلم الفرنسية بأناقة.

قال الابن وهو يبتسم:

ــ إن الدروز أصحاب اعتزاز وعدل.

جاءتنا أمه بشرائح من الخبز، والحمص، والتبولة، واللبن بالثوم؛

دفعتْ الأولاد إلى الممر، ومعهم نكد، فوقف مروان، وأخذ كأسين وزجاجة من الصوان.

ــ هل تشرب عرقاً؟

كنت أعرف الأوزو، لكن سام كان قد أذاقني من قريبه اللبناني كحولاً باليانسون، يجب مزجه بالماء.

ــ هل يشرب الدروز كحولاً؟

ضحك قائلاً:

ــ كلا، أما أنا، فإنني أدخن وأشرب.

بحركة بطيئة، قطع شريحة من الخبز ليغمسها في صحن الحمص بالطحينة.

ــ لنقل إن لي نظريتي الخاصة، أكثر سرّية من تلك التي تؤطر ديننا.

ثمة سؤال كان يقض مضجعي.

ــ لماذا قلت إن المال ليس هو المشكلة؟ ما هي المشكلة، إذن؟

شرب كأسه دفعة واحدة، وهو يضربها على خشب الطاولة.

ــ لقد ورد هذا الحديث مئة مرة مع صموئيل. فلبنان يعاني كل شيء. يجب القتال للحصول على دفاتر مدرسية، الصراع من أجل الكهرباء، ومن أجل الماء، والخبز، ولسد حفر الطرق الخربة. إنك تصل من فرنسا ومعك مسرحية وكل الأبواب تفتح لك. يكفي أن تصفق بأصابعك كي تُستقبل في الوزارات.

ــ وهل يزعجك ذلك؟

شحب وجهي، وبسرعة كبيرة، كان عليَّ أن أفكر قبل أن أتكلم. لم أكن في مدرج يحيط بي رفاقي، كما لم أكن أتحدى خصماً هزيلاً،

بل كنت في بيروت، تحت سقف درزي مسلح، يقدم لي الحماية والمساعدة.

لم يعلق مروان على ما قلت.

ـ كلا، هذا لا يزعجني، لكنني أعتقد ببساطة أنك وصديقك سام تفكران بأنفسكما أكثر مما تفكران بشعبنا. في الواقع، لم أفهم ماذا جاء يفعل مسرحكم في بلدنا مطلقاً. السلام؟ يقتضي ذلك جهداً أعظم بكثير. لتسليتنا ساعة من الزمن؟ إذن شكراً جزيلاً، لكن لا تزيدوا همومنا.

صب لنفسه كأساً أخرى.

ـ سام يعاني سكرات الموت.

لم أجد شيئاً آخر أجيبه به. نظر إليَّ مروان وكان رأسه منحنياً على جانبه، كأنه كان يقرأ شيئاً ما في أعماقي.

ـ لم تكن في البدء في المشروع، أليس كذلك؟

ـ أجل، طلب مني أن أحل مكانه، منذ شهر.

ـ لماذا طلب منك، أنت؟

ـ ربما لأنه لا أحد له غيري.

دخلت فتاة صغيرة، وبيدها صحن من الحلوى.

ـ إذن أنت تفعل ذلك من أجله؟

ـ أفعل ذلك من أجله.

بحركة حانية، مرر يده في شعر ابنته، التي كانت تجمع صحوننا.

ـ هل أنت يهودي؟

بحثت عن عينيه، فلم يكن ينظر إليَّ.

ـــ لماذا؟

ـــ مثل صموئيل، أقصد.

ـــ كلا.

قضم مروان قطعة حلوى.

ـــ إذن لماذا يثق بك؟

ـــ لقد ناضلنا معاً، وعملنا في المسرح معاً. كان شاهداً على زواجي، وهو عرّاب ابنتي.

ـــ إنه أخ لك؟

أخ. أحببت تلك الكلمة أكثر من أية كلمة أخرى. هززت رأسي دون أن ألفظ الكلمة من جديد. أخ، هكذا كان. لقد أسقط أخي ذراعيه أمام المهمة، وطلب مني أن أكمل مشروعه.

ـــ هل شرح لك الوضع؟

ـــ كلا، قليلاً، لم يقل لي شيئاً كثيراً. كان هناك إطلاق رصاصات على خط التماس، واشتباكات في الجنوب، وتوتر في الشمال. كنت أعرف كذلك أنه لا أحد من الممثلين قد رأى الآخرين مطلقاً. حتى إن أحدهم لم يجرؤ على المرور إلى الجهة الغربية من أجل التجربة المسرحية، وقد تردد الآخرون في القيام بالخطوة الأولى.

وافق مروان على ما أقول.

ـــ كيف تعتمد القيام بذلك؟

كنت قد فكرت كثيراً. أردت، في تلك الإقامة الأولى، أن أقابل الممثلين، كل واحد منهم على حدة، وأن أهديهم نسخة من مسرحية أنتيغون. كان سام قد طبع النص على الآلة الكاتبة، ثم سحب لهم

نسخاً بواسطة الستانسيل وأخرجها كما نسحب بياناتنا، لكنني أردت أن يكون بين أيديهم كتاب. قبل مجيئي، اشتريت عشر نسخ من طبعة ظهرت في عام ١٩٧٥، وفي كل كتاب، وضعت صورة جان أنُويْ ونسخة عن الرسالة بتوقيعه.

ــ بمن ستبدأ؟

كنت أود لقاء إيمان التي عندما تحدثت معها، قالت لي إنها على استعداد، فشعرت بأنها ستكون مرشدتي، تلك الصغيرة النحيلة، وإذ بدونها، لا يمكن عمل شيء، لأنها كانت تشكل الانطلاق وعماد المسرحية معاً.

أردت بعد ذلك أن أستمع إلى شربل، أن أسأله إن كان يقبل أن يمثل، فعلاً، أم أن كل ذلك لم يكن إلَّا حلماً محموماً؛ فجواب أنتيغون وكريون يقرران ما سيلي. فإذا قبلا، أتابع، وأذهب لمقابلة الشيعة، وهذا شيء رئيسي في الرمزية الطائفية. كنت أعتمد على مروان بالنسبة إلى الممثل الدرزي، لأن التحدث عن السلام إلى شابة كاثوليكية، والتحدث عن البقاء حياً إلى أرمنية لم يبدُ لي شيئاً مستحيلاً، لذا قررت مقابلتها في نهاية جولتي.

كان مضيفي يفكر، فسألني إن كانت معي أذون عبور للميليشيات، وإن كان الممثلون يعلمون أنني وصلت، وإن كانت معي أسماؤهم، وعناوينهم الدقيقة. لم يذهب سام إلَّا إلى الأشرفية ليسبر استعداد الشاب المسيحي.

سألته قائلاً:

ــ ألم ترَ شخصاً آخر؟ الشابة الفلسطينية مثلاً؟

ــ مرة واحدة، ولكن هنا، وليس في مخيم شاتيلا.

ــ هل تستطيع أن تأخذني إلى كل مكان؟

ــ ما أتقاضاه من أتعاب هو لهذا الغرض.

أعادني إلى فندقي. وعلى بعد شارع بالضبط، وزاوية وبضع عشرات من الأمتار، في الظلام، كان الرجال يملأون أكياساً من الرمل، وثمة طلقات عن بعد، فانتفضت. كانت تلك أولى أصوات الحرب التي أسمعها، وكان هناك طقطقة الخشب، وصدى المعدن الجاف عبر المدينة.

ــ من يطلق الرصاص؟

مدّ لي مروان يده مصافحاً، في البهو.

ــ إنه لبنان الذي يُطلق على لبنان.

أخرجت دفتر سام لأكتب له، فأمضيت وقتاً عسيراً كي أنام وكنت، إلى حد ما، ضائعاً. كان لمروان في المطار ضحكة أخوية، عكسه هذا المساء، حيث كان متحفظاً، نوعاً ما. كان سيساعدني بدون حماس، وكنت مقتنعاً بذلك. إنه سائق حذر، وليس أكثر من ذلك، وربما كان معادياً لي. كنت أعتمد على رجل لم يكن في انتظاري. كانت تلك المسرحية حلمنا، ولكنها لم تكن حلمه، وللمرة الأولى، تخيلت نفسي عائداً إلى باريس مطأطئ الرأس. كانت الحرب أقوى من أن نتحملها. في الليل، كانت الطلقات تدوي.

باتت أنتيغون ظهرها إلى الحائط، تطلق عليها النيران من المدينة كلها.

١١

إيمان

كان الشارع ضيقاً، مُحَفَّراً، تغمره المياه في بعض الأماكن. وكان كل شيء هنا يشبه بيروت بشكل أكثر فقراً، وأشد كآبة، وأعظم ضياعاً: من سيارات، وشاحنات، وعربات تُجر باليد، وزمامير بلا مبرر، وألواح خشبية صُفت عليها الفواكه، وسجائر، وعطور مغشوشة. كان كل شيء هنا يشبه بيروت، ولكن على نحو أكثر فقراً وتعاسة. كان مروان يقود السيارة بصمت. لم يكن يُحب الفلسطينيين، فقد صرح لي بذلك بدون مواربة. على جدران أحجار الزوايا، كانت هناك ملصقات كابية لصور الشهداء؛ رجال يحملون بنادقهم، قبل موتهم والشمس تسطع في خلفية الصورة. خلف المقعد الخلفي للسيارة وقبالة الزجاج، كان السائق الدرزي قد وضع شريطين قطعهما من كوفية، فتوقف عند مدخل مخيم شاتيلا ليبسطهما بحيث تبرزان جلياً، من دون ترتيب شأن رجل تخلص من حطّته ليقود السيارة. كانت تلك الحيلة لا تنطلي على أحد، لكنها ترمز إلى بادرة طيبة. من جهتي، كنت متوتراً، أترقب، ولم يكن لسائقي سلاح يضعه على ركبتيه. ولا أدري إن كانت مراسم الرصاصات التي فرضها عليَّ في المطار تؤشر إلى خطر حقيقي أم أنها طريقة تعدّني لما يحدث في البلد.

انقبض صدري، رأيت، للمرة الأولى في حياتي، علماً فلسطينياً

حقيقياً. كان عبارة عن خرقة ممزقة، تدلت من درابزين حديد شرفة منزلٍ مشغول، وفي مكان لم أتمكن من وضعه. لم يكن حياً ولا مدينة، ولا ضاحية صفائح، ولا «غيتو»، ولكنه كان شيئاً من كل ذلك. كان عبارة عن ممر ذي نمط واحد مؤلف من بنايات صغيرة رمادية اللون، ومن بيوت منخفضة، وطرق مسدودة قد خُرِقت، وجدران قد قُشِطت، وصنعت من الإسمنت الخام؛ كانت هناك نوافذ مكسورة، وصفائح متموجة، ودكاكين بائسة بستائرها الحديدية الفاغرة أفواهها، وكانت الأشرطة الكهربائية تشكل خطوطاً في السماء، وهي تتجاوز المئات، وقد تدلت من نافذة إلى أخرى، ومن سقف إلى السقف الذي يليه، تقطع الشوارع، وقد تكون أحياناً على ارتفاع طول رجل. كانت شبكة الأسلاك، في بعض الطرق المسدودة تتجمع فتثقل بظلامها. على المصطبات، أسلاك شائكة قد غُرزت فيها مزق ترتجف، بقايا ورق، أو قطع بلاستيكية، أو بالونات مشقوقة نسيتها الريح. كنا نسير ونوافذ السيارة مفتوحة، والهواء فاسداً، ونتناً، وثقيلاً شأن فاكهة عفنة. وفي كل المفارق، كانت أكوام من القمامة قد احترقت للتو. فبالإضافة إلى الروائح المتخمرة، كانت النار تضيف دخانها الرمادي المقزز، والأطفال بأقدامهم العارية، راحوا يركضون خلف سيارتنا الحمراء والبيضاء وهم يضحكون ويتخبطون في هذا الخليط، ومروان يطردهم بيده لأنه كان متوتراً، ومتشنجاً.

تمتم سائقي قائلاً:

ـ إنهم فدائيون.

كانت ثلاث صفائح من البنزين تسد الطريق، وقد مُلئت

بالإسمنت وصُففت بشكل متعرج، تزينها صور ياسر عرفات الملونة. جلس رجل على إحداها، وبندقيته الآلية مرفوعة بين فخذيه. وقف، وسحب الأقسام، وكان هناك رجلان آخران أمام الحائط، وقد جلسا على كرسيين من البلاستيك. رفع الأول يده، كان يلف رأسه بكوفية، فرفعها على عينيه. أوقف مروان السيارة وأطفأ المحرك. ابتسم للمقاتل، وهو يمد رأسه من نافذة السيارة، بنظرة صريحة. كنت أعرف تلك الابتسامة، إنها بادرة خشية، وقلق، وهي ابتسامة من يرفع يديه مستسلماً. أشار إلينا الفلسطيني بالنزول من السيارة.

همس لي صديقي قائلاً:

ـ أرِهِ تصريحك.

وضعت يدي في جيب سترتي، فمنعني قائلاً:

ـ إنزل أولاً، ولا تقم بحركة مباغتة.

كان الشارع مُقفراً، فتكلم الدرزي، ولم يكن الفلسطيني يجيب. طلب منه أن يفتح صندوق سيارته، وعلبة قفازيه في حين كان مقاتل يدور حول السيارة، وراح آخر يفتش مروان ثم يفتشني. كان الدرزي مستمراً في الحديث، يملأ صمت الآخرين، ويضحك من أقل كلمة، ويشير إليَّ بإصبعه قائلاً:

ـ أرِهِ تصريحك. أعطه إياه!

أخرجت تصاريحي الخمسة، وبسطتها شأن لاعب بوكر يسيطر على لعبه. فتح مروان عينيه واسعتين، وأخذ يرتجف. رفع كتفيه، واعتذر بدون كلمة، بيديه المفتوحتين، طالباً العفو من الفلسطيني. خفض

الرجل صاحب الكوفية وشاحه، وانفجر ضاحكاً. كانت له نظارتان مستديرتان، ولحية لم تُحلق منذ عدة أيام، وكان أشبه بطالب أكثر من شبهه بأحد الميليشيويين. أخذ رفيقه «أوراق لعبي»، كل بطاقاتي، وفلشها الواحدة تلو الأخرى على غطاء السيارة الأمامي. لحق به الآخرون وهم يضحكون. كان هناك إذن العبور من الجيش اللبناني، وكذلك من الحزب التقدمي الاشتراكي الدرزي، ومن الميليشيات المسيحية، والتصريح الشيعي من حركة أمل وتصريح من حركة فتح. أخذ المقاتل التصريح الأخير، وعليه شعار ساعدين ممسكين بالسلاح والقنبلة يدوية على خلفية بلون علم فلسطين، وكان يهز الإذن شأن من يهز لعبة أطفال.

سألني بالإنكليزية قائلاً:

ـ هل تتكلم الانكليزية؟

أجبته:

ـ قليلاً، شأن كل الناس. وقف مروان بجانبي، وكانت نظرته الآسفة تتنقل من أحدهم إلى الآخرين. لم يأخذ أية مسافة مني، فأحسسته قريباً جداً. التصق بي. في ذاك اليوم، شعرت بالاطمئنان إلى الأبد. لم يكن صديقي الدرزي يوافق على المسرحية، فلقد استقبلني حذراً، لكنه يحافظ على كلمته التي أعطاها لصموئيل أكونيس فهو لم يكن يحب أنتيغون بل كان يحترمها.

أراني الفدائي التصريح من فتح، وكان دائم الابتسامة.

قال لي بالإنكليزية:

ـ تلك هي الورقة الفعالة. إنها الوحيدة!

هززت رأسي، ولم أفهم شيئاً.

تمتم مروان دون أن يرفع نظره عن المناضل:

ـ إنه الجوكر.

ـ الجوكر! أجل! هل فهمت ما معنى الجوكر؟ إن عرفات هو الجوكر!

الجوكر؟ هززت رأسي وأنا أبتسم وجلاً. أجل، كنت أفهم. طبعاً. إنها البطاقة المنقذة. جمع فلسطيني آخر بقية البطاقات، وبدا كأنه يريد تمزيقها، وتابع صديقي الدرزي كلامه، وراح يتحدث، ويستمر في حديثه، وهو يُشير إلى سيارته، وراكبه، وقلبه. سمعته يقول «أنتيغون»، على ما أعتقد. سأل الفدائي رئيسه، فنظر الأخير نظرة رحيمة، وهزّ رأسه، وأعاد لي بطاقاتي التي كانت في يده.

أطلق فلسطيني وهو يُصلح كوفيته قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً[٥]!

كانت تلك الجملة ذاتها التي لفظها صديقي الدرزي في المطار، فراودني شعور من اكتسب أسرة جديدة وأرضٌ أيضاً. مد لي المقاتلون أيديهم يصافحونني الواحد تلو الآخر، فمددتُ يديَّ الاثنتين بالمقابل. كنت قد خفت، لكنني أدركت الآن أن الحياة قد عادت. فقلبي الذي كان يهمس راح يخفق من جديد، في حين كانت شفتاي جافّتين، لذلك كانت الشفة السفلى تتشقق حين أضحك. كان مروان في السيارة، فشكرت الفدائيين طويلاً، وكدت أقول لهم إننا كنا قد دعمناهم في فرنسا، وأروي لهم تظاهراتنا، ومشاجراتنا ضد الصهاينة، وكذلك

---

[٥] وردت هذه الجملة بكتابتها الفرنسية ولفظها العربي. (المترجمة).

علمهم الذي رسمناه على أرصفة باريس. أطلق مروان بوق سيارته وراح ينادين، وقد أحسن صنعاً. كان فرحي أقرب إلى الهلع، وكنت بذلك أتسبب له بالمهانة.

أطلق الفلسطيني قائلاً:

ـ يا الله، يا شباب.

هيا سيروا، أهلاً بكم في شاتيلا.

تابعنا طريقنا في الشارع الرئيسي، ثم درنا قبل المستشفى حيث كان مروان مكفهراً، وفمه شبه مفتوح، ويداه ترتجفان على المقود، وهو يراقب في مرآته الارتدادية. فتوقف أمام أرض عراء، وقد أثار غيمة من الغبار، وفتح غطاء سيارته الأمامي.

ـ انزل، يا جورج.

بسط يده، تحميه زاوية جدار.

ـ أعطني تصاريحك.

ألقى نظرات حولنا.

ـ حين تصل إلى معسكر، فكل الآخرين أعداء. هل تفهم ذلك؟

لقد فهمت.

ـ إذا طلب منك الميليشيوي بطاقة عبورك، فأخرج له بطاقة حركته، وليس بطاقة أخرى. هل فهمت؟

هززت رأسي.

ـ إذن يجب ألا تضعها كلها معاً، عليك أن توزعها في جيوبك.

ـ وماذا أفعل لأتذكر؟

مرت سيارة شحن صغيرة تويوتا محدثة ضجة في الشارع، فارتمى مروان تحت غطاء السيارة كأنه يفحص المحرك. كان هناك ثلاثة مقاتلين فلسطينيين مسلحين على منصة سيارتهم ومنصوب عليها مدفع رشاش ثقيل.

نهض الدرزي من انحناءته.

ـ لا تكذب، من تدعم؟

نظرت إليه دون أن أفقه شيئاً.

ـ انسَ أنني درزي. من تفهم من هذه الحرب؟

تلعثمت، ولم أكن أعرف. كنت هنا من أجل السلام، وليس من أجل الحرب. تحدثت عن أنتيغون. فبعد الحاجز الفلسطيني، مدّ لي سائقي فخاً، وللمرة الثانية، وجدت نفسي في خطرٍ.

ـ أجب يا جورج، هذا مهم. هل تدعم الكتائب؟ المسيحيين؟

هززت رأسي بالنفي. ليس هؤلاء، كلا. ففي عام ١٩٧٥، ذهب جرذان سود من كلية أسّاس للحقوق للانضمام إليهم، ليحاربوا اليسار اللبناني والفلسطينيين.

قلت:

ـ الفلسطينيين.

هز مروان كتفيه، وأخرج بطاقة فتح من «أوراق لعبي».

ـ عرفات؟ إذن تضعه على قلبك. هكذا تتذكر.

وضع البطاقة في جيب قميصي الأيسر.

أراني البطاقة الدرزية.

ـ أنت تسدد قيمة أتعابي؟ إذن ضع جنبلاط من جهة محفظة نقودك.

وجدت ثانية ابتساماته الأولى.

ـ بطاقة الجيش اللبناني؟ في جواز سفرك. إنها وثيقة رسمية، يمكنك إخراجها أينما كنت، لا أحد يلومك على ذلك.

بقي شيعة منظمة أمل والميليشيا المسيحية، أتوافق؟

ـ بالنسبة إليهما، تجلس فوقهما، موافق؟

سُمع وابل من الرصاص عن بعد، وكانت ثمة مجموعتان من الطلقات أقرب منا، فتجمّدت في مكاني، أما هو، فلم يتأثر.

ـ إن المسيحيين اللبنانيين هم فاشيون، بالنسبة إليك؟ تضع البطاقة في جيب أقصى الفخذ اليمنى.

ـ بطاقة أمل في جيب الفخذ اليسرى؟

مدّ لي مروان آخر تصريح وهو يضحك.

ـ يا الله! إنك تجعل أنتيغون تنتظرك.

*

رفعت إيمان منديلها الأبيض، وقد تركت خصلة شقراء تفلت من شعرها. كنت أراقبها بصمت حين ضبطت نظرتي، فأدرت عينيَّ، فضحكتْ من ارتباكي.

كنا خمسين في الظلمة، وقد جلسنا على زوايا حجرية، بين بنايتين متهدمتين وسط أرض بور تحولت لمدة ساعة إلى مسرح. لم يكن هناك منصة، بل ثمة بوابة قد أقيمت في التراب. كانت الفلسطينية جالسة

جانباً، ويدها تُخفي شفتيها، فراحت تترجم لي شعر محمود درويش، وهي تنتظر أن ينتهي الممثل من جملته كي تترجمها لي.

ـ سجل! أنا عربي. وأعملُ مع رفاقِ الكدحِ في محجرْ، وأطفالي ثمانيةٌ...

كان الممثلون أطفالاً، جاء خمسة منهم من مخيم صبرا، أما الآخرون فيعيشون في شاتيلا.

قالت لي إيمان:

ـ إنني معلمتهم.

للمرة الثانية وجدتها جميلة، أجمل من أن أكف عن التفكير فيها، أطول مما تخيلتها، وأصغر أيضاً. كانت تلبس ثوباً أسود للحفلات، مطرزاً بالخيوط الحمراء والخضراء. كانت مختلفة عن الآخرين بلكنتها المشددة والغنائية. اختارت هذا النص في أيلول وأخرجته مع التلاميذ. لقد قاموا بتدريبات كثيرة طوال أشهر قبل أن يمثلوه، وكان بين الحضور القليل من أهالي الأطفال وأصدقاء، وكثيرون يحملون مصابيح جيب، يسلطونها على المسرح ككاشف نور. انصرف مروان، واتفقنا على ساعة العودة وحين وصلنا، نظرت الفلسطينية إلى الدرزي دون أن تمد له يدها، فلمس هو قلبه بطرف أصابعه على سبيل التحية.

حين لم تكن إيمان تترجم، كانت تتابع الأطفال من طرف شفتيها.

ـ جدّي كانَ فلاحاً بلا حسبٍ.. ولا نسبِ! وبيتي كوخُ ناطورٍ منَ الأعوادِ والقصبِ.

كان سام قد قال لي إنها تسكن قبالة عيادة بيير طبيب الأسنان.

على باب مخيم شاتيلا، يكفي أن تسأل عن عيادته ثم تتابع

بأصابع منبسطة. كنت قد أعلمتها بزيارتي، فأعدّت إيمان صينية شاي، فشربناه خارج البيت، واقفين في الشارع. لم تدخلني إلى بيتها، وهو بيت منخفض، مغلق بالقضبان. كان كل شيء تعباً؛ سقف من الصفائح المجعدة والمثبتة بأغطية بلاستيكية، نافذتان من الكرتون. كانت الجدران كأنها أصيبت بالجرب. لم أرَ أمها، ولم يخرج أبوها، فقط لمحته في عتمة الغرفة، وكان ثمة فتاتان صغيرتان تضحكان على العتبة.

ـ ياسين، قدم شاب نفسه وقد وصل خلفي.

إنه ذاك الشاب الفلسطيني ذو النظارتين المستديرتين الذي ضحك للتو على الحاجز حين أخرجت بطاقات عبوري كورق لعب في يدي. كان شقيق إيمان ذا وجه في منتهى الرقة ونظرة هادئة.

ـ إذن هذا أنت؟ فرنسي المسرح؟

أجل، كنت ذاك الفرنسي. نظر إليَّ، وكان يتحدث بلغة إنكليزية ركيكة.

ـ وجئتَ تصنع السلام في لبنان؟

لم يكن يسخر مني، بل كان يريد سماعي، فابتسمت.

ـ ما أريده بالضبط هو إعطاء الخصوم فرصة ليتحادثوا.

ـ إلى أعداء.

ـ فلنقل ذلك.

ـ يتحادثون وهم يتلون نصاً ليس من كتابتهم، أليس هكذا؟

ـ بعملهم معاً حول مشروع مشترك.

أصلح شريط بندقيته الآلية.

ـ إنها شكل من الهدنة، إذن؟

أحببت كثيراً الكلمة، فقلت نعم؛ فالمسرح ضرب من الهدنة.

بعد أن شربنا الشاي، أعطتني إيمان مصباح جيب، ساعدنا نوره على اجتياز الطرق الضيقة. كنت أسرق ظلها الرشيق، فقد أرادت أن آتي في ذاك المساء لأسمع قصيدة بطاقة هوية، التي كتبها محمود درويش في عام ١٩٦٤. سنتحدث عن أنتيغون مرة أخرى، وقد ترغب في رؤيتي قبل أن تستمع إليّ.

في الليل، كنت أرتجف، وكان هناك موقدان مشتعلان من كل جهة من المسرح الذي رسمه التلاميذ بحقائبهم. ثمة طلقة رصاص بعيدة كانت تعكر النص، وكنت الوحيد الذي أنتفض. كان الأطفال يمثلون، وإيمان تترجم لي. رحت أراقب الوجوه على ضوء النار من نساء ورجال ومسنين بلحى بيضاء. كان ثلاثة مقاتلين يستندون إلى الجدار، وقد وضِعت بنادقهم الآلية على الأرض. قبل ذلك، جاء مسؤول فلسطيني يسلم عليَّ، يرافقه ياسين. قال لي ويده في يدي، إن هذه المسرحية لفكرة رائعة، فارتحت لكلامه. كان رجل يعرف، أقلّه، ما جئت أفعل في هذا البلد. لم أكن، ذاك المساء في لبنان، ولا في بيروت، ولا حتى في شاتيلا. كنت في أرض المنفى، في قطعة بدون هواء، بين جدارين، وسماء منخفضة، تخططها أسلاك كهربائية. فتحت دفتر سام، ودونت كل شيء من أجله؛ عدة كلمات عن عظمة الوجوه، عن قسوة بعض النظرات، عن شَعر إيمان، وعن يديها الشاحبتين، عن جمالها المُذهل. عرفت، من أول ابتسامة لها أنها ستكون أنتيغون.

ــ سجل... برأس الصفحة الأولى

أنا لا...

لم تعد الفتاة الصغيرة تتذكر شيئاً.

همست لها إيمان بالعربية:

لا أكره الناس.

كانت الفتاة الصغيرة ترسل ابتسامات أسف إلى الحضور، فراحت تبحث عن أمها، وعن إيمان، وعن كلمات تنجدها.

كررت إيمان جملتها:

ــ لا أكره الناس.

تلعثمت الصغيرة قائلة:

ــ لا أكره...

وقفت المعلمة، فمدت لها تلميذتها ذراعيها. كانت في الثامنة من عمرها، وربما هي مستعدة لأن تكون لاجئة.

جلست معها إيمان وسط الحصى.

رددت الفلسطينية قائلة:

ــ ولا أسطو على أحد.

ثم همست بكلمتين في أذن الطفلة.

رددت التلميذة قائلة:

ــ ولكني.. إذا ما جعت

آكل لحم مغتصبي

وقفت إيمان، رافعة ذراعيها نحو السماء، فانتصب كل الأطفال، وقبضاتهم على أوراكهم.

ـ حذار.. حذار..

ثم تجمعوا حول معلمتهم.

صرخت أنتيغون قبل أن تحييّ الحضور قائلة:

ـ من جوعي

ومن غضبي!

وقفت، وسط التصفيق وزغاريد النساء. كان الأطفال يفتشون عن أرز في جيوبهم ويلقونه علينا، وكانت النوافذ المقابلة، وبعض المصطبات تُظهر أشخاصاً يحيّون تلك البهجة، ثم تفرق الناس فجأة.

ـ شرحت لي إيمان قائلة:

ـ إنها مشكلة الأمن.

كان الفدائيون يُفرغون الساحة بحركات كبيرة، في حين راح ياسين يضرب يداً بيد. كان شعب قد أصبح ثانية عائلات تتفرق عبر المخيم. وكان مروان في الجهة الأخرى من الشارع، في سيارته، بمصابيحها المطفأة.

ـ هل يمكن أن نلتقي غداً؟

هزت إيمان رأسها.

أجابتني قائلة:

ـ أجل، على ما أعتقد.

راح قلبي يخفق بشدة. كان ذلك موعد عمل، فشعرت بأنني قد سرقت منها قبلة. سنلتقي خارج المخيم، في أحد مقاهي وسط المدينة. لم تكن تريد نظرة أخيها ولا ضحكة أخواتها؛ مددت لها يداً ترتجف حيث كان رجال يمرون، فاستدارت مبتعدة.

*

ـ إن أول عمل تقوم به، هو العبور إلى المنطقة الشرقية. عليك أن تقنع شقيق شربل كما نجح سام في إقناع أخي.

كنت أشرب زجاجة من البيرة، أما إيمان فلم تذق ماءها المعدني.

ـ على خط التماس، أمام البيت الأصفر تماماً، توجد سينما خربة. هناك أراد تمثيل أنتيغون.

كنت أنظر إلى إيمان خلسة حيث كانت تبعد بكأسها الدوائر الرطبة على خشب الطاولة؛ فمنذ بدء لقائنا كانت خافضة الرأس.

ـ ما هو هذا المنزل الأصفر؟

رفعت الفلسطينية، هذه المرة عينيها، وبدت كأنها فوجئت.

ـ إنها بناية بركات، إذا أردت.

لم أكن أريد شيئاً، أردت أن أفهم فقط، وكانت تشرح لي بهدوء.

ـ حين تجتاز «الرينغ»، فالطريق سريعة، تصل إلى مفرق «السوديكو» الذي يُحدد مدخل الأشرفية، القطاع المسيحي. والمنزل الأصفر يقع هناك. إنه مخفر أمامي استراتيجي، فمن طوابقه الثلاثة، تسيطر الكتائب على كل القطاع. هناك قناصون بالرصاص من كل نافذة، وإذا وصلت دون أن تعلمهم مسبقاً، تُقتل.

ـ والسينما؟

ـ من الطرف الثاني، في شارع دمشق. ليس في الغرب ولا في الشرق، إنها في الوسط.

ـ حدثني سام عنها.

ـ كان يريد الاتصال بالميليشيات من أجل هدنة ثلاث ساعات. وبما أن هناك ممثلاً من كل معسكر، فلقد قال إن ذلك ممكن.

ـ وهل صدقتِه؟

أجابت إيمان:

ـ كلا.

ثم ظهرت منها بادرة.

ـ إذا وافق المسيحيون، نكون قد ربحنا.

ـ وماذا عن الدروز؟ وعن الشيعة؟ والفلسطينيين؟

ـ لقد أعطت منظمة فتح موافقتها، وسيتبعها الدروز.

ـ والشيعة؟

ـ يجب إقناعهم. إنهم غير صادقين، لكن كان لسام أمل كبير في إقناعهم.

ابتسمتُ.

ـ الشيعة غير صادقين؟

بدت منها حركة واضحة.

ـ عقيدتهم تسمح لهم بذلك.

ـ هل الفلسطينية هي التي تتحدث؟

ـ إنها السنية.

شربت قدح البيرة دفعة واحدة. كان مذاقها مراً، فشعرت بالدوار. كانت فتاة في العشرين من عمرها تشرح لي أن عليَّ أن أتفق مع القوى المتحاربة كي أصعد على خشبة المسرح، وكان سام قد نزع الألغام عن ساحة مسرحنا مع السلطات الفلسطينية، وليس مع المقاتلين الآخرين. فبعد الحواجز، بقي إسدال البنادق.

ـ هل أستطيع الحصول على التزام مكتوب من منظمة فتح؟

ابتسمت إيمان.

ـ إن الموافقة الفلسطينية هي الشيء الوحيد الذي استطاع سام أن ينتزعه.

ـ لكنني لا أملك أثراً مكتوباً.

ـ إن كلمتي تكفي، أم أنك تريد أن تزعج عرفات؟

كنت متوتراً، فاعتذرت. فمن زجاج المقهى الصغير، كنت أرى سيارة مروان، ووجهه نحونا.

كان قد قال لي:

ـ إن الفلسطينيين أفاعٍ، فلا تُقرب منهم يدك، كي لا تلدغ.

إلَّا أن إيمان قد أخذت يدي هذه المرة حين مددتها لها مع الصرة الشفافة المغلقة بورق مجعد. أبقت يدي في يدها، ومعها هدية سام، غير مبالية بالمارة الذين يترددون على الرصيف.

تمتمت أنتيغون قائلة:

ـ لقد فكر في ذلك.

ابتسمت وخفضت عينيها.

همست إيمان قائلة:

ـ إنها من تراب يافا.

أطبقت قبضتها على الصرة الصغيرة.

ـ قليل من فلسطين أتقاسمه مع أخي.

بقي لي عشرة أيام. لقد قررنا أن نلتقي عشية رحيلي، وبدأ قلبي ينقبض.

١٢

جوزيف ـ بطرس

قال لي مروان:

ـ أريدك أن تصمت، أثناء المسير.

وشرح لي أننا سنكون غير محميين خلال ثماني دقائق، أي مهددين بالموت. فسنمرّ تحت مرمى كل قناصي المدينة. أولاً الشيعة والناصريون الذين يحتلون برج المرّ، وهو بناء لم ينته، مؤلف من أربعين طابقاً تركته الحرب للمحاربين. تتبعنا، بعد ذلك، البنادق على طول السَراي وفي ساحة الشهداء، ولا ندري ماذا قد يفعل إصبع على الزناد. وحين وصلنا إلى تقاطع السوديكو، كدنا نكون هدفاً للقناصين المسيحيين المتمركزين فوق برج رزق، والمسيطرين على الطرق التي تطلّ على الأشرفية، وكذلك لأولئك الذين يحمون البيت الأصفر. وضع مروان يده على كتفي.

ـ ماذا قال لك الكتائبي، بالضبط؟

ـ أخو شربل؟

ـ أجل: ماذا قال؟

ـ قال إنه لا يراقب كل شيء.

ـ هل هو الذي قال لك ذلك بالهاتف؟

ــ نعم.

ــ لكنه لم يمنعك من المجيء؟

ــ كلا. بل طلب مني أن أصل إلى السوديكو قبل الساعة الثامنة.

وبركلة من قدمه، سبر مروان العجلة الأمامية للسيارة، ثم علَّق قطعة من القماش الأبيض على الهوائي، وعلى مقابض الأبواب. كان يتنفس عالياً، ويتحدث بالعربية مع نفسه، ويأتي بحركات غضب بلا أدنى سبب.

قال مروان وهو يفتح لي باب السيارة:

ــ لم أعد شاباً لتلك المخاطر.

وكرع الماء من الزجاجة بكامله، ثم طلب مني مرة ثانية أن أسكت خلال المسير، وهو الذي سيتحدث، فقط.

ــ لا أريد أن تتنفس. إنني وحدي في السيارة، أنت تصغي إليَّ.

ــ لماذا؟

نظر إليَّ قائلاً:

ــ لا أريد تذكُّر أنك هنا. كفى المرء أن يخاطر بحياته وحده.

جلس في المقدمة، وأمرني أن أستلقي في الخلف، على بساط أرض السيارة، بين مقدمة مقعدي ومسند مقعده.

ــ لكن لماذا الآن؟

ضرب مقوده بيديه الاثنتين.

ــ أستغفر الله!

خرج بعنف. صفق باب السيارة وأدار لي ظهره منصرفاً بخطوات كبيرة.

ـ مروان!

صرخت. لكنني ندمت على ذلك. توقف وسط الشارع، واستدار دون أن ينبس ببنت شفة، ثم عاد. ودون أن أنتظرَ، تمددْتُ داخل السيارة كما أراد. جلس خلف المقود، لكنه لم ينطلق. كنا، أنا، وهو، والصمت. ثم صلى بهدوء. تلا عدة كلمات، ويده ممسكة بالسبحة الخشبية المتدلية من المرآة. نزع السبحة، وركنها في علبة السيارة الأمامية، ومن ثمة انحسر، محتمياً بلوحة القيادة، بحيث يكاد وجهه لا يعلو عن المقود.

كان الشارع قفراً، والنهار يشرق. سرنا بهدوء، وبسرعة أكبر حتى جسر الطريق السريع، وما إن دخلنا «الرينغ» حتى انطلقت سيارتنا مسرعة، فشعرت وكأنني في لحظة إقلاع طيّارة، فأغمضت عينيَّ. كنا نسير في تابوت أحمر، مُعَرضين إلى كل رصاصات المدينة، فأصابني الهلع. كان على صديقي أن يطلي سيارته بلون الحرب، أو بالقار، أو بلا شيء.

همس الدرزي قائلاً:

ـ برج المرّ.

فتحت عينيَّ، ونهضت قليلاً. كان البناء إلى اليمين، مستقيماً، ضخماً يعلو في السماء، وكانت نوافذه التي يطلق منها الموت تراقبنا. أطبقت قبضتيَّ، وانتظرت. لم تُطلق رصاصة واحدة. وحده صوت المحرك كان يسمع.

تمتم مروان قائلاً:

ــ لقد مررنا.

رشق مفاجئ من الرصاص؛ بعيداً، قريباً منا، لا أدري. كانت هناك طلقات أخرى متباعدة.

تذمّر الدرزي صارخاً:

ــ المرابطون!

إنهم الناصريون، اتخذونا هدفاً لهم.

أطلقت أربع طلقات عنيفة، فأصيبت السيارة وكأنها دقت بمطرقة ضخمة، فترنحت.

ــ فليحمنا الله!

كان مروان يقود السيارة وفق خط متعرج وضيق، ثم تتالت صدمات أخرى، فصفير، فصخب شبيه بصخب أفلام السينما. اخترقت رصاصة حارقة زجاج السيارة الخلفي، وراح الزجاج ينهمر كالمطر، فخلعت وسادتيّ المقعد لأغطي رأسي.

ــ إننا في خط نيران برج رزق.

انتظرت رشقاً جديداً، لكن لم يحدث شيء. راح المحرك يزأر، وخرجنا من «الرينغ» في حين كانت تدخله سيارتان تطلقان بوقيهما من دون توقف، ثم سيارة إسعاف تزعق، فأبطأ مروان سيره.

ــ هنا مفرق السوديكو.

أوقف السيارة، راكناً إياها فوق رصيف غطاه العشب، وملقياً رأسه إلى الوراء حيث كان في المكان سائقا تكسي، جلسا القرفصاء.

ــ يمكنك أن تنزل، يا جورج.

بعدها دار حول السيارة وهو يهز رأسه، وأبدى إشارة اشمئزاز

ثم لحقه زميل له. ثلاث رصاصات اخترقت الصندوق الخلفي، ورصاصتان غطاء السيارة الأمامي، وأثر رصاص على الباب لجهتي. دخلت الرصاصة الحارقة من اليسار، وخرجت من الزجاج. لقد عبرت داخل السيارة فوقي تماماً. تفحص مروان العجلات، والمصابيح، والمحرك.

ــ سأنتظرك حتى غداً صباحاً الساعة الثامنة.

ــ ألا تأتي معي؟

نظر إليَّ الدرزي وهو يبتسم قائلاً:

ــ أتريد موتي؟

أشعل سيجارة قدمها له أحد السائقين.

ــ كيف أتابع طريقي؟

ــ خذ هذا التكسي.

طلب السائق الآخر أن أدفع له الأجرة سلفاً، بالدولارات، وأدار لي مروان ظهره، وفتح ربطة خبز حيث كان يرتجف. أما أنا فاصطكت أسناني، لأننا قطعنا مسافة رفقة الموت.

خرجت من التكسي، ويداي مرفوعتان، ممسكاً حقيبتي، من شريطها الجلدي، بطرف ذراعي. كان كتائبيان يكمنان خلف دشم خرسانية محمية بهيكل حافلة متكلسة، فصرخ أحدهما بسائق التكسي كي يبتعد عن المفرق، ثم أشار إليَّ بأن أقترب. وحين وصلت على بعد عشرة أمتار منه، أمرني بالركوع، وبوضع يديَّ متصالبتين على رقبتي، فاقترب بخطوات متثاقلة، وفوهة بندقيته الآلية مسددة نحوي. كان

على ذراع قميصه صورة أرزة محاطة بسيفين، في حين كنت على مرمى رفيقه المتكئ على كيس من الرمل. بعدها سمع أمر من بعيد وصرخة، فرشقات نارية.

ــ «شو بدّك»؟

ــ إنا فرانسيه! فرنش!

اقترب المسيحي، ورفع يده وهو يهزّ أصابعه.

ــ جواز السفر!

كان شاباً صغيراً، معتمراً خوذة خيّالة، ووجهه ملُطَّخاً بالصباغ الأخضر والبني. وبحركة غريزية، فتشت داخل جيب قميصي وأخرجت أذْن المرور الفلسطيني. رأيته في طرف أصابعي. يا له من كابوس: القبضتان المسلحتان، والرمانة، والعلم الفلسطيني. صُعِقتُ، وأحسست بالخواء في داخلي فجأة، إذ إنني سأموت وفمي مفتوح على وسعه. أفلتت المستند، فسحب الكتائبي أقسام بندقيته من طراز إم سيكستين (M١٦) مستنجداً، فسارعت إلى تمزيق جيب بنطالي الخلفي، ومددت له إذْن المرور الصالح، فسدد لي صفعة، وانتزع المستند، وهو يسحق الإذْن الآخر بحذائه الضخم. تفحص صورتي بإمعان، وكذلك اسمي، ثم التقط بطاقة «فتح» من الأرض بفظاظة ورماها في وجهي.

ــ كُلْ!

كان يتكلم الفرنسية. نظرت إليه، هو، والصليب المذهب المتدلّي من رقبته. فتحت يديَّ كوني لم أك أفقه شيئاً، فهجم اللبناني عليَّ، وأمسكني من شعري، وجرني إلى الخلف، وفوهة سلاحه مسددة على صدغي.

ــ كُل خراك!

دفعني إلى الأمام، فسقطت أرضاً، على أطرافي الأربعة، ورأسي خاوٍ من كل شيء. لا شيء: لا أية كلمة، أو صورة، أو فكرة. كنت رجلاً خاوياً، أسمع لكنني عاجز عن أي رد فعل. تخليت عن خشيتي وأودعتها جهة السلام. لقد هدأت التهديدات، والقلق، والمخاوف التي شعرت بها قبل الحرب مع هذا النظام العبثي. إنّ أكل الورق يعني موتي الشخصي. لم أعد أحسّ شيئاً في أصابعي، وبقي في باريس ألم ركبتي، أما قلبي فكان في غفوة. التقطت إذْن المرور، ومزقته إلى قطعتين، ثم إلى أربع قطع، ثم إلى ثماني قطع، لأنني أحاول كسب بعض الوقت. على الصورة، كنت أحْولَ وأنا أضحك. وضعت القطعة الأولى داخل فمي، وقد لففتها كسيجارة. لن أمضغها، ولن آكلها؛ يجب أن أبلعها بسرعة وكما هي. أما القطعة الثانية فكانت أصعب. كان عليَّ أن أخاف، أو أن أخجل، أو أخجل من خوفي. لا شيء من كل ذلك. تصورت نفسي أنهض بقوة، واقفاً، أجابِه شأن جوزيف بوكزوف، وأنا أقتلع قلب هذا الرجل بأسناني. لكنني رحت آكل معجونتي الكريهة، وركبتاي معفّرتان بالتراب، كالكلب. لم يكن الكرتون يمر من بلعومي، فقد التصق بسقف حلقي، وبلساني، فتفتّت، رافضاً جسمي. كان غبار الحصى يحزّ حلقي، فسعلت، في حين كانت قطعتان من فلسطين متبقيتين، تنتظران أن أخونهما.

بصق الميليشيوي على الأرض قائلاً:

ــ يالله! بسّ، خَلَصْ!

وقفتُ، ويداي على رأسي، فأخرج المسيحي جهاز بث من حقيبته، وأعطى اسمي. فهمت كلمة «فرنسي». سرنا نحو الخط الأخضر،

حيث كان العشب العشوائي قد اكتسح الحي المهجور، واجتاح كل شيء، مستفيداً من غياب الناس، وغطى الشوارع المحفورة، وأكوام التراب، والرمل. وكانت الأشواك تظهر من على الشرفات الخربة، وثمة شجرة صنوبر نبتت وسط الأسفلت وقد اتكأت على أحد الجدران، إضافة إلى أشجار قزمة، وذات أشواك، وسرخسيات عملاقة وأشجار الصبار شغلت وسط المفرق، فبدت الأرصفة وكأنها هضاب متعرّجة. على طول الجدران كانت علامات الجماجم تُذكِّر بأن كل شيء مفخّخ، وإلى الرصيف المقابل، انتصب منزل رائع أصفر بثلاثة طوابق. إنها عمارة بركات التي خرمَتْها الحرب. وهناك، في الشوارع المحيطة، وقفت سيارتا «جيب» للقوات اللبنانية، ومدفع رشاش مُثبت فوق شاحنة صغيرة، وكان علينا اجتياز الساحة الملأى بمظاريف الرصاص الفارغة وبالأنقاض، ركضاً. لقد كانا في المقدمة، وأنا خلفهما، ولم أعد سبباً يلهيهما. كان رجل ببزته المرقطة، ونظارتيه الشمسيتين، وقبعته السوداء، ومسدسه داخل حزامه، ينتظرني على المدخل المليء بالثقوب، خلف الحواجز الخرسانية، فابتسم لي ابتسامة عريضة، وهو ينزل الدرجات المتكسرة. لم تكن الحرب قد خرَّبت هذا البيت، فقد كان هذا البيت هو الحرب بعينها. فمن السطح إلى الأرض، دقَّته المعارك كما تُدق صينية نحاسية. لم يكن هنالك إصبع من المنزل لم تطله الحرب، وكانت تُرى في كل مكان، سواء على أعمدته الخربة، وشرفاته، أو نوافذه ذات الطراز الروماني، علامات رشقات الرصاص، وآثار الصليات المصوبة بدقة، وخدوش القنابل اليدوية، وتمزقات القذائف الصاروخية، والنّدَب المفتوحة التي أحدثتها قذائف

الهاون. لقد بدا المشهد، عند شروق الشمس كأنقاض حَلَبة مصارعة عتيقة.

نظر الرجل إلى ساعته قائلاً:

ــ الساعة الثامنة وعشر دقائق. أخّرك رجالي، إنني آسف على ذلك.

ــ بل أهانوني.

عادت الحياة ثانية، وراحت تخترق جسدي.

ــ إنهم ثيران وقد هززْت لهم الخرقة الحمراء.

ــ كنتَ على علم بمجيئي. لقد وثقتُ بك.

كانت ابتسامته لا تفارق ثغره.

ــ لكنك كنتَ على حق، وها أنت على قيد الحياة، ومدَّ لي يده.

ــ جوزيف ــ بطرس، أخو شربل.

تبعته تحت الشرفة، ثم في الباحة الداخلية حيث توجد متاهة من الغرف الخالية، فسيحة جداً، ومثقلة بآثار الحرب. إنه قصر فخم، وحين كان المحاربون يمرّون أمام النوافذ المفتوحة يطأطئون رؤوسهم، وقد كدسوا أكياس الرمل حتى السقف.

ــ هل عندك إذن لمنتصف الليل؟

تحدث الأخ إليَّ دون أن يستدير، وراح يعبر الصالات، وينزلق من ثغرات الجدران.

ــ يجب أن أكون في الخارج غداً الساعة الثامنة.

توقف، وقد وقف أمامي مواجهاً.

ــ من هو؟

ـ عمن وعما تتحدث؟

ـ سائقك؟ من هو؟

ترددت قبل أن أجيب لكن السكوت لا يجدي.

ـ إنه درزي.

تابع المسيحي سيره.

ـ ثمة رائحة قذرة منذ وصولك.

ضحك. كان الميليشيويون صامتين، وقد جلس بعضهم إلى الحائط، واستلقى آخرون على فراش. لقد كان لباسهم خليطاً من بزّات عسكرية مرقطة، وبناطيل مموهة، وسترات جلْدية. مرَّ رجل مرتدياً معطفاً أخضر واقياً من المطر، وآخر معتمراً قبعة للجيش اللبناني. سرنا بمحاذاة حواجز من الحديد المشبك، وصعدنا درجات، ومررت يدي على فسيفساء مقشورة.

قال الميليشيوي:

ـ إنها من طراز الفن الزخرفي (Art déco). هذا لا يُصدق، أليس كذلك؟ لا تزال هناك قطع بلاط من الثلاثينيات، ورسوم زيتية، وقناطر خشبية، وقطع من أعمدة مرمرية. إنها واحدة من أجمل العمارات في بيروت. بدأ بناؤها عام ١٩٢٤، وأنجز عام ١٩٣٢ وهُدمت في شهرين.

فتحَ باباً مشقوقاً، مفسحاً الطريق أمامي، فدخلت غرفة معتمة، سُدت نوافذها بعوارض، وانتُزعت الأسلاك الكهربائية عن الجدران، تاركة في كل مكان حفراً مكشوفة. جلس في المقعد، وأشار إليَّ بالأريكة المبقورة، ووضع بعناية، على الطاولة المنخفضة، مسدسه

من طراز (Colt 45) من الجيش الأميركي، وقد نُكِّل كأنه خُصص للاستعراض، وزُينَ عقبه بعاج لمّاعٍ، ذي مربعات نُقشت عليها أرزة الكتائب. في تلك الغرفة، شأن كل الأماكن، كانت الأرض ملأى بالحصى، وكذلك بالورق، وببقايا الطعام، والجرائد التي تُغطي الجدران.

فُتح الباب، وأطل شاب برأسه.

سألني مضيفي قائلاً:

ــ شاي، أم قهوة؟

أشعل جوزيف ــ بطرس سيجارة.

ــ أم بعض الكحول، إذا أردت، فلسنا هنا عند أصحابك المسلمين.

كنتُ ظمآن، فطلبت ماءً، لأنّ شفتي كانت تدمي منذ «الرينغ».

ــ على فكرة، وقبل كل شيء. عندي سؤال.

وضع سلاحه تحت وسادة المقعد.

ــ هل أنت مسيحي.

بدت مني إشارة غير محددة.

ــ إنني مُعَمدٌ.

هزَّ الماروني رأسه، ولم تلائمه إجابتي.

ــ لماذا ينتقد المسيحيون الغربيون مسيحيِّي لبنان؟

ــ لا أفهم ما تقول.

ــ أيمكنك أن تقول لي ما هي مآخذكم علينا؟

ــ ماذا تقصد بأنتم؟

ــ أنت، وكل المُعَمَّدين في فرنسا وفي أماكن أخرى. ماذا فعلنا لكم؟

شربت، فراح ينظر إليَّ بلا قسوة، يريد أن يعرف.

ـ ألستم أنتم من ابتكرتم تعبير «الفلسطينيين التقدميين» وكل تلك الترهات، أليس كذلك؟ ماذا تعتقدون، في باريس؟ أن ما يحدث هنا هو مشاجرة بين اليمين واليسار، كما هي الحال في كليتك؟ أنت في الكلية؟ أليس كذلك؟

ـ سأصبح أستاذاً في التاريخ.

ضحك الكتائبي.

ـ لا تزال طالباً وأنت في هذا العمر؟ إنها لفرصة جيدة، فأنا طالبك وستلقي عليَّ درساً. أتوافق؟ أتعتقد حقاً أن الفلسطينيين، والشيعة، والآخرين هم ديموقراطيون؟ ونحن، من نحن؟ نازيون؟ هل هذا هو التاريخ، يا أستاذ؟

شرب قهوته دفعة واحدة، ثم وضع القدح بجفاء على الأرض.

ـ هل تعرف ماذا حدث في الدامور عام ١٩٧٦؟ قُتل مئات من المسيحيين وقُطِّعت أطرافهم من قبل أصدقائك التقدميين. هل تعرف ذلك؟

ـ وماذا عن الكرنتينا؟ وتل الزعتر؟ كم من فلسطينيين قتلوا على يد المسيحيين؟

أنهيت زجاجتي.

ـ إنني هنا لأتحدث عن أخيك، وليس عن الحرب.

راقبني الكتائبي.

ـ هل عندك أولاد؟

ـ لويز، ابنة.

ـ إذن، اصغِ جيداً لما سأقوله لك، سيدي المثقف. هنا، نحن نقاتل من أجل قيمٍ هي قيمُكم...

ـ لا أعتقد ذلك.

رفع إحدى يديه قائلاً:

ـ دعني أتكلم. إننا في جبهة الغرب، في الخط الأمامي. وكما ترى، في كل مرة أعود إلى فوق، في مركزي، في كل مرة أفتح النار، فعن لويز أدافع.

ـ لا يمكنك أن تقول ذلك.

ـ ماذا تظن؟ حين يحرقون كنائسنا ويقتلون أهل قُرانا، ثمة فيض من «اللويزات» المضرجات بدمائهن على الأرصفة.

ـ أنتم تقتلون أيضاً!

ـ كي تتوقف عمليات القتل!

وقف بغتة، فخشيت أن يغادر الغرفة. أدار لي ظهره، ويداه على الحائط وساقاه متباعدتان، وراح يقوم بتمارين، بحركات من رأسه، واضعاً ركبتيه تحت ذقنه، الواحدة تلو الأخرى.

ـ بين مكة، وموسكو وعرفات، سيكون لابنتك لويز مستقبل باهر.

سكتُّ. كانت روائح الطبخ تصعد من السلم، فقلت في نفسي: عليَّ أن أرحل، لا شيء يتقدم. كان هذا الشخص يتسلى مع فرنسي قبل أن يعود إلى مجزرته. لقد كنتُ لهوه وتسليته، فنهضت واقفاً.

ـ حدِّثني عن أنتيغون.

كان صوته هادئاً. لقد تفحصني، وظهره إلى الحائط، رافعاً يديه إلى أعلى ما يستطيع، ففتحت حقيبتي.

ــ كتَبَ أنتيغون...

ــ كفى، أعرف ذلك. حدِّثني عن مشروعك.

تنفست الصعداء. لقد تم الأمر. الآن، بيت القصيد، فكل ما بنيته في رأسي، وفي أحشائي، وكل ما كتبته، وتدربت عليه، وأعددته للممثلين، حان وقته. ظننت أن الكتائبي قد يكون آخر من يسمعني، فكان أول من يصغي إليَّ. حينئذٍ حدثته عن المؤلِف أنويْ. اعترفت له بصموئيل، وشرحت له أن صديقي قد خطرت في ذهنه سرقة ساعتين من الحرب، باختيار قلب من كل معسكر، فبدا لي أنه كان يُصغي إليَّ، وراح يتمدد على الأرض، وينظر إليَّ أحياناً.

ــ لماذا لبنان؟

ــ بالضبط، بسبب الدامور والكرنتينا.

ــ لم يُبَت بالأمور لمصلحة أي من الخصمين؟

ــ أضيفَ ألمٌ على ألمٍ.

دخل جندي ماروني، يحمل صينية: خبز، والفول المدمس وقصعة تبولة، إضافة إلى صحنين، فأكلت أنا ومضيفي من دون أن ننبس ببنت شفة، في هذه العزلة الخانقة. كنا وجهاً لوجه، جالسَين على الأرض حيث يُسمع ضجيج راديو خلف الباب، وخطوات على السلم وطلقتان تحت المسطبة، بعض الضحكات؛ فقد كانت ثكنة وسط مسرح روماني.

نهض جوزيف ــ بطرس وقال.

ــ بالنسبة إلى شربل، سأعطيك جوابي قبل الغد. أعرف أنه قد جُنَّ بهذا المشروع، لكنه ليس وحده من يقرر مصير الخط الأخضر.

نهضت بدوري قائلاً:

ـ كيف ستُعلِمُني؟

ـ سأقوله لك مواجهة. إنك ستبقى هنا.

اتجه نحو الباب، فسألته وظهره أمامي:

ـ ماذا أفعل؟

ـ أستضيفك. ستسهرُ هذه الليلة، إذن استرح في فترة ما بعد الظهر.

*

ـ أبو عمّار؟ يا الله!

كنت نائماً عندما وضع جندي عليَّ غطاءً لأن الطقس كان بارداً. في الأيام الأولى، كان طلق الرصاص يوقظني، ثم طمأنتني تلك الطلقات، ولم أك أحب خبث السكوت.

ـ يا الله!

هزّني كتائبي وهو يضحك. سمّاني أبا عمار، وهو الاسم الحربي لياسر عرفات. إن قصة الوثيقة الفلسطينية التي ابتلعْتُها قد أضحكت المقاتلين، لذلك فتحتُ حقيبتي، مذعوراً، ورحت أتفقدُ جواز سفري، والدولارات.

عبرنا إلى الجهة الأخرى من البيت الأصفر، خلف بئر النور التي صمّمها المهندس المعماري. فبعد دورتيّ سلالم مهدمة، دخلتُ حصن القناصة، حيث لم يكن أي جدار من عمارة بركات قد صمد في الحرب، لكن هنا، في هذه الغرفة المحصنة بجهد الميليشيويين، فلا أثر للحرب. لم يكن هناك صدمة، أو خدش، لا شيء لأنهم رفعوا جداراً عالياً

وسوراً من حجارة غليظة، ولم يكونوا ماهرين، لأن كتل الحجارة لم تُصَفَّف جيداً، وكانت تتقيأ ملاطها وصولاً إلى الأرض. في هذا التحصين، البالغ سمكه حوالى المترين، حفر المهندسون المعماريون الحربيون ثلاث كوات مستطيلة للرمي، تسمح بوضع السلاح فيها وكذلك الذخيرة. كانت البندقية تسدد في هذا المرمى المطل على نافذة قديمة، أو على ثغرة في الجدار تحيط بها أكياس الرمل، ولم يكن لأحد، من الشارع أن يشك بأن قاتلاً يقبع هناك.

حين وصلت، كان جوزيف ــ بطرس يلقم بندقيته، واكتسى وجهه سواد السناج.

ابتسم الكتائبي وهو يراني داخلاً:

ــ أهلاً وسهلاً!

اكتسبت أرضاً جديدة، وأسرةً جديدة.

أما هو فكان مستحكماً عند الحائط الذي يسمح بإطلاق الرصاص من سبع فتحات مختلفة. وكان يستطيع من موقعهما، هذا أن يمشط «طريق الشام». ثمة شِقّان في الأبواب، وهناك نافذتان ومحوران كذلك بالقرب من عمودي الشرفة. انحنى آتياً للقائي، وقد تغير مظهره، كان مبتسماً، وأقرب إلى الأناقة، فاستند بمرفقيه إلى الجدار المقابل، ورأسه على حافة كوة المرمى، كما كان هناك قناصان آخران.

ــ أقدم لك كيم وروبير.

وبعد أن صافحتهما قال:

ــ غداً، سيأخذ كل من طرزان وكاتول مواقعهما. كما سيأخذ بيغين موقعي.

ـ بيغين؟ كما الإسرائيلي؟

كتب بيغين على جدار الممر: «أريد قول الحقيقة، ستطير روحي بعد دقيقة».

قال روبير ممازحاً:

ـ أجل. وطرزان شأن القرد.

في الغرفة المَحمية، لم يكونوا سوى ثلاثة. كان هناك زجاجات ماء على الأرض وتَرْمُس القهوة، في حين كان الغسق يختلج في الخارج؛ إنها الساعة القاسية.

ـ لفرنسا جوانب حسنة، كما تعرف! هذا منشأه بلدك، هذا...

كان المسيحي يريني بندقيته من الخشب الأشقر، مع نظّارة للتصويب.

ـ أعرّفُكَ بصديقي الرشاش FR-F1 بسيبة، وقبضة، يُسدِد في الظلام، يمتاز بكل الرفاهية الحديثة، وهو دقيق الإصابة على بعد ٨٠٠ مترٍ. وبفضل هذه الدقة أنتظر وأراقب الآتي.

رجع إلى فتحة نافذته، حيث كان الآخران يترقبان الظلام.

ـ إذن، ستصغي إليَّ جيداً، جورج. جورج، أليس هذا اسمك؟

هززت رأسي بالإيجاب.

ضرب فخذه بيده، شأن من ينادي على كلب.

ـ مكانك، إنه هنا. عند قدميَّ، ستبقى جالساً، وظهرك إلى الحائط. أتوافق؟

ـ وهل لي الخيار؟

سُمِعَ صوت النابض، وكذلك الرصاصات المنزلقة في مخزن البندقية.

ـ ليس لك الخيار حقاً، لكنني سأشرح لك. أريد أن تضع ذراعك وكتفك على ساقي، أريد أن أحسهما طوال الوقت. هل تفهم؟

ـ لماذا؟

ـ هذا شيء يخصني. أريد أن أشعر بالحياة بالقرب مني.

قال كيم دون أن يلتفت:

ـ هذا مكاني في أغلب الأحيان.

سُمع صوت مغلاق البندقية، فأعطاني قطناً أسد به أذنيَّ.

ـ هناك شيء آخر، إنني أطلق الرصاص، وأنت تسكت. لا تسألني شيئاً، كما لا تسأل الآخرين، وخصوصاً إذا كان الشخص في الحضيض.

ـ هل أكون على اليمين أم على اليسار؟

ـ إذا أردت أن تبلع مظاريف رصاص حارقة، فكن على اليمين.

جلست متثاقلاً إلى يساره، فاقترب المسيحي مني، وضمني، فأحسست بحرارته.

ـ هل عندك كل ما يلزم؟ من الماء، ومن الصبر؟

ـ عندي كل شيء.

في أحد أركان الغرفة، كان هناك مصباح من الزجاج طُلي باللون الأزرق، وقد بَهت الضوء. نظرتُ إلى ظهور المحاربين الثابتين حيث هم، وأقدامهم متباعدة. اتكأت على شقيق شربل، واتكأ هو عليَّ، فتنفست بهدوء وأنا أفكر بمروان النائم في سيارته، وكذلك بإيمان التي تحلم خلف قضبان سجنها، وبقلب سام الذي يرسل إشارات على الشاشة في غرفته، وبلويز التي تشغل مكاني في السرير، وبأورور. كنت في بيروت، في أعماق الحرب. كل ذلك مرعب ومثير للدوار معاً.

لم أكن هنا لهذا الغرض، ولم تكن تلك هي المهمة التي انتدبني إليها سام. فكرت بمسدس الدرزي، وببندقية المسيحي، وكنت أعاشر المعدن، وليس القلب البشري.

أطلق روبر وكيم الرصاص معاً تقريباً، فكانت الصدمة قوية، ورددتِ الغرفة صدى الطلقات، كما ارتدت النار من الفرجة، وكذلك الدخان، والبارود، وطقطقت أغلفة الرصاص على البلاط وتدحرج واحد بالقرب من حذائي. كانت يتصاعد منها الدخان. لم يحدث حتى الآن مشاهدة قتال بهذا القرب، فقد رأيت المشاجرة، والعنف، والغضب، لكنني لم أرَ موت الناس. شعرت بساق المسيحي تتصلب، ثم ترتجف. يا إلهي! كان يرتجف وقد اجتازت رعشته جسمي، فأمسكت به بكل قواي، واحتويته، وبعد أن صفَّقتُ لفلسطين، التحقتُ بالمعسكر المواجه.

أطلق ثلاث طلقات بعنف جنوني، فضرب الارتداد كتفه، وجذعه، وساقيه، ورقبتي، وكتفي، وذراعي. اصطدم نحاس أغلفة الرصاص بالجدار. لم أضع القطن في أذنيَّ اللتين راحتا تطنان، فبدا الاستياء على وجهي، ولم يعد الهواء المفعم بالبارود الحامض صالحاً للتنفس. هدأت ساق القنَّاص، وعادت إلى صلابتها، وابتعد جوزيف ـ بطرس عني، فتركته يقرر المسافة بيننا. عاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي من ظلام وسكون، وكان آخرون في الخارج يُطلقون الرصاص، فاستشفيت واجهتنا في نظاراتهم، والليل يرخي سدوله. لم نعد إلَّا أشباحاً تداعبنا زرقة المصباح الخافت، ورحت أتساءل عما كان يرى القناصون المحيطون بي. هل هو مصباح سيارة؟ أم ستارة

لم تُغلق جيداً تكشف صالوناً. أكانت سيجارة رعناء تنتقل من يدٍ إلى أخرى؟

كان ذلك مرعباً، ومؤثراً، فقلت في نفسي إنني عشت في خمسة أيام أكثر مما عشت طوال حياتي بكاملها، ولا تساوي، على الإطلاق قبلة من لويز الطفلة الفلسطينية، وهي تستذكر كلمات شاعرٍ رافعةً قبضتها. هززت رأسي، هززته حقاً لأطرد ما كان يحتوي، وخجلت من نفسي. فأنا أستطيع أن أعود إلى بلدي غداً، أترك كل ذلك، وأعود بسلام، وبسرعة. إذ إنّ بسمة من لويز، ومداعبة من أورور تشكلان كل ما يبقيني حياً في العالم. رحت أردد ذلك مراراً، ولم أعد واثقاً منه كثيراً. حينذاك انتابني الخوف، حقاً، وللمرة الأولى منذ وطأت أقدامي هنا. لم أخف من الرجال الذين يَقتلون، ولا من هؤلاء الذين يموتون، بل خفت من نفسي.

ــ جورج؟

رفعت رأسي.

ــ هل تعرف فيكتور هوغو؟

فغرت فاهي دهشة، فصوَّب الكتائبي سلاحه، ونظره تائه في غروب النهار، وقد لصق على أخمص البندقية من كتاب صلاة، صورة العذراء، بوشاحها الأزرق، ويداها المضمومتين، بين الألم والغبطة.

ــ هل تعرفه؟

ضغطت بمرفقي على فخذه، بلطف، لأقول له نعم.

ألقى القاتل بالأبيات: «غداً، عند الفجر، حين يبْيَضُّ الريف، سأرحل. وكما ترين، أعرف أنك تنتظرينني...».

لقد ارتجفت بدوري، ولم أتمالك قواي الجسدية، فبكيت. لا يهم، فقد شعرت هذه المرة برجله تأتي لمساعدتي. كنت أعرف أن خلجاتي تشع فيه، وأن دموعي الخفية تصعد إلى ذراعه، وإلى يده، وإلى إصبعه الموضوع على واقية الزناد.

سأذهب عبر الغابة، سأذهب عن طريق الجبل.
ليس في استطاعتي أن أبقى بعيداً عنك أكثر من ذلك.
سأمشي وعيناي مثبتتان على أفكاري،
دون أن أرى شيئاً في الخارج،
دون أن أسمع أي صوت، وأنا وحدي، لا أحد يعرفني،
بظهري المحني، وبيديَّ المضمومتين،
يغمرني الحزن، فيصبح النهار بالنسبة إليَّ شأن الليل...

ثم أطلق طلقتين، وتلتهما طلقة ثالثة فوراً. لم أرتجف هذه المرة، ومن دون أن أشعر بحدوث شيء. كان جسمه متصلباً من الحرب، ولم تؤثر فيه دموعي، ولا جمال أورور، ولا رهافة لويز، ولا هلعي. أطلق رصاصاته على المدينة، وعلى نفحة الهواء، أطلقها على بريق الأمل، وعلى حزن الناس، أطلقها عليَّ، وعلينا كلنا، أطلقها على ذهب المساء الذي يرخي سدوله، وعلى حزمة شجرة البهشية وعلى الخلنج المزهر.

١٣

نبيل، نمر، حسين وخديجة

في اليوم التالي، أجلسني مروان بأبهة إلى جانبه، على المقعد الأمامي لسيارة المرسيدس، وهذا يعني أن النزهة ستكون هادئة. كان يسير وهو يتمتم بين شفتيه أغاني فريد الأطرش. انطلقنا في نهاية الليل، لنجتاز صيدا عند الفجر. لم يكن مروان يحب جنوبي لبنان، لكنه يحترمه، وحين اشتعلت بيروت، غالباً ما كان الدروز والشيعة يجدون أنفسهم متساندين. وهذا التحالف قد يتغيّرموضعياً في الليل، بسبب مكان في موقف السيارات، أو من نظرة مواربة، لكن القادة كانوا قادرين على الإمساك وضبط تصرفات فرقهم. حين خرجنا من صيدا، سلكنا طريق النبطية، في قلب مملكة الشيعة حيث حراس كريون يعيشون هناك، وكذلك أوريديس؛ إذ إننا لا نزال في لبنان، وفي إيران بعض الشيء؛ فحركة أمل الإسلامية، الشيعية، والأكثر تديّناً من حركة أمل التي تقول عنها إنها فاسدة، تريد إقامة جمهورية يقودها ملالي في بلد الأرز. راح مروان يروي ذلك، وهو يضرب صدغه بسبابته، وكان والد ممثلينا الثلاثة الزعيم الديني لهذه الحركة في النبطية؛ فمن دون موافقته، لا يستطيع الشبان أن يقوموا بأي شيء، لا سيما الظهور في مسرحية. فمنذ أشهر، كانت نسخة لمسرحية أنتيغون بين أيدي رجال الدين لدراستها، وكنا نأمل

أن يعطونا موافقتهم مواجهة. لم يكن مروان يؤمن أنهم سيباركون، لذلك راح يردّد أن هذه الرحلة ستكون الأخيرة على الأغلب، وأنّ رفضهم سيدق معلناً ساعة رحيلي.

وهذا ما فكر فيه أيضاً بالنسبة إلى الكتائب. وحين رجعت إلى الخط الفاصل، خارجاً من البيت الأصفر، استقبلني وقد بدت الخيبة على وجهه لأنه كان قد تنبأ بهزيمتي، فبقيت ذراعاه متدليتين، وفمه فاغراً: لقد وافق جوزيف ـ بطرس ضاحكاً وهو يقول:

ـ إنك تُقدم لأخي الصغير أن يدفُن فلسطينية وهي حيّة؟

وافقت القوات اللبنانية على خفض الحراسة، أربع ساعات هذا الاسبوع للاتصال بالممثلين وثلاث ساعات يوم الجمعة في أول تشرين الأول من عام ١٩٨٢، وهو اليوم الوحيد للعرض الذي يصادف فيه عيد القديسة تيريزا ـ الطفل يسوع. فظن المسيحيون أن ذاك الاختيار قد تم لأجلهم، وقد يكون وقف إطلاق النار محلياً فقط، متمركزاً حول عمارة بركات. لم يكن الأمر هدنة عسكرية، ولا فعلاً سياسياً، وإنما مجرّد بادرة إنسانية.

شرح لي جوزيف ـ بطرس ذلك قائلاً:

ـ كما يسمح للعتالة بالمرور بعد المعركة.

لم يكن في وسع المسيحي أن يمنع ساعتين من الرحمة. لقد قرأ أنتيغون، ووجد أن تصميم الشابة على الموت مدعاة للضحك، وعبثيّ، بلا هدف ولا سبب. قال إنّ عنادها الأعمى قد انتصب ليواجه الحس العام، ولذلك رحَّب بأن يمثل أخوه الشاب دور كريون القادر، وهو

الذي يحكم المدينة، ويخشاه شعبه، ويعمل لمصلحة الجميع، ويبقى رافعاً رأسه، وينجو من العار.

أجبته قائلاً:

ــ إن الأمر إلى حد ما أكثر تعقيداً من ذلك.

نظر إليَّ الميليشيوي وهو يبتسم.

ــ إن هذه القراءة تروق لي، وأود أن تلائمك كذلك.

حين عدنا إلى «الغربية»، لم يكفّ مروان عن التمتمة بالعربية. لم تُحَيِّ أية طلقة رحيلنا، وكذلك لم تَستَقبلْ عودتنا. صارت السيارة الحمراء علماً أبيض، كأن كل المقتلين الموجودين على طرفي الخط قد اتفقوا على عدم إطلاق النار علينا.

في المساء، بدا الدرزي مستاءً، وكان المزاح مستمراً، بل وأكثر من ذلك، حين اتخذ هذا المزاح شكل الفلسطينيين والمسيحيين. وفي اعتقادي أنه كان يعتمد على الشيعة كي تعود أنتيغون إلى بلدها على أول طائرة.

لم أكن قد رأيت من لبنان سوى المدينة. بغتة، وفي سفح الهضاب الجافة، وأشجار الزيتون، وأحراش الصنوبر على مرمى النظر، فكرت أنه كان علينا أن نغادر بيروت إلى مكان آخر لنمثل أنتيغون، وأن نقدم لهذه المُتمردة شيئاً آخر غير السينما المتهدمة، ونعني جمال هذه الأرض، وكدَرَ هذه السماء، ومن الأفضل التمثيل تحت نجوم الخريف من التمثيل أمام أناس مُحطمين.

سألني مروان:

ـ هذا جميل، أليس كذلك؟

كان يقرأ صمتي، وقال لي إن الشوف كان مؤثراً بجماله أكثر من ذلك، بسبب الشلالات، والجبال، والأرز، ونساء بلدة عاليه ورجالها الذين قدّت قلوبهم من صخر وعسل، فاستسلمت لهذه الروعة وأنا أنظر من الزجاج، لأننا تركنا الحرب في الجهة الأخرى. تخيلتُ أورور ولويز تهبطان تلك الهضبة وهما تضحكان. وكم كنت أود أن تكونا هنا، معي في السيارة، للحظة فقط، بسرعة تكفي لرؤية البحيرة الصغيرة، والطفل فوق ظهر حماره والذي رفع يده، وكذلك الرجل العجوز الجالس على حافة الطريق، أن تحضرا بسرعة النسر الملكي.

وصلنا إلى النبطية مع بزوغ شمس الشتاء، فأرشدنا رجال حركة أمل الإسلامية إلى الطريق في المدينة وحتى الضواحي الشرقية. هناك بيت منخفض، تغطيه أكياس من الرمل. ومرة أخرى، اتفقنا على أن يبقى مروان بالقرب من السيارة، إذ غالباً ما أقلقتني وحدته، لكنه كان يجيبني أنه يُفضل الصمت على بعض اللقاءات. وبمجرد أن أغادره إلى مواعيدي، حتى يقبع خلف المقود، يقرأ أو ينام، أو يصغي إلى الراديو ساعات وساعات. كانت سيارته بيتاً آخر له، يحمل معه الماء والخبز والقهوة، ويمكنه أن يصمد أمام حصار دون أن يترك مقوده من يديه.

شرح لي مروان قائلاً:

ـ سيستقبلك الشيخ مُعَمَّر الصادق، أبو ممثليك، وسيكون العم هناك أيضاً.

طلب مني أن أخلع حذائيَّ على العتبة، وألَّا أمد يدي قبل الآخرين، وألَّا أنظر إليه في العينين، وألَّا أطرح أي سؤال ولكن أجيب على

أسئلتهم. إنني (حَرَام) أي نجس وعليَّ ألَّا أدنِّسَه. مرة أخرى، راحت الخشية تُضيِّق خناقي. كان عليَّ أن أؤدي دوري، وأن أهدئ نفسي، خصوصاً أنني كنت أسَلِّم رسالة لم تكن تخصني، وأدافع عن مشروع لم أطلقه، لكنني كنت أنفذ الأماني الأخيرة لرجل يحتضر. فمن أجله: من أجل ذاك الرجل، والصديق، والأخ كنت مستعداً لأن أجازف بكل شيء.

خلعت حذائيَّ. وعند الباب، كان رجلان ملتحيان، وقد تسلحا ببندقيتين حربيتين، ويرتديان جلابية بيضاء ويعتمران طاقية التقاة، بوجهين عابسين. فتشني أحدهُما، تحت الذراعين، والكُمَّين، والحزام، والظهر، والبطن، والعضو التناسلي، والفخذين، والساقين، ثم الكاحلين، وأسفل القدمين ولم ينس شيئاً. أدرت ظهري إلى المنزل، ويداي مرفوعتان حيث كان مروان يتمطى، في سيارته، وقد باعد بين ذراعيه، فشعرت برغبة انتابتني في الابتسام، مع أنه لم يكن يعيرني أية نظرة.

كانت الغرفة صغيرة، مغطاة بالسجاد وبالوسائد، ولم يكن فيها طاولة أو كرسي، لكن ثمة نافذة قد سدتها ستارة خضراء. على الحائط، ثبّتت سورة قرآنية في إطار مذهّب وسجادة عليها صورة مكة، وصورة عراقية لضريح الإمام علي، في النجف. دخل حارس يحمل أريكة حديقة وضعها أمام النافذة التي تسمح بالرؤية من الداخل فقط، ثم انتظرتُ. مضت ساعة أو ساعتان، لست أدري، كنت متربعاً، ثم شبه ممدّدٍ بسبب ركبتي التي تؤلمني. وحين دخل الشيخ، أنهضني الرجل الملتحي بإيماءة منه. وصل ثلاثة آخرون يتبعونه، وكان هناك شابان

بنظرات قاتمة ورجل ضخم جالساً على الأرض، عند زاوية الجدار.
جلس عالم الدين على الأريكة، وقد بدا عجوزاً بلغ من العمر عتيّه، يتعكز على عصا، وقد أدار لي ظهره قائلاً:

ـ أنت هنا لأنني تمنيتُ ذلك.

أصابتني قشعريرة. كان يحدثني بإنكليزية ركيكة، وموجهاً كلامه صوب الحائط.

ـ مع أخي حسن ـ رضَي الله عنه ـ تحدثنا مطولاً عن مسرحيتك.
راقبت الرجل الضخم الذي راح يهزّ رأسه.

ـ إنه ضد هذا المشروع، ويظن أن ممثلاً يشبه بعمله ما يفعل الكفرة؛ فتمثيل دور ما يعني الكذب، وذلك مرتبط بالخطيئة، كما يعتقد أن من يُقلد مجموعة يُعتَبَر كأنه يُشكل جزءاً من تلك المجموعة.

كان حسن يراقبني، ولم يَظْهَر أي تعبير على وجهه، بل سَمِع ما قاله أخوه وأصغى إلى نظرتي كونه كان يبحث عن رد في أعماقي.

ـ لم أقرأ مسرحيتك، لكن نبيل، ابني البكر، قد قرأها لي. قال لي إنها، تخلو من النميمة، وإنها لا تُمثل النبي ـ صلىَّ الله عليه وسلَّم، ولا الرسل. وهي تحترم صحابته العظام، كما أنها لا تُهين الإسلام، ولا تُخفي عرياً، أو مسبة، أو أي رجس آخر.

أخرج الشيخ منديلاً من كمه، مسح به عينيه.

ـ قال لي أبنائي إن دورهم كحرس هو الإحاطة برئيسهم وحمايته كأب وفرض احترام سلطته. شرحوا لي أن امرأة شابة تتحداه، ومن خلاله، تستخف بالقانون الإلهي، وأن هذا الخليفة المستنير يضع حداً لتلك الغطرسة.

سكت الرجل العجوز، والتفتَ قليلاً نحوي، وهو ينظر إلى الأرض.

ـ الأمر هكذا، أليس كذلك؟

راقبت حسان، والحرس، لكن عبثاً، فلم يساعدني أحد.

ـ أليس كذلك؟

شجعني أخوه بحركة من رأسه، فأجبته بصوت خافت قائلاً:

ـ هكذا بالضبط، يا شيخ مُعَمَر الصادق.

ساد صمت، بعدها استدار نحو الحائط. سُرِقَت أنتيغون من بعضهم، كما سرقها آخرون، وأنا أهز رأسي موافقاً دون شجاعة.

ـ وماذا عن دور المرأة العجوز؟ لماذا تحوك الصوف؟

كان عليَّ أن أجيب بسرعة، مركِّزاً أفكاري.

ـ إنها زوجة الخليفة، وهي في غاية التُقى، تُمضي حياتها بحياكة الملابس الصوفية لتدفئ فقراء المدينة.

عمَّ الصمت ثانية.

تمتم رجل الدين:

ـ إنها تؤدي الزكاة.

عاد الصمت من جديد.

ـ رضي الله عنها.

انتابتني في بداية الحديث الرغبة في الضحك؛ فهذا الرجل الذي يوجه حديثه إلى الستارة، والآخرون الذين يشمونني شأن رهط من الكلاب تشم أيلاً، ثم فولاذ الأسلحة، والصوت العذب، والكلمات المنمقة؛ كل ذلك جعلني هادئاً إلى حدّ ما، وقد أخفيت يديَّ تحت

فخذيَّ. فبعد أن أعاد المسيحيون النظر في مسرحية أنويْ، غيَّر الشيعة أنويْ، وغدا كريون عجوزاً أتعبته الحرب، فهو لا يريد لشعبه إلَّا السلام. ولم يكن يهمه في النهاية سوى إنقاذ ابنة أخته، مع أنه كان يقوم بعمل قذر كي يَبقى القانون قوياً ومحترماً؛ فقد أصبح قائداً كتائبياً في جهة من الخط، وخليفة مستنيراً في الجهة الأخرى. كان ثمة موسيقا غريبة تعصف في رأسي، وشيء ما بين الفخ والخيانة، في الوقت الذي لم يفارقني الحرس بعيونهم، بل كانوا واقفين أمام الحائط. راح حسن يُصلي، أو يمضي وقته وهو يرخي حبّات سوداء من سبحته، مما دفعني للتفكير بشارل موراس. هنا، في هذه الغرفة المُثقلة بالإيمان، كان سام قد أعارني نصاً لموراس الذي يرى أن أنتيغون فتاة خاضعة، تُطيع القوانين التي تتفق مع إرادة الله، والناس والمدينة. «من انتهك هذه القوانين، ومن تحداها كلها؟ إنه كريون!»، وهذا ما كتبه موراس عام ١٩٤٨. فبالنسبة إليه، لم يكن حكم كريون عادلاً، لأن زيوس لم يُقره، لذلك نجد في كتابة موراس أن أنتيغون لم تكن إلَّا «الأم ــ البتول للنظام». وماذا عن كريون؟ «إنه يمثل صاحب النزعة الفوضوية! هو! ولا أحد غيره!».

كان سام يضحك من هذا النص، كما كان يثير حفيظته أيضاً؛ فموراس نصب تمثالاً لسوفوكليس، وأكونيس رفع هيكلاً لأنويْ.

كان صديقي يقول:

ــ إن هذه التباينات هي التي تولد اليسار واليمين. وهو إلى جانب تلك القراءات المتضاربة التي تثيرها هذه المأساة، يجد أن السياسة والاقتصاد لا يتحدثان إلَّا قليلاً جداً عن اختلافاتنا. وها أنا جالس

على سجادة صلاة، في الطرف الآخر من العالم، بثقب في جرابي يزعجني، أهز رأسي بورع موافقاً على أن أنتيغون مصابة بالهستيريا، يقاومها، لحسن الحظ، حاكم عاقل.

ضرب الشيخ الأرض بعصاه، فرفعه أخوه، ولم ينظر إليَّ.

ــ إن اختيار يوم الجمعة لتمثيليتكم هو شيء حسن.

ثم خرج من الغرفة، وهو يجر ساقه كشأني، فوجدت نفسي وحيداً، واقفاً، وقد نمّلت قدماي ووصل الألم حتى الحوض. كان الممر قفراً، وباب المدخل مفتوحاً على مصراعيه، وفي الحديقة، جلس الشبان الثلاثة على جدار صغير ينتظرون، كما كانت هناك امرأة عجوز، تتشح بالسواد. ابتسم لي أكبر الصبية، بسمة رائعة، ومؤثرة. إنه فرح المنتصر فتقدم نحوي، ويداه مبسوطتان.

ــ نهارك سعيد يا جورج. أنا نبيل، الحارس والرسول.

ترددت، وكدت أرتمي بين ذراعيه. كان شاباً جميلاً في الخامسة والعشرين، ربما، يلبس بنطالاً من الجينز وقميصاً يلتصق بجسمه، ثم أخذ أخاه من يده وقال:

ــ وهذا نِمْر، الذي سيكون الحاجب.

تقدم الثالث، ويداه مبسوطتان شأن الآخرَين.

ــ أنا حسين، لست سوى حارس، لكنني هنا مع ذلك.

كان أصغرهم، هو الذي قام بالبادرة، فضمني إليه، وراح يضحك، وكذلك أخواه، فأقمنا حلقة فرحة على أبواب الضريح الحزين.

ــ أهلاً وسهلاً!

كان ذلك مثيراً للدوار، فقد اكتسبت أرضاً جديدة وأسرة جديدة،

وثمة أناس، يوماً بعد يوم، يقدمون لي جزءاً من بلدهم.

خرج مروان من سيارته، وراح يبتسم وقد استند إلى الباب. لقد أقنع الفرنسي اللعين وجيهاً شيعياً، ولم يشك في أنني قد سلكت، أنا، الطريق المعاكس.

تمتم نبيل وهو يعرفني بالمرأة:

ــ خديجة.

أوشكت أن أمُدَّ يدي، وكدت أن أعانقها أيضاً، فأوقف حسين بادرتي. ومن الجهة الأخرى للشارع، أخذ مروان رأسه بين يديه.

كنا في ١٨ شباط من عام ١٩٨٢ وقد حددتُ موعد اللقاء في ٢٤ منه، أي عشية رحيلي. قَبِلَ الكتائبيون، والفلسطينيون والشيعة أن يتم لقاؤنا من الساعة الثامنة حتى الظهر، في سينما «الشقيف»، على الخط الفاصل.

ذهبتُ إلى السيارة وأنا شبه راكضٍ، أستدير ثلاث مرات لأحيِّي مضيفيَّ، رافعاً ذراعيَّ، في حين راحت المرأة العجوز تنظر إليَّ، وهي تمسك منديلها بيدها تحت عينيها، وفي الطابق الأول، كان شخص يراقب رحيلي.

قلت، وأنا أجلس في السيارة المُلَمَّعة:

ــ لم يبقَ إلّا إقناع الممثل الدرزي.

ردد مروان قائلاً:

ــ الممثل الدرزي؟

ــ هل تعرف أين يمكن أن نجده؟

انطلق بسيارته وهو يبتسم.

ــ ابني؟ إنه في البيت كما آمل.

١٤

هيمون

كنت أراقب مروان، خلسة، وجانبياً في كل مرة يقود السيارة، لكنه، هذه المرة، لم يكن يخشى الرصاص ولا القنابل. فهو ليس في طريق مميت أو في زاروب معادٍ، بل إنه في موطنه، أمير درزي، لذلك راح يُدخن وقد أمسك سيجارته بين إصبعه الوسطى وبنصره، وكانت زوجته حاضرة لكنني أعرف اسمها فقدمها لي قائلاً:

ـ زوجتي.

كانت تروح وتغدو حاملة الحلوى، والشاي والقهوة البيضاء.

دعا مضيفي بعض الأصدقاء، كانوا عشرة، فجلسوا على شكل حلقة في غرفة الاستقبال، على الأريكة، وعلى بعض الكراسي، أو على الوسائد الموضوعة على سجادة أرضية، وقد لفّ معظمهم السواد، وقبعاتهم البيض على رؤوسهم. فالإسلام يعتبر هؤلاء لديهم معتقداتهم الخاصة في ما يتعلق بالنبوة والشريعة، لأن ديانتهم لا تفرض طقوساً خاصة فيما يتعلق بالصلاة ومكان العبادة.

ترك لي مروان مقعده وانتظر أن يأتي مدعوّوه، وقد عانق الواحد تلو الآخر على العتبة، ثم نهض واقفاً. تحدث بالعربية قائلاً بضع كلمات جدّية وعيناه عابستان. لم يطرح أي سؤال، كما لم ينتظر جواباً، لأن زمام الأمور كان بيده، وهو يعلم ما يجب قوله.

جلس بعد ذلك، ودخل نكد، مرهفاً وأنيقاً.

كان يلبس سروالاً تقليدياً فضي اللون، وبنطالاً قصيراً يغطي فخذيه، وطربوشاً التفت حوله عمامة بيضاء. تقدم في وسط الغرفة، فنظر إلينا، بدهشة، كما لو كان يكتشف وجودنا؛ وقف أمام والده، وانحنى، وعيناه تنتقلان منه إليَّ.

قال نكد:

ـ إنني هيمون.

كان الدرزي على وشك أن يلقي جمل نصه الأولى، فخفض رأسه، ثم رفعه، سعل، وأخذ نفساً عميقاً.

ـ أنت تعرفين تمام المعرفة أنني سامحتُك، بمجرد أن صفقْتِ الباب وأنت تخرجين، فممن سرقتِ هذا العطر؟

نهضتُ بغتة، وأجبتُ:

ـ من إزمين.

فوجئ الشاب، ثم ابتسم وتابع إلقاءه.

ـ وأحمر الشفاه، ومسحوق الزينة، والثوب الجميل؟

ـ منها أيضاً.

ـ ما هي المناسبة التي جعلتك تتجملين هكذا؟

كنت أمامه، كان عليه أن يضم أنتيغون، أي أن يعانقني. لقد أرشدتُه، ففتح ذراعيه اللتين احتميت بينهما. بعد ذلك، سُمِعَت تمتمة في الغرفة، وقال مروان شيئاً بالعربية، فجمد نكد.

ـ شرح أبي للآخرين أنك تؤدي دور المرأة.

هززت له رأسي.

ــ لا تهتم بذلك، تابع إلقاء نصك.

أخذ نفساً وقال:

ــ ما هي المناسبة التي جعلتك تتجملين هكذا؟

ــ سأقوله لك. أواه! يا عزيزي، يا لحماقتي! أضعتُ أمسية كاملة، أمسية رائعة...

راح مروان يترجم لمدعويه. كان منزعجاً، فابنه يضم رجلاً، غريباً تحت سقفه.

ــ ستكون لنا أمسيات أخرى، يا أنتيغون.

ــ قد لا تكون.

تخلصت من بين ذراعيه ببطء، بقي نكد بذراعيه المتباعدتين، أما أنا، فقد صفّقت. لقد قمت بجولة في الغرفة، وأنا أصفق بيديَّ، وأنظر إلى كل واحد من مدعوّي مروان. وقف الجميع، مروان أولاً ليحث الآخرين، ثم وقف رفاقه، وبقيت زوجته خلف الباب، واختبأ الأولاد. لم يكن نكد يُجيد إلقاء دوره، لكنّه كان يعرفه، فصافحته كأنني أردت أن أنسيه عناقنا.

ــ حفظت دورك عن ظهر قلب؟

ابتعد ثلاث خطوات.

ــ أنتيغون! أنتيغون! النجدة!

ثم خلع غطاء رأسه.

ــ أليست هذه آخر جملة أقولها؟

هززت رأسي. فبعد أنتيغون، وجِد هيمون.

لم يكن مروان يفهم جدوى هذه المسرحية لكنه أهداها ابنَه، فتأثرت بالغ التأثير من هذا الاكتشاف. لقد كان صديقي واقفاً وظهره نحوي، وراح يشرح لمدعوّيه أن امرأة ستمثل دوري؛ إذن ستكون هذه القبلة طبيعية، وأن ابنه يمثل دور عاشقٍ، ومقدامٍ، ونبيلٍ فضّل الموت مع خطيبته على العيش من دونها. كان هيمون مناضلاً، ومقاوماً يجابه طاغية يظلم شعبه. شرح أن نكد يؤدي أجمل أدوار المسرحية وأعظمها، وأنه يمثل القدوة، والأمل، والحياة؛ فهو يموت في هذه المسرحية حباً بالحرية وبالعدالة، وكذلك حباً بامرأة، جميلة بجمال جبالهم. قال إن ابنه يمثل الدرزي، فهو الوحيد من بين الجميع الذي له روح وقلب يخفق، مما دفعني لأن أضع يدي على كتفه.

١٥

سيمونّ

كنت أول الواصلين إلى المسرح، يوم الأربعاء في ٢٤ شباط من عام ١٩٨٢، في الساعة السابعة صباحاً. أمامي ستون دقيقة،قبل وقف إطلاق النار،والرينغ خال، والمتقاتلون نائمون. لقد قاد مروان سيارته بغضب، من دون أن ينبس ببنت شفة، وقد رجاني ألّا أستهتر بالاتفاق؛ أقسَمَ بأن البنادق لا تصمت قبل الساعة المُتَفق عليها، لكنني كنت بحاجة إلى هذا الفجر السرّي، كي أدخل وحدي إلى الصالة، وأن أمشي وحدي على مسرحها، وأن أقوم وحدي بتجارب صوتية؛ لذا وافق على أن يصحبني.

طلب مني مروان، ونحن على بعد مئة مترٍ من مفرق «السوديكو» أن أترجّل من السيارة، وتركني هناك، في طرف خط التماس حيث كان الشارع قفراً، ودخل زمن الأنقاض؛ فالبنايات رمادية على مرمى النظر، وقد دمرتها طلقات المدافع الرشاشة، والعوارض تبدو معوجة، وكذلك الهضاب من الإسمنت التي غزتها الأعشاب. تركني ويداي مرفوعتان، وقطعة قماش أبيض قد رُبِطت على شكل شريطة حول ذراعي.

بعد ثلاث خطوات، تسمرت في مكاني، ودوّى، بغتة، صوت خلفي، ثم صوت آخر، أمامي مباشرة. راح الصدى يردد أصوات

الرجال، وثمة تهديد يكمن في صمت الحجارة. طلع النهار، فوجدت نفسي في مرمى جوزيف ــ بطرس، وفي حدقة رجل الميليشيا المتمركز فوق سطح برج رزق، كما كنت ضمن دائرة الرؤية للمنظار الشيعي الرابض في شارع دمشق، وأنا على دراية بأنَّ أصابعَ هؤلاء تتردد، وهي تداعب قطعة فولاذ الزناد المعكوف. لم أشعر بأنني عرضة للموت، هكذا، كما هي حالتي اليوم. مشيتُ، رافع الرأس، فاغر الفاه، شأن المستسلم، وتابعت متعثر الخطى بجوّ الحرب. رحتُ أرقب النوافذ، وأعبر فوق النتوءات التي برتها الشظايا الفولاذية. تقدمت خطوة فخطوة فوق الزجاج المفتّت، فاختفى نَفَسي، ورحت أجيل النظر إلى واجهة سينما «بوفور» الشبيهة بمشهد قمري، في جهة الشارع المقابلة. كنت أكابد من دون أن أظهِر خوفاً أو عداءً من تلك الأشباح الواهنة التي يصيب الملل بنادقها.

دخلت المبنى من الجهة الغربية للخط الفاصل. كل شيء مُهدَّمٌ ورائع، وليس ثمة باب، إنما ثغرة في الواجهة تسبَّبت بفتحها قذيفة صاروخية، ولافتة متدلية فوق الأرض منعتها أسلاك كهربائية متقطعة من السقوط، وهناك ثلاثة جدران متبقية، بعد أن انهار الرابع جراء انفجار اقتلع السقف عن بكرة أبيه. كان المشهد شبيهاً بحلبة في العراء أو مسرح مفتوح للأسود، وطلقات الرصاصات تستطيع شق طريقها لتصيب الممثلين في القلب. ثمة أربعة صفوف من الأرائك ظلت بمنأى عن النار؛ أرائك من المخمل لطخها غبار الإسمنت، أما بقية المقاعد فقد سحقتها العوارض، فتشقَّقت الشاشة، لكن الديكور باقِ هناك، كما وعدني سام، شاخصاً في زاوية ميتة من المسرح.

قال لي سام:

ــ حين تراه، ستهتز من الأعماق.

لم يكذب عليَّ. ضاق نفسي، وخذلتني ساقي، فجلست فوق كومة من الأنقاض لأتأمله: انتصبت ثلاثة أعمدة من الطراز الكورنتي على قواعدها، تعلوها تيجان نُحتتْ على شكل أوراق نبتة الأقَنثة، صنعت من الجص، وطُليت باللون الوردي المعتق محاكاة للرخام السماقي، وقد ضلَّعها مهندس الديكور بعناية ونحتَ على الجسر إفريزاً بأشكال نباتية وخرَّب زخرف الواجهة فبانت وكأنها تآكلت بفعل الزمن.

كان اليوناني مبتسماً حين قال:

ــ سترى، إنه معبد زيوس.

ثمة عمود رابع مطروح أرضاً، كُسرَ عمداً، وقد ألقي بشكل عشوائي فوق حفنة درجات تؤدي إلى باب «ترومبلوي» الذي رُسِم لخداع البصر.

كان سام قد أمضى ساعة في السينما، جالساً تقريباً في مكاني، من دون إذن الميليشيات، يتأمل رواق الأعمدة المنسوخ. لقد شرح له مروان سبب وجوده؛ ففي الأيام الأولى من الحرب الأهلية، كانت هناك فرقة قبرصية تتدرب على مسرحية «ليزيستراتا» لأريستوفان. إنها قصة حسناء أثينا التي اقترحت على أخواتها وعلى نساء أسبرطة أن يرفضن مضاجعة أزواجهن ما داموا يتحاربون. وحين تقاطعت أول الرصاصات الخطاطة فوق المبنى، كان العمال يثبِّتون الديكور الذي صُمم بشكل تُحاط فيه خشبة المسرح كلها بالأعمدة، لكن المعارك حالت دون إقامة العرض، وهرب من السينما، الممثلون ومهندس الديكور ومساعدوه،

تحت الرصاص. لم يرد المخرج ترك الأمكنة، شأن قبطان السفينة، فاضطر جنود لبنانيون أن يُخرجوه عنوة من المبنى، وروت الصحافة أنه قد أصبح شبه مجنون، إذ راح يتخبط، ويبكي غضباً، وحزناً، ويصرخ في الشارع مردداً كلمات ليزيستراتا: «لتوقفن الحرب، ارفضن مضاجعة أزواجكن!»، ونقل مراسل في جريدة لوريان لوجور، بأمانة، تلك العبارة. هذا كل ما سمعه أهل بيروت من المسرحية.

لم تكن للسينما نوافذ، فتكفلت القذائف برسم نوافذ حيثما طاب لها، كما فتحت أبواباً وحفرت مصطبات أيضاً. أما الديكور فقد نجا، بينما أصابت رصاصات من شتى الأعيرة الجدار الخلفي، وبعضها أحدث ثقوباً في الدرجات المصنوعة من الجص الرمادي، وتضرّر عمودان. انتصبتُ واقفاً ولمستُ العمود الأول الذي نثرت عليه آثار الشظايا قليلاً، ووضعتُ يدي على الأخاديد المثلجة، فأدركت أن ليزيستراتا قد قدّمتْ هذا الشموخ إلى كريون، وأن هذه الأعمدة، بدرجاتها الثلاث ستكون قصر كبريائه.

أخذت قلم الحبر خاصتي، وأمسكت بدفتر سام والذي كان قد طلب مني ألّا أناديه، أبداً، بل أراد أن أكاتبه، وأن أدوِّن كل شيء: انطباعاتي، مخاوفي، الأشياء الجميلة وكذلك الأشد قبحاً. لم يكن يريد صوتاً بعيداً يتناهى إلى مسمعه عبر الهاتف، لذا رحت أكتب.

ولتغطية هذا الديكور، يلزمني بساط أحمر، أي ستارة ذات ثنايا تُسدَل على الواجهة الخلفية بكاملها، من لوحات الواجهات حتى قواعد الأعمدة، فتُغطي جزءاً من المسرح وتنتهي عند أقدام الممثلين. سيكون هذا المكان موضع السلطة، وسيجد كريون، وأنتيغون،

وهيمون، وإسمين، وأوريديس، والحراس، كلهم، مكانهم هنا، وقد جلسوا على الدرجات، بلا حراك حين تُرفع الستارة، وتُسلط الأضواء وتُبهر الأنقاض.

في زاوية من المسرح، حفَرت قذيفة كل الركن، فاقتلعت الموكيت والأرضية الخشبية والخرسانية، ووصلت بعمقها إلى التراب الأحمر. إن تمدد هذا الخراب وانسيابه حتى المقاعد الأمامية، وهذا الركام الحزين، وقطعة الأرض الرملية تلك، ستكون موقع جريمة أنتيغون. وهناك عند أقدام المشاهدين، ستحفر قبرها، حين تقدم كفناً لأخيها الذي حلت عليه اللعنة.

كان نور النهار يتلصص عليّ، فوجهت ناظري نحو السماء، وكانت الساعة قرابة الثامنة حيث كنت متجمداً من البرد، فصعدت إلى المسرح من السلم المُهدم، ونظرت إلى الصالة، وإلى المقاعد القذرة، وكذلك إلى السقف المنهار على الأرض.

كان سام قد قال لي:

ـ يجب مع ذلك كنس المكان.

كنت أخالفه الرأي، لأنني أردت الحفاظ على بقايا هذا العالم، تصورت أنتيغون وقد عفَّرها الغبار، وكريون في قصره، تَعصف فيه الرياح.

وضعت على رأسي قلنسوة سام، الذي كان يريد أن تُمثل الجوقة ورؤوس عناصرها جميعها مغطاة، وذلك باسم كل أهله؛ أنا، وهو، لا يهم؛ يجب أن تختلط قلنسوة أبيه بالكوفية، وبالعمامة، وبالطربوش، وكذلك بالصليب، وبالهلال، لكي تكون سالونيك حاضرة هنا، هي أيضاً، في هذا المكان، في ذاك المساء، أمام الجميع.

كما قال لي أيضاً:

ــ ستكون اليهودي.

أجبته إنني لا أملك الشجاعة على ذلك، إذ لا يصير المرء يهودياً بفضل قبعة من المخمل.

ــ إنك تطرح أسئلة كثيرة جداً؛ فالشخصية المسرحية هي شخصية مسرحية. هكذا أرى الجوقة، وعليك أنت أن تجسدها.

سألته إيمان:

ــ دور الجوقة إلى حد ما هو الملاحظة. ألا تخشى أن يرى فيك الناس اليهودي الذي يُعلِّق على المؤامرة من الخارج؟

ــ هل تفضلين أن يَضبطَ إيقاعها من الداخل؟

لم أعرف مطلقاً ما حدث بينه وبينها، لكن شيئاً ما قد جرى. كان يتحدث عنها بانفعال، ويتَذكر ذلك بحزن، في صورة، كانت تنظر فيها إلى آلة التصوير، وهو يتأملها بحرارة. تلك الصورة نادرة، أَخِذَتْ داخل مسكن حيث كانت إيمان تُعطيه ذراعها وهي تضحك، ولم تكن ترتدي الحجاب.

ــ السيد صموئيل؟

دخلت امرأة غطى شعرها الشيب إلى الصالة عبر كسر في الحجر، وقد امتلأت يداها بالأكياس، في حين كانت ذراعها ملتفة بشريط أبيض.

رفعتُ بغته القلنسوة، مطبقاً يدي عليها.

ــ إنني سيمونّ، يا سيد صموئيل.

ـ أدعى جورج، يا سيدتي.

نظرت إليَّ بحذر.

ـ إذن، لستَ صموئيل.

أجبت بالنفي، شارحاً لها أنه مريض، فمدت لي يدها.

ـ عليك ألا تخجل من دينك؟ أليس كذلك؟

وضعت القلنسوة في جيبي. إنه من لوازم المسرح، هذا كل ما في الأمر.

راقبتني وهي تبتسم، ثم ألقت نظرة حولها.

كنت مرشدة للمقاعد في هذه السينما في عام ١٩٧٥.

كانت تضع صليباً ذهبياً وترتدي معطفاً رمادياً.

قالت لي:

ـ إن جوزيف ـ بطرس هو الذي أرسلني.

هززت رأسي.

ـ لقد أكد لي أن وجودي لن يضايقكم، يوم عرض المسرحية.

مرشدة مقاعد. فكرت بفيكتور هوغو يتلو شعرَه قاتلٌ، فكرت بعبثية الحرب، وكيف أننا سنمثل مسرحية أنويْ حيث تسحقنا الخرائب، مع مرشدة مقاعد تهتم بنا، تستقبلُ المُشَاهِد عند الباب، ترشدهُ إلى مكانه بين الأحجار المتهدمة، وعبوات الرصاص والزجاج المحطم.

سألتها قائلاً:

ـ ستكونين في المدخل الشرقي؟

ـ أجل، عند باب «السوديكو».

شرحت لي أنه يلزم شخص عند المدخل الغربي، ليحيِّي الناس الذين أتوا من المعسكر الآخر، كما أنها لا تستطيع أن تتكفل بذلك. بعد ذلك، وضعت أكياسها القطنية في أحد أركان الغرفة، وذهبت حيث يوجد المقعد الأول وغطته بقطعة من القماش، ثم جلستْ عليه من دون أن تنبس ببنت شفة، وقد حمتْ ساقيها من البرد بغطاء خفيف.

لا يستطيع الجمهور أن يحضر هذا الاجتماع، وهذا ما اتُّفق عليه مع المحاربين، إذ كان يحق لنا وحدنا، أنا والممثلون، الدخول إلى السينما. وحين نظرتُ إليها، ظهرتْ منها بادرة مرحة، فرفعتْ ذراعها وحرَّكتْ يدها، لتريني شريطها الأبيض، وهو يرمز إلى الالتقاء الذي يفرضه المعسكران.

ـ لا تقلق، إنهم يعرفون أنني هنا.

ثم فتحت حقيبتها وشربت جرعة ماء من عنق القنينة.

كان حضورها يزعجني ويُطمئنني في آن؛ فتلك المرأة في بيتها، وقد راحت تتصرف كصاحب المكان، لذا قررت أن أكون ضيفها. جلستُ على المقعد بالقرب منها، أمام خشبة المسرح البائسة، وأخرجتْ قطعة غريبة من القماش المطرز ببريق أزرق، وإبراً وخيطاً، حيث كان يُستَشَف طيف تائهتين في ضباب من جَمد الندى، واحدة أدارت لنا ظهرها، والثانية تنظر إلينا، بينما كان وجهها بقعة بيضاء.

سألتني سيمونّ قائلة:

ـ هل تعرف إيلي كنعان؟

كلا، لم أكن أعرفه.

شرحت لي دون أن تترك تطريزها قائلة:

ــ إنه واحد من أعظم رسامي بلدنا.

كانت تطرز بغرزة طويلة، تتيح للصوف رشاقة التصوير المائي.

ــ لقد استوحيت هذا الشكل من إحدى لوحاته؛ إنهما امرأتان تنتظران، لكنهما تنتظران ما لا أعرف.

ــ ما رأيك؟

كانت تغرز وتتابع العمل بشكل مرصوص، وهي ترفع نظارتيها اللتين كانتا تنزلقان أحياناً.

ــ ماذا تنتظرانِ؟ ما عدا الموت، لا أرى غير ذلك.

كان يمكن لسيمونّ أن تؤدي دور أوريديس بروعة وجمال، وهي منحنية فوق قطعة تطريزها، دون أن ترفع نظرها عن إطارها.

ــ لماذا الموت؟

ــ لأن لا أحد يترك الحياة بشكل مختلف.

راحت تطرز، وأنا أعيد قراءة أجوبة الجوقة.

ــ لقد خطف الموت مني حفيدي الذي كان في الدامور في شباط من عام ١٩٧٦.

رفعت عينيها قائلة:

ــ هل تعرف الدامور؟

هززت رأسي بالإيجاب.

ــ لكنك لا تعرفُ إيلي كنعان.

ــ صحيح، لا أعرفُه.

ــ ظننت، للحظة، أنك لا تعرف شيئاً عنّا.

ــ أعرف ما حدث في الدامور.

ـ كلا، لا تقل ذلك، فأنت لا تدري. لا أحد يعرف ما هي المذبحة. لا يتحدثون إلّا عن دماء الموتى، ولا أحد يروي البتة ضحك القتلة. لا أحد يرى عيونهم حين يقتلون، ولا أحد يسمعهم يتغنون بالنصر في طريق عودتهم. لا أحد يتحدث عن زوجاتهم، اللواتي يلوِّحْن بقمصانهم الملوثة بالدماء من سطح إلى سطح شأنها شأن الرايات.

كانت سيمونّ تطرز اللون الأزرق بصبر، وتعمل بدأب في الطرف العلوي من الجهة اليمنى. كان الشكل ليلة حالكة، تتدرج ببطء وراء البحر، نحو سماء صافية؛ فبعد اللون الأزرق الغامق، يأتي الأزرق الباهت، ثم الأبيض.

ـ كان يُدعى مارون. كان ملاكنا. لقد ذبحوه.

نظرتُ إلى الإبرة، والصوف، وتساءلت إن كان الآخرون سيأتون.

ـ هل في حزب القوات اللبنانية؟

رفعت سيمونّ إبرتها وهزت رأسها.

ـ كان عمره ثمانية عشر شهراً، يا سيد جورج.

دخل شاب إلى المسرح في تلك اللحظة بالذات، لينقذني من الغرق، ومن الكلمات التي قد أقولها خطأً. جاء من الجهة الشرقية، يرافقه كتائبيان مسلحان، مكثا عند المدخل.

همس لهما الشاب المسيحي قبل أن يرحلا قائلاً:

ـ ظهراً.

حين وقفتُ لأستقبله، طبعتُ قبلة على كتف سيمونّ. فوجئتْ من ذلك، إذ لم يكن لدي بادرة أخرى أعبرُ بها عن تعاطفي معها.

كان كريون أول من وصل من فرقتي، فتقدّم نحوي دون ابتسامة.

ــ شربل.

صافحني شأن رجل لا يخشى شيئاً. وكما أوحت لي صورته، كان طويل القامة، قاسياً ومثيراً للقلق، لكن نظرته طُفلية، ويلزم بعض المسحوق الأبيض لشعره، ورسم سواد بالقلم حول عينيه، وشحوب يتصف به الحاكم.

ــ أشكرك على ما فعلتَ.

ــ على ما فعلتُ؟

ــ جئتَ حتى منزل بركات لتُقنِع أخي.

أبقى يدي في يده.

ــ لقد كنتَ شجاعاً.

ثم تفحص الصالة دون أن ينبس ببنت شفة، واضعاً يديه في جيبَيْ بنطاله، وهو يدور ببطء على نفسه.

ــ هل أتيت إلى هنا من قبل؟

بصق على الأرض.

ــ لم يدخل أحد إلى هنا منذ سبع سنوات.

ذهب حتى المقاعد، وسار بمحاذاة الجدران، وتعثر بعارضة، ثم صعد إلى خشبة المسرح شأن راكض يكتشف أثراً، وهو يمشي بخطوات كبيرة من حافة إلى أخرى. تعرَّف غريزياً على قصره: الدرجات، ومجموعة الأعمدة، والأرضية الممزقة.

أفلت كريون هذه الجملة مشيراً إلى الجدار المثقوب كالمصفاة:

ــ يمكن أن نضع هنا ستاراً، فأجبته:

ـ لقد فكرت بذلك.

نظر إليَّ، وابتسم للمرة الأولى، ثم جلس على حافة الألواح الخشبية، ورجلاه في الفراغ، وهو ينظر إلى ساعته.

قال شربل ممازحاً:

ـ إن التقدميين متأخرون.

ضحكتْ سيمونّ، فحيَّاها الشاب وهو يرفع يده شأن ممثل يشكر جمهوره، ثم أخرج نسخة من أنتيغون من صدريته ذات اللون الأصفر الضارب إلى السمرة، وراح يقرأ لذاته.

وصلت إيمان من الجهة الغربية، وفوق جبينها منديل أبيض. دخلتْ مع بطلتي أنتيغون، من الخرائب، إسمين والمربية. كانت الفلسطينية تعرف الشابة الكلدانية وكذلك الأرمنية التي كنت قد جعلتها رسولتي، فاقتضى الأمر ساعتين فقط لتقبلا أن تمثلا. وبمجرد أن دخلتْ إيمان حتى نزعتْ شريط ذراعها الأبيض. كانت متوترة. لاحظ شربل حركتها فنزع شريطه. وبدوري، دسست شريط القماش في جيبي، كما قلدتنا الممثلتان، وتركنا حربهم على باب مسرحنا.

حين دخلت النسوة الثلاث، وقفت سيمونّ، فاستقبلتهن مرشدة المقاعد.

نزل الشاب المسيحي من المسرح، وهو يمسح يده ببنطاله، فشعرتُ، وهو يحيِّهن، بالعرق يُجَمِّد راحة يده، إذ كانت علته، شأنه شأن أخيه، رطوبة الانفعال. لقد كان شربل وإيمان واقفين وجهاً لوجه، فتعرَّف،

بحدسه، إلى أنتيغون، كما استشفت هي كريون. ومن دون أن أقدمهما، عرف الممثلان بعضهما.

تمتم الشاب المسيحي، وهو يحيِّي، واضعاً يده على قلبه:

ــ شربل.

أجابت الفلسطينية وهي تمد يدها:

ــ إيمان.

هزَّ الشاب رأسه وهو يبتسم، وصافح اليد الممدودة، وقال:

ــ عفواً. لم أكن أظن أن امرأة سنية تصافح رجلاً، فأجابته إيمان:

ــ لم أكن أعرف أن كتائبياً يطلب العفو. ردّ بالقول:

ــ إنني مارونيٌّ، ولست كتائبياً.

عرَّفتني إيمان إلى الأرمنية يفكينيه وإلى الكلدانية مادلين.

قالت لشربل:

ــ تستطيع مصافحتهما.

ألقى الشاب كلمته قائلاً:

ــ إنكِ كبرياء أوديب.

ابتسمت إيمان، ثم أخذت نفساً عميقاً، وهي متوترة، وقبضتاها على طول جسمها. خفضتْ رأسها، وهي تبحث في أعماقها عن نظرة أخرى غير نظرته. أدرك شربل ما تفعل الشابة، فقلَّدها. توقفتُ عن التنفس، رفعت الفتاة رأسها فنظر الشاب إليها بشكل آخر. لقد كانت اللحظة رائعة.: كانا ممثلين يتباريان، ولم يعد هناك مسيحيٌّ، ولا سنية، ولا لبناني، ولا فلسطينية. كانت هناك شخصيتان مسرحيتان: أنتيغون وكريون، هي تهزأ منه، وهو يتحداها. ستذهب حتى الموت، وسينتهي

به الأمر إلى قتلها. مكثا جامدين دقيقة، وقد انحنى جسماهما إلى الأمام، يمتد كل واحد منهما نحو الآخر، يتماسكان بنظرهما، دون أن ينبسا ببنت شفة. وضعت سيمونّ يدها على فمها، وتسمرت المرأتان الأخريان في مكانهما. فجأة، انفجرت إيمان بالضحك، فابتسم المسيحي قائلاً:

ـ التباشير واعدة.

ـ ابتدأتم من دوني؟

عبرَ «نكد» من شق في الجهة الغربية، محطماً سحرِ اللحظة، في حين كان ابن مروان يلبس زي عصره، فشرحت له، وأنا أكدر أباه قليلاً، أن هيمون لا يستطيع أن يُمثل دور خطيب أنتيغون بالسروال، فقال:

ـ إذن، لن يعرف أحد أنه درزي؟

اتفقت معه على الطربوش تغطيه العمامة.

ثم دخل الشيعة إلى السينما، فوراً بعده، من شارع دمشق. لم تمد إيمان يدها في تلك المرة، فقدموا ذواتهم بخجل، الواحد تلو الآخر، وكذلك المرأة العجوز التي بقيت في المؤخرة.

قالت سيمونّ عالياً:

ـ عندنا زجاجات ماء وأغطية.

فركتُ يديَّ الواحدة منهما بالأخرى، ولم أفكر أن الطقس سيكون بارداً هكذا. طلع النهار؛ وكانت شمس باهتة تحرك السماء. وعندما نظرت إلى فرقتي، كان الكل هنا، والجميع ينظرون إليَّ. فقلت:

ـ أقترحُ عليكم أن نصعد إلى الخشبة، وأن نتخاطب بدون كلفة.

أخرجتُ من حقيبتي صورة كبيرة لأول عرض لأنتيغون، في مسرح

لاتوليبيه في باريس، في ٤ شباط من عام ١٩٤٤. كانت تلك الصورة مخططاً عملياً على الخشبة. أجلست أنتيغون وحدها، من جهة الحديقة، في أقصى يسار خشبة المسرح. أما كريون فقد أقام في الوسط، في مقعد فخم يلائم مكانته، وبالقرب منه، أخذ الحاجب مكانه. جلس كل من هيمون، وإسمين والمربية على درجة، متدرجين من الأسفل إلى الأعلى. كنت قد وجدت كرسياً مريحاً للعجوز أوريديس، وبقي الحارسان في آخر المسرح، تحت الأعمدة. مرَّرتُ الصورة من يد إلى يد، بينما كانت سيمونّ تُقدم الأغطية إلى الجميع.

أطلق شربل جملته قائلاً:

ــ هدية من مسيحيِّي جبل لبنان.

أجاب «نكد»:

ــ هذا مؤثر جداً.

كان كل ممثلي فرقتي يتحدثون الفرنسية المألوفة، ما عدا الشيعة، فنمر وحسين يجدان صعوبة في التعبير، فيلجآن إلى العربية حين تتعثر الكلمة. أما نبيل، أخوهما من والدهما، فلقد أمضى جزءاً من طفولته في بلجيكا.

ــ هناك مقاربات كثيرة بين هذا العرض الأول وبين موعدنا.

كان صوتي يرتجف، وكذلك يداي. كنت منفعلاً، فساعدتني إيمان بنظرتها المشجعة.

نحن في ٢٤ شباط، أخِذت هذه الصورة في ٤ من ذاك الشهر ذاته، قبل ثمانٍ وثلاثين سنةً.

اختفت العجوز الشيعية تحت غطاء الكتائب.

ـ تشعرون بالبرد؟ هم شعروا بالبرد أيضاً. في ذاك المساء، كان الممثلون باللباس الرسمي، والنساء بملابس السهرة، لكنهم أخفوا كنزات وبناطيل تزلج سميكة تحت لباسهم الرسمي. أما جان دافي، الذي يُمثل دور كريون، فقد لبس معطفه العادي ليمثل، وكان المشاهدون يرتجفون من البرد، فهل تعرفون لماذا؟ فأجاب «نكد»:

ـ لأنهم كانوا في الشتاء.

ـ لأنهم كانوا في الحرب.

نظرتُ إلى ممثلي فرقتي الواحد تلو الآخر.

ـ هذان يُشكلان نقطتين مشتركتين.

رويت لهم أنه لم يكن في المسرح تدفئةٌ، والإضاءة رُتِبَت بشكل بدائي عن طريق المرايا لتلتقط ضوء النهار، وصفارات الإنذار تدوي، فينزل الجمهور مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات إلى الملاجئ أثناء العرض.

أطلق «نكد» جملته قائلاً:

ـ ألم ينجح أنويْ بالتفاوض على هدنة؟

أجاب شربل وهو يبتسم:

ـ لم يكن أخي هناك ليساعده.

قطعت إيمان الكلام بخشونة قائلة:

ـ (ما خلص[٦])! كفى!

أدار «نكد» نظره باحتقار، ورفع شربل يده، فظهرا وكأنهما تلميذان.

أخرجتُ ورقة مطوية من جيبي. طوال أيام، ومن دون أن أؤمن

---

[٦] وردت هذه الجملة بالعربية بحروف لاتينية (المترجمة).

كثيراً بما أقوم به، كتبت حوار هذا اليوم بأدق تفاصيله. كان عليَّ العودة إلى جدول التوزيع الزمني، وألَّا يغلب حماس الشبان على أداء الممثلين، وبين تلك الجدران، لم أعد أريد إيمان، وشربل أو «نكد»، إذ كان يحق لأنتيغون وكريون وهامون وحدهم أن يتنفسوا.

ـ قبل كل شيء، أود أن أوجه إليكم التحية الأخوية لصموئيل أكونيس، صديقي وأخي. البعض يعرفونه جيداً، والبعض الآخر لا يعرفونه. ليس للأمر أهمية، كونكم تعلمون كلكم من هو.

كان الممثلون ينظرون إليَّ، تحميهم أغطيتهم، باستثناء إيمان التي تركت الغطاء، مطوياً بجانبها.

ـ هذه المسرحية تمثله، فهي فكرته، وهي حياته. لقد اختاركم كلكم، واختارني أنا. تذكروا دائماً أنه بالقرب منا، حتى من أعماق سريره في المستشفى؛ إنه هو مخرجكم المسرحي، وستُهدىَ هذه المسرحية إلى بلدكم، وإلى السلام وإلى صموئيل أكونيس، فسألتني إيمان:

ـ هل أنت يهودي أيضاً؟

انتظرت هذا السؤال، لكن ليس من إيمان، في حين راحت سيمونّ تراقبني.

ـ كلا

تابع شربل قائلاً:

ـ هل أنت مسيحي؟

ـ إنني فرنسي.

ـ هل تستطيع أن تقول: كلا، لست إلّا فرنسياً؟

ـ أنا فرنسي أيضاً.

ضم شربل ذراعيه، كأنه راض عن ذاته.

ــ لماذا هذا الاستجواب؟

إنها مادلين، المربية التي طرحت هذا السؤال. تابعتْ قائلة:

ــ حين وصلنا إلى هنا، نزعنا شرائط أذرعنا، لذلك أقترح أن ننسى أيضاً دياناتنا، وأسماءنا، ومعسكراتنا؛ إننا ممثلون.

وقفت المرأة. كانت أكبر سناً من الآخرين لتقول:

ــ إنني المربية، أهتم بإسمين وبأنتيغون منذ طفولتهما، وأحب كل واحدة بقدر ما أحب الأخرى؛ هذا كل شيء.

كانت إسمين أول من صفق، تبعتها أنتيغون.

بعد ذلك، تبعتها الشابة الأرمنية بعد ذلك قائلة:

ــ أدعى إسمين. إنني جميلة، وسطحية، ليس لي شجاعة أختي، ولا قوتها، ولا إيمانها. وأحب الحياة.

صفق الآخرون جميعاً.

جلستُ على إحدى الدرجات، وتركتهم يتصرفون، مع أنني كنت منفعلاً.

ابتسم «نكد» قائلاً:

ــ إنني هيمون، ولست درزياً.

وضع الطربوش الأبيض على رأسه، ولفه ببطء بالعمامة.

انطلقت صفارة إعجاب، وبعض الضحكات.

ــ إنني إذن ابن كريون وأحب أنتيغون، وسنتزوج قريباً، وأنا مستعد أن أموت من أجلها، وبالفعل، سأموت من أجلها.

تصفيق.

وقف نبيل بدوره، تحدث باسم إخوته، وقبضتاه مضمومتان أمامه، فقالك:

ـ إننا حرس كريون، نحمي قانونه، والأسئلة التي يطرحها الناس على أنفسهم لا تعنينا. إننا ننفذ الأوامر للحصول على ترقية، وإذا وجب القتل لذلك، حينئذٍ سنقتل.

تبع ذلك لحظة صمت ثقيلة، ثم تصفيق خجول. كانت نظرة نبيل، وصوته، وحركته قد حدثتنا بشيء آخر غير مدينة طيبة.

راحت سيمونّ تمر بيننا، تحمل زجاجات الماء والأطعمة الباردة، أما أنا فقد كنت أكتب في دفتر سام، وأركز تفكيري، إذ يجب ألَّا يضيع شيء من كل ذلك.

قامت خديجة ببادرة، حين رفعت يدها لتتكلم، فقالت عدة كلمات، ويدها الأخرى على حجابها، في الوقت الذي كان فيه نبيل ينظر إليها بحرج.

ـ تقول عمتي إنها هنا لأن الشيخ معمر الصادق قد طلب منها ذلك.

ـ لكن هل فهمَتْ أنها تُمثل في مسرحية؟ فقلت لها مستفسراً:

ترجم لها الشاب سؤالي، فأجابت بصوت واهن، وانفجر كل الممثلين بالضحك. نظرتُ إلى نبيل متسائلاً، فأجابني قائلاً:

ـ إنها تعرف أن عليها أن تشتغل لنا كنزات من الصوف فخاطبه بالقول:

ـ ترجمْ ما سأقول، أتريدُ ذلك؟

اقترب الحارس من أوريديس، وتَحدثتُ.

ـ إنك زوجة الملك كريون، طوال المسرحية، تحوكين الملابس لفقراء طيبة، وبما أن ابنك يموت بسبب زوجك، فستقتلين ذاتك.

علت الضحكات ثانية، فقالت الشيعية العجوز إنها لا ترغب في أن تموت، وإنه لا يحق لأحد أن يقتل نفسه. وكما قلتُ إنني لم أجرؤ على أن أروي ذلك حين جئت أدافع عن المسرحية أمام السلطات الدينية.

رفعت الغطاء عن ساقيها، ووقفت متأففة.

وقف الإخوة الثلاثة بدورهم.

أطلق نبيل قائلاً:

ـ إنها تريد الرحيل.

اقتربت منها. وقد توقف قلبي عن الخفقان، إذ سيأتي سائق ليأخذهم بعد ذلك اللقاء ويعود بهم إلى النبطية. كنت قد دفعت أجور السفر، ولم يكن أحد في الخارج ينتظرهم. لذا، لن تصمد المسرحية إذا حُرِمَتْ من أربعة ممثلين. تابع نبيل الترجمة، بصوت خفيض وجدي، وشرحْتُ لها أن لا أحد يرى موت أوريديس، وأنها لن تقتل نفسها أمامنا. فالجوقة، أي أنا الذي يُنبئ كريون بالأمر، ولن يُطلب منها سوى شغل الصوف، ولا شيء أكثر من ذلك. كنت أتكلم وهي تجيبني، فقالت إن تمثيل امرأة تنتحر، هو أن تصبح تلك المرأة، وهذا يعني أن تغش الآخرين حين تتخذ مظهراً ليس لها، هذا يعني إهانة الله.

تنشقت كل الهواء الذي حولي، وأغمضت عينيَّ.

ـ لن تموت أوريديس. تَرْجِمْ!

أطلقت هذا القول بدون تفكير، وقد فوجئتُ بجملتي. فنظر نبيل إليَّ، وسألني:

ـ هل أقول لها ذلك؟

ـ أوريديس لن تموت، قلْ لها.

قال شربل ممازحاً:

ـ وهل ستنجو أنتيغون أيضاً؟

أصابتني حركة مباغتة.

ـ كل شيء في أوانه.

قال الشيعي:

ـ تريد عمتي كلمتك، فرددت قائلاً:

ـ أعطِها كلمتي.

ـ كلّا، يجب أن تقولَها لها وجهاً لوجه.

كانت المرأة العجوز تنظر إليّ بخشية، فانحنيت أمامها، وأنا لا أفارق نظرها، فرفعتْ حجابها.

ـ سيدتي، أعطيك كلمة شرفي أن أوريديس، زوجة كريون وأم هيمون لن تُنهي أيامها.

وبينما كان ابن أخيها يُترجِم، أخذتْ تراقب شفتيَّ دون أن تفهم كلماتي. وحين انحنيتُ مرة ثانية، رفعتْ رأسها وجلستْ من جديد على كرسيها، يساعدها أبناء أخيها.

لم أكن أجرؤ على مجابهة نظرة إيمان الضاحكة، لكنني شعرت بتلك النظرة مسلطة عليَّ، فرجعت إلى خريطة طريقي، شأن تائه يقرأ الخريطة بالمقلوب. لقد خنتُ أنويْ تواً كي أرضي امرأة متحمسة لعلي، ابن عم النبي وصهره. يجب ألّا يعم السكوت، لذلك دعوتُ إيمان لنجدتي، لكن شربل هو الذي جاء لمساعدتي.

ــ أدعى كريون. إنني ملك طيبة. كان لي ابنا أخت، وهما إيتيوكل وبولينيس، ماتا عبثاً في معركة لا معنى لها. كان الاثنان نذلين، ولعينين، حاول كل بدوره قتل أبيهما، أوديب. لقد كذبتُ على شعبي، لأحافظ على شرف أسرتي، فجعلتُ بولينيس سافلاً وإيتيوكل شاباً طيباً. أعددتُ للثاني مراسم دفن وطنية، ورفضتُ للأول الدفن، مهدداً بالموت كل من يقبره.

صفَّقْت لشربل، وتأثرت بأخي جوزيف ــ بطرس، الذي كان قد قرأ المسرحية، وأدرك خيوطها ومراميها، وبخاصة أنه أتاح لإيمان أن تظهر بدورها على المسرح.

ــ أدعى إيمان، وإنني فلسطينية، كان أجدادي يعيشون في يافا، سأمثل دور أنتيغون، تلك التي تقول لا، والتي ترفض الأوامر، والتعليمات، والنصائح، تلك التي لا تضع غطاءها شأن الآخرين، والتي لا تُجيب عن الأسئلة كما يفعل الآخرون، تلك التي تريد أن يُدفَن أخوها في أرضه، لا أن يُترك للكلاب، تلك التي ستحفر الأرض بأظفارها لتغطي جسده وفق الطقوس الدينية، تلك التي ستقول للملك، خالها، لكريون هذا الرجل الضعيف، إنها لا تخافه، تلك التي سترفض إخفاء تلك القصة عن شعب طيبة، تلك التي ستصرخ أنها هي أنتيغون، إيمان الفلسطينية، التي أرادت دفن أخيها في مسقط رأسه، إنها تلك التي سترفض السعادة مع هيمون، والحياة مع الآخرين جميعاً، والتي ستختار الموت كي لا تخون ذاتها.

لم يظهر أي رد فعل، هذه المرة، ولم يصدر أي صوت في الغرفة

الجريحة. بقيت إيهان واقفة، عالية الرأس، مقطبة الحاجبين، فاغرة الفاه، ترتجف برداً. حينذاك تقدم شربل نحوها، وأخذ الغطاء الذي بقي على الأرض وغطى كتفيها بهذه الهدية التي لم تقبلها.

ردد لها الشاب المسيحي قائلاً:

ـ لست كتائبياً.

التحفتْ بالغطاء، وراحتْ تبتسم لي، فصفقتُ حينذاك لها، ووقفتُ من على الدرجة الأخيرة، وهنأتُ الممثلين، جميعاً، كل واحد بعد الآخر، وأشدْتُ بجسارتهم، لأنه ما من محارب يختفي وراء قبضة بندقيته، في أي مكان في المدينة، يتمتع بشجاعتهم. لقد أحببتهم كما لو كانت الستارة قد أسدِلت فجأة، وهي تخفي الصالة التي تُشيد بنصرنا.

*

في شباط من عام ١٩٤٤، في مساء الحفلة الأولى، أجاب صمت مميت على آخر كلمات الجوقة، وروى الممثلون أن ذلك قد استغرق «دقيقة وربما دقيقتين». بدت الصالة كأنها في لحظة أبدية، بلا أي صوت، أو سعال، أو صرير مقعد، وكان الممثلون المرهقون يتهامسون، وقد تجمعوا خلف الستارة، في الوقت الذي كانت الدموع تطفر من عيون بعض الممثلين، إذ لا أحد قد آمن بهذه المسرحية.

قال أنويْ:

ــ عشرون عرضاً، هذا أقصى ما نريد.

أجابه المخرج:

ــ هذا إذا قُدمتْ تلك العروض.

روى كاتب المسرحية أن فكرة إعادة صياغة مسرحية أنتيغون قد خطرت له في صيف عام ١٩٤١، حين اكتشف اللوحات الحمراء التي لصقها النازيون على جدران باريس. وفي ٢٧ آب، في فرساي، أطلق النار العامل بول كوليت، البالغ ٢١ عاماً على بيير لافال ومرسيل ديات، وهما عميلان تواطآ مع العدو. في اليوم ذاته، وبعملية انتقامية، أعدِمَت خمس رهائن رمياً بالرصاص في جبل فاليريان، كانوا قد أوقفوا لمشاركتهم في تظاهرة شيوعية وهم: روجيه ـ هنري نوغاريد، ألفريد أتينو، أندريه سيغونوي، ريمون جوستيس وجان ـ لوي رابينا. كان أصغرهم في العشرين من عمره، وأكبرهم سناً في الرابعة والثلاثين فقط. فحين رأى أنويْ إشعاراً بتنفيذ إعدامهم موصوفاً بكلمة ألمانية تعني «إعلاناً إلى الشعب» كُتِبت بأحرف سوداء على الدماء، تذكر المتمردة الصغيرة، التي ماتت لأنها رمت ذرة تراب على قانون من الفولاذ. لقد تصرف كوليت وحده مثلها، بمطلق إرادته، وبمبادرته الخاصة، وقامت بتعذيبه شرطة (الجيستابو) النازية في شارع «دو سوسيه» فلم يعترف بشيء إلّا باسمه وحده.

حينذاك أعاد الكاتب صوغ مأساة سوفوكليس صياغة حديثة، مغامراً بكل شيء، وحين وافقت الرقابة الألمانية على المسرحية، راحت الصحافة السرية تهاجم المسرحية باعتبارها تشجع التعامل

مع العدو ولأنها اعتبرت التضاد بين كريون وأنتيغون، معادلاً لتضاد بين مونتوار[٧] والمقاومة. إنه التمرد الذي يقمعه القانون، ولكن على العكس من ذلك، ولعدد كبير من الناس، جسَّدت أنتيغون الرفض. وحين قدمتْ حياتها، حكمتْ على كريون بعزلة الرجال الهالكين، فشكَّل موتها انهياره، وجعلت من مملكته سرير الغضب، فقتلت أسرة الجلاد، وتركته وحيداً، مع ثلاثة حراس سيقتلونه قريباً، بعد أن هللوا لأول قائد وصل إليهم.

كان كل ممثل، وقد اختبأ خلف مشاجب الملابس، يفكر في الشيء ذاته، بحيث لم يكن لهذه المسرحية أن تُمَثَل على الإطلاق. لقد شعروا بفظاعة الجدار الذي يفصلهم من الآن فصاعداً عن الجمهور. إنه الجدار الرابع، فهو قائم حقاً؛ إنه من الإسمنت، والفولاذ، يخنق أقل نفحة حياة، ولا يدع شيئاً يمر من الخارج، فيتركهم وحدهم على خشبة المسرح، مهملين، كأن المسرح قد أغلِقَ فجأة؛ إذ ثمة سقف، وأربعة أسوار، وقد ظنوا أنفسهم، طوال دقيقة، أنهم قد دُفنوا أحياء.

ثم صرخت الصالة طويلاً، وعمَّ فرح عظيم، من البكاء وهتافات الإعجاب والتشجيع. وعندما رفعت الستارة، انقلب كل شيء رأساً على عقب، وصعد الناس على مقاعدهم، رافعين أذرعهم، ليصفقوا بكل قوتهم لأنتيغون المتمردة.

بعد ثلاثة أشهر تقريباً على ذلك التهليل في مسرح لاتولييه، اعتقل

---

[٧] Montoire مدينة صغيرة في منطقة اللوار الفرنسية. في ٢٤ تشرين الأول من عام ١٩٤٠، وفي محطتها، تم اللقاء بين المارشال بيتان وأدولف هيتلر واتفاق التعاون بينهما (المترجمة).

النازيون اثنين وعشرين رجلاً وقتلوهم رمياً بالرصاص، عُرفوا بأبطال باللوحة اللاصقة الحمراء. هناك ميساك مانوشيان، وجوزيف بوكزوف ورفاقه الأجانب الذين اعتقلهم النازيون. وبعد سبعة عشر يوماً، في ٢١ شباط من عام ١٩٤٤، سقطوا تحت رصاصاتهم، فتمتمت أنتيغون قائلة: «لم أعد أعرف لماذا أموت»، فأجابها مانوشيان: «أموت وأنا جندي نظامي في جيش التحرير الفرنسي.»

*

حينذاك شرع حسين بالكلام بدوره، ببطء، وباللغة العربية، فسلَّط الحاجب نظره عليَّ وحدي في حين كانت خديجة، العجوز الشيعية، تهز رأسها وتصفق ببطء بيديها، شأن من يُشَجع حفلة أطفال.

أخذ نبيل يترجم قائلاً:

ـ يقول حسين إنه لا يوافق؛ فالفلسطينية قد أتت على نقض اتفاقنا،فراحت إيمان تحدق فيه بقسوة.

ـ يقول أخي إنه جاء لأن هذه المرأة هي أنتيغون ولا شيء غير ذلك، لقد أدرك أنها مثلت لنا المشهد العظيم لرفض القوانين، لكن ذلك؛ يستحيل هنا، وإلَّا استرجع أخي هويته الحقيقية.

كان الحاجب يتحدث، ولم أكن قد لاحظت القسوة تحت قناع طفولته، فقال أخوه:

ـ أدعى حسين الصادق، ويهدد حياتي الوهَّابيون الفلسطينيون، الذين جعلوا من أرض أجدادي أرض منظمتهم «فتح». إنهم

يتصرفون كأنهم في أرض محتلة، ويهددون آباءنا، ويغادرون مطاعمنا دون أن يدفعوا الحساب، يتجاهلون رتل انتظارنا، ويسرقون سياراتنا وخبزنا. فإذا كان عرفات يتهم إسرائيل بسرقة فلسطين، فإنني أتهم الفلسطينيين بتمركزهم في بلد لم يكن لهم.

كانت العجوز الشيعية تتناغم دائماً مع كلمة ابن أخيها الصغير.

ـ إذن فلنوقف ذلك، من فضلكم. قلت إنني حاجب كريون، ولست ابن شعب مُذل ومهان. إيمان هي أنتيغون فقط وإذا كانت هنا فلأنها التجأت إلى المسرح، وليس لأنها تعيش في مخيم اللاجئين. لهذا السبب جئنا أنا وأخوايا. إننا نلبس أقنعة المأساة، فهي تتيح لنا أن نكون معاً، فإذا خلعناها، فسنعيد وضع أشرطتنا، وهذا يعني الحرب.

تجمد الجميع، وحل صمت مطبق، وأصبحنا شأن الخرائب.

ـ إيمان؟

نظرتْ إليَّ الفلسطينية، ورفعت كتفيها الطفوليتين.

ـ إنني أنتيغون، فأنتيغون هي الآن هنا.

حييتُها بإشارة من رأسي، فتنفستُ الصعداء.

ـ شكراً لكما.

ثم صفقت بيديَّ، شأن معلم مدرسة، يُحدث صخب نهاية الدرس. كان الميليشيان المسيحيان واقفين أمام الباب، في حين كان مروان يراقبنا من خلال الجدار، والعجوز الشيعية تداعب جبين ابن أخيها، وقبَّلت سيمونْ يديَّ. جمعتْ إيمان أشياءها، منعزلة ومتوترة وكان كل ذلك في منتهى الهشاشة. لقد أصابني الدوار؛ فكلمة في غير مكانها، وبادرة أدنى مما يلزم، ونظرة زائدة والجميع ينطلقون إلى المعركة.

جعلت دفتري يمر بين من كان عنده هاتف لتسجيل أرقامهم كما أعطيتهم رقم هاتفي، بحيث يمكنهم الاتصال بي في كل لحظة.

ـ نهاية التقديم. ستكون التجربة المسرحية الأولى يوم الجمعة في 4 حزيران، في مكان يسهل الوصول إليه. موعدنا في أربعة أشهر، أي غداً. إذن تعلموا نصكم. شكراً لكم جميعاً، وحظاً سعيداً، وإلى اللقاء....

١٦

أشكول كوهين

كانت أورور ولويز تنتظرانني خلف الشبك، بعد باب المطار المجهز بمزلاق، ولم تكن زوجتي ولا ابنتي اللتان وجدتهما، لكنني وجدت ثانية حياتي السابقة بكاملها.كنت أعرف ذلك، وشعرت به وأنا أصعد إلى الطائرة التي حملتني إلى سلامهما وأمنهما. استسلمت للحزن الذي سيطر عليَّ، وأنا أطير فوق بيروت، وقد التصق جبيني بالكوة، ولم أعد أدرك لماذا أعود إلى بلدي، لماذا لا أبقى هنا، أدرِّبُ كل واحد من الممثلين، فأريهم الحركات، والنظرات، وأعْبرُ الخط الفاصل من أجل شربل، وأقطعُ البلد كله من أجل نبيل، وأصَححُ إلقاء «نكد» الأقرب إلى النواح، وألتجئ بلا صوت إلى ابتسامة إيمان. لقد أعطيت لنفسي هدنة لا مبرر لها. أضعتُ الوقت، ثم قلت في نفسي إنني أعود من أجل سام، لأروي له المعجزة التي حققَها.

اعتصر الألم أحشائي طوال السفر، فنظرتُ إلى الصورة التي لا تفارقني مطلقاً، أنا وأورور، وابنتنا بيننا، في قعر الصورة. أحببتُ ابتسامة هؤلاء الناس: الأب، والأم، والطفلة. كانوا قريبين منيٍّ وغريبين عني معاً، لا سيما الأب الذي كان هناك، يشعُّ سعادة، مع امرأتيه إلى الأبد، ويتوقف عالمه عند حدود جلدهما. لا شك أنه قد عاد من بعيد، عاش خشونة الحياة، وقسوتها، وأهواءها الجريحة، ثم

خفض ذراعيه مستسلماً. كانت هاتان البسمتان تكفيان بشكل واسع، ومن الآن فصاعداً، لتجعله يبتسم؛ فله أسرة، وعمل، وشقة، وسيارة، وفيض من الحب يعطيه، ويتلقاه، وكذلك عذوبة الظلال الفسيحة في أمسية الصيف. فبعد أن ناضل طويلاً برفقة الآخرين، وبعد أن أملَ معهم، وتألمَ معهم، تركَ النضال دون أن ينبس ببنت شفة. لم يشكِ البتة في أن العالم سيتابع مسيرته بدونه؛ نسي غضبه الشخصي، وأصبحتْ قبضته يداً مفتوحة. مرَّرتُ بإصبعي على وجهي كأب، وعلى عينيّ زوجتي، وعلى شعر ابنتي. كنت قد قصصت الصورة بشكل بيضوي، لتحويها محفظة نقودي، وها هي الآن شأن إحدى الذكريات. كان هؤلاء الثلاثة في يدي يشبهون الصور المثلمة والمنسية على القبور؛ إنها ابتسامات أبدية تسبر أقنعة على الموتى.

كانت أورور تلبس الثوب الأحمر الذي أحبُه، كما رسمتْ لويز فراشة على خدها، وفي السيارة، راحتا تدندنان.

أخذتْ لويز، وهي تهز رجليها تلثغ قائلة:

ـ ماما، بابا، ماما.

كانت أمها تُنغم لها، ويدها على المقود، بينما وضعت اليد الأخرى على فخذي، قائلة:

ـ لقد عاد بابا. رفعتُ إصبعي، وأنا أعطي النغم مبتسماً، ولم أفه بكلمة.

طلبتْ مني أورور قائلة:

ـ ستروي لي أحداث بيروت.

ــ الأمر قاسٍ، لكنني سأتوصل إلى ذلك، فلنتحدث عن شيء آخر، أتريدين؟

كان كيسي على ظهري، لم أقل إلّا ذلك. نظرتْ أورور إليّ، وقالت: كلا. لم تكن ترغب في أن تتحدث عن شيء آخر. تلك هي المرة الأولى التي فرّقتنا فيها الحياة. لقد خافتْ على ذاتها، وعلى لويز، وعليّ، منذ اليوم الأول، وفي كل الأيام التالية. تساءلتْ في أية حالة ستجعلني الحرب، لذلك طلبتْ مني أن تعرفَ كل شيء، أن تسمعَ كل شيء. كانتْ تريد أن أروي لها كل شيء عن الممثلين وعن المدينة. أرادتْ أن أحدِثها عن أنتيغون، وعن المسرح، وعن الخط الأخضر، وعن لون السماء. فلتسترجعَني، كانت تحتاج إلى أن تعرف ماذا تركتُ. كانت تتوقُ إلى أن أحدِثها عن إيمان، وعن شربل وكل الآخرين. كانت تريد أن تتغذى مني. فمنذ رحيلي، ألقتْ دروسها، وحمتْ طفلتنا، وسهرت على لياليها الصعبة. قامت بالتسوق، واشترت الحليب، والماء المعدني. بحثتْ عن نشاطات يوم الأحد الفنية تحت سماء الشتاء. التقت أمَّها، وكذلك بعض الصديقات. تابعتْ حربي في التلفاز. تعقبت اسم بيروت في عناوين الصحف. انتظرتْني طوال هذا الوقت، حقاً. لقد عدَّتِ الساعات، والأيام. لم تنعمْ بنوم هانئ؛ فالقلق قد هدها، وظهر طفح جلدي يُعرف بالحزاز الوردي ليحفر جلدها القَلِق، من أسفل العنق إلى صدرها، وامتد حتى خصرها، وعلى ظهرها. رأتني ميتاً، وأحياناً أخرى كانت تراني أخونها، وأرحلُ مع امرأة أخرى، مناضلة بلا طفل، وبلا قطع مسافة بسيارة النقل العامة، وبلا قطعة خبز محمصة أشتريهاعادة حين يحل المساء. كانت تراني أحب تلك الغريبة

عنا، كما أحببتها هي في أول مساء لنا. كانت زوجتي التي هي من دعاة تحرير المرأة، والمحاربة، والتي من أصل بريتاني، تستيقظ وهي تقطر عرقاً، وتكرهني لسقوطي هكذا على الأرض ويداي متصالبتان، أو بين ذراعين غير ذراعيها. ما أهمية كل ذلك! كنت في الصباح، ضائعاً أو هالكاً بالنسبة إليها.

دندنت زوجتي:

ــ ها قد عاد بابا.

كانت تراقبني من طرف خفي، إذ ثمة شيء لم يكن على ما يرام. كانت تستشفه، بحثتُ عن يدي مروان على مقودها، واشتقتُ إلى السبحة الدرزية تحت المرآة العاكسة، وكذلك الموسيقا، والتوتر، والرينغ، والخط الفاصل الذي يقترب. اشتقتُ حتى إلى الطلقات التي كانت تُسمع من بعدٍ. اشتقتُ كذلك لإيمان، وخفضتُ زجاج نافذتي لأستنشق الشتاء الخارجي لمحيط المدينة. فجاءني صوت زوجتي الجاف:

ــ لك طفلة تجلس في المقعد الخلفي، ألا تتذكر ذلك؟

تذكرتُ ذلك، رفعتُ الزجاج، وأغمضتُ عينيَّ.

*

حين رآني الدكتور كوهين في الممر، أقبل نحوي، فاتحاً يده شأن ابتسامة.

ــ هذا هو الرجل الذي سيضع حداً لحرب لبنان؟

كان سام قد روى له كيف ستُمثل أنتيغون، بأيدٍ عارية في مدينة تخنقُ الناسَ فيها أيادٍ أخرى. مررتُ معه أمام غرفة الممرضات، مطأطئ الرأس للمرة الثانية. وقبل أن أفتح باب الغرفة، نظر الطبيب إليَّ، فكنت شاحباً، وقلقاً.

ـ لقد تراجعتْ حالة صموئيل كثيراً، لكنه يصارع المرض.

كان نائماً، رأيته ميتاً، كان أصفر الوجه، وطرف أنفه أسود وكذلك ذقنه، أما بعض أصابعه فأقرب إلى السواد. كان يتنفس بصوت كالكور، وتمتد الأنابيب على كل جسمه، فارتجفتْ ساقي، وتجمدتُ.

كان الطبيب واقفاً خلفي.

ـ هل يسمعني؟

ـ أجل، طبعاً. سيمكنك أن تتحدث إليه.

انحنيت على سريره:

ـ سام؟

وضع الرجل يده على كتفي.

ـ انتظرْ حتى يستيقظ.

قدَّم لي كرسياً، ثم غادر الغرفة، وهو يُغلق الباب خلفه بهدوء. حينذاك جلستُ، وركبتاي على ركيزة السرير. لقد هزل صديقي. ووضِع قوس فوق صدره، ليمنع الغطاء والشرشف من الإثقال عليه. على الطاولة، بالقرب من رأسه، كانت صحيفة ليبيراسيون تروي كيف قصفتْ قذائف لبنانية إسرائيل. كانت سبحة بدررٍ من العنبر قد وضِعت على الصحيفة. إنها سبحة يونانية لصديقي اليهودي، وثمة زائر آخر قام بها استطاع. ابتسمتُ. كان سام يحلم، ويتأوه بلطف،

في كل تنفس، كأن الهواء يجرحه. ثم سعل سعالاً مصحوباً ببلغم، فاشتدت سرعة المؤشر القلبي، وكذلك النبضات. شهقَ بعنف، كأنه يكاد يغرق. حرَّك يده، أما إصبعه فكانت حبيسة الجهاز اللاقط، ثم فتح عينيه، ببطء. ودون أن يحرك رأسه، نظر إلى السقف، والجدار، والنافذة. وحين وصلت نظرته إليَّ، تردد، كان تائهاً، سلَّط نظره على عينيَّ، دون أن يتوقف، فرفعتُ يداً، شأني على رصيف محطة.

ـــ أهلاً وسهلاً، يا سام.

ابتسم، ثم أطبق جفنيه. وحين عاد إليَّ، وجدت بعضاً منه. صديقي سام، اليوناني، أخي. انحنيت عليه، ارتسم الحزن في عينيه، وكذلك الصمت. كان يتأمل شيئاً آخر غير تلك الغرفة، راح يراقب الموت وهو يتهالك عليه.

ـــ إروِ لي ما حدث.

لم يكن ما سمعتُ بصوت، كان أقربَ إلى تأوه.

ثبَّت نظره فيَّ، وهو غائب.

حينذاك رويتُ له كل شيء. أخرجتُ دفتره من جيبي وقرأتُ، ومثَّلتُ بالإيماء، ونقلتُ كل حركة، وكل لون، وكل رائحة. جاءت ممرضة لترتب وسائده، لم يكن جالساً، كما لم يكن مستلقياً تماماً. كان ينظر إليَّ، ويبتسم، ويفتح فمه ليطرح سؤالاً لا يأتي. حدَّثتُه عن مروان، وعن عبور الخط الفاصل، وعن النبطية والإخوة الشيعة، وعن قلعة جوزيف ـــ بطرس، وعن القاتل في مفرق «السوديكو». وصفتُ له السينما، مسرحنا، وعرَّفتُه بسيمون، وطفلها المذبوح، وأشباح الدامور. قلَّدت الشيخ مُعَمر الصادق، وقد استدرتُ كي لا أتحدث

إلَّا مع الجدار. مثَّلتُ له هلع خديجة، وهي تجابه انتحار أوريديس. تلوتُ جملاً من دور هيمون بصوت «نكد»، وهو يُمَثِّل دور حياته، أما هو، فكان ينظر إليَّ شأن طفل يلهو. كانت عيناه تضحكان، وتفيضان رقة وعذوبة، وتتسليان من كل ما تسمع.

ـ وإيمان؟

كانت النفحة ذاتها في الصوت.

حدّثتُه عن شاتيلا، وعن محمود درويش، وعن الأطفال الذين يلقون شعراً رائعاً وسط القمامة.

ـ لكن إيمان؟ إيمان، هل رأيتَها؟

أعتقد أن وجهي قد احمر، فتلعثمت مردداً عشر كلمات؛ هي ستمثل دور أنتيغون بجمال وروعة. إنها أشد رهافة من الآخرين، وأكثر ذكاءً، ومستعدة لتواجه الحياة.

بقي سام هكذا، ونظره مثبت عليَّ. توقفت عن الكلام، فراح ينتظر، ثم بدرت من كفيه حركة ملل وتعب.

ـ هل تعرف أورور؟

ـ أورور؟

أجبت بسرعة كبيرة، بلا تأنٍ. أورور؟ ليس هناك شيء لتعرفه أورور. على كل حال، لا يوجد شيء بعد تدريبنا، اصطحبت إيمان إلى شاتيلا. وماذا في الأمر؟ وما الضرر إن كنتُ قد أمسكتُ يدها في الظلام؟ قلت لها فقط إنها كانت مؤَثرة.

سألتني قائلة:

ـ هل يتأثر الفرنسيون بالمشاعر؟

أجبتها:

ــ أجل، ليس كلهم، ولكن البعض منهم.

ــ اشرح لي ما معنى كوني مؤَثِرة.

قلت لها ما أعرِفُهُ عنها، عن أناقتها وسط الأطفال، ووسط الممثلين. كما قلت لها إن وجهها حزين وجميل؛ حدثتها عن نظرتها، وعن يديها الناصعتين.

ــ هل أنت متزوج؟

ــ أجل. زوجتي رائعة، ولي ابنة، إنها طفلة صغيرة تضحك ملء شدقيها.

أجابتني إيمان قائلة:

ــ إذن عليك ألَّا تتحدث عن وجهي، ولا عن نظرتي، أو عن يديَّ.

سحبت يدي التي بقيت بين أصابعها.

تمتم سام قائلاً:

ــ لا تلعب معها، ولا مع أي واحد منهم.

كان مرهقاً، فأغمض عينيه.

ــ لقد أعطيتك موعداً مع أنتيغون، وليس مع إيمان.

كنت حانقاً على سام، ولم أقم بشيء ألوم عليه نفسي. لم يحصل شيء بيني وبينها، كما كنت غاضباً من ذاتي. كان وجه الفلسطينية منحنياً على وجهي ليل نهار، كانت تراود ساعاتي، فشعرت بأنني أرتكب خيانة.

قال لي صموئيل، وعيناه مغمضتان:

ــ اقسم لي.

اقتربت منه أكثر، وفمي على بعد نفحة من شفتيه.

ـ أقسم لي بتمثيل أنتيغون مهما كلف الأمر.

وضعت جبيني على جبينه، وأغمضت عينيّ كما فعل، وأمسكتُ وجهه بين يديَّ.

ـ أقسم لك بذلك، يا صموئيل.

استغرق في النوم، فخرجت. أسندت ظهري إلى الجدار، في الممر حيث كان الطبيب ينتظر، بالقرب من المصعد، فابتعد ببطء عن الباب.

ـ قهوة؟

خرجنا من المستشفى بعد أن أنهى عمله ليقوم بزيارة مُلزَمٍ بها إلى بيت مريض. صحبني إلى الجهة المقابلة، إلى مقهى بسيط، فتبعته، ولم أدرِ لماذا. كنت قد وعدت أورور أن أعود بسرعة، بسبب لويز وسعالها الشتوي، لكنني كنت أكَفِّر عن خطئي. كنت وقحاً مع هذا الطبيب بخصوص معسكر الاعتقال (أوسشويتز)، وكذلك مع الممرضات. لم أكن فخوراً من تصرفي، وها أنا أدفع ثمن ذلك. جلسنا بالقرب من زجاج النافذة، دون أن أعرف إن كان سيتحدث هو أم أن عليَّ أن أقوم بذلك.

ـ لسنا هنا ليكذب كل واحد منّا على الآخر، أليس كذلك؟

هززت رأسي وأنا أطلب كأساً من البيرة، أما هو فقد طلب قدحاً من الشاي الأخضر.

إن كبد صديقك مصاب، وكذلك العظام، إضافة إلى الرئتين، والرأس، والبطن؛ فهو يعاني من الأضلاع، ومن الفقرات، وقد أصبح

هيكله العظمي عدواً له. إننا نفعل كل ما في وسعنا لنخفف من آلامه، لكن المورفين لا يحل كل المشاكل.

ــ أعندك تاريخ محدد؟

رفع الطبيب عينيه.

ــ تاريخ لخلاصه؟

هززت رأسي. الخلاص. لم يكن باستطاعتي البتة إيجاد هذه الكلمة.

ــ لست أدري. قبل نهاية العام.

نظرتُ إليه، ثم راح يشرب الشاي الذي طلبه وهو يراقب المستشفى.

ــ لماذا جررتني إلى مقهى لتقول لي ذلك؟

ابتسم الدكتور كوهين.

ــ لأن الأمر لا يقتصر على ذلك فقط.

كان سام والطبيب قد تحدثا كثيراً، أي اليوناني والتونسي، وقبل أن ينهكه المرض، روى له صديقي حياته: سالونيك، ومقاومة العقداء، وآماله بالنسبة إلى فلسطين، شأن محتضر يُخفف عن ذاكرته. فمن أسبوع إلى أسبوع، أصبح سام صديقه الحميم، وكذلك صار الطبيبُ يصغي إلى اعترافاتهِ.

أفضى الدكتور كوهين بمكنونات ذاته، وحين كان شاباً صهيونياً، التحق بصفوف منظمة صهيونية للشبيبة عُرِفت باسم «بيتار»، واحتفظ من هذا الارتباط بجرح خاص. كان سام مسؤولاً عن ذلك، وأنا أيضاً، واكتشفه الرجلان بمحض الصدفة. لقد جرني إلى الطرف الآخر من الشارع ليقول لي ذلك.

ذات مساءٍ من شهر نيسان، من عام ١٩٧٤، وهو طالب في كلية الطب، شارك في تظاهرة لدعم تساحال[٨] في مبنى قصر «الميتواليته» (Mutualité)، في باريس. على الرصيف، وأمام الأبواب، كان يساريون قد رسموا علماً فلسطينياً كبيراً. كان العلم قد بدأ ينشف حين وصل مع رفاقه لبث الأمان في الأماكن المحيطة. تُرِكت أسطل الدهان على شبك شجرة، مع الفراشي والقفازات. لقد حدث ذلك منذ ثمانية أعوام، وبقي القرف والاشمئزاز في أحشاء الطبيب، إذ عشية ذاك اليوم، قتلتْ فرقةُ مغاوير فلسطينية تسعةَ أطفال في «كريات شمونة».

ـ جلست على الرصيف مدة طويلة، وأنا أنظر إلى ذاك العلم. بلَّلتُ أصابعي بالألوان الأربعة: الأسود، والأخضر، والأبيض، والأحمر.

نظرت إلى الطبيب، فأشاح بنظره عني.

ـ تساءلت كيف يمكن القيام بذلك. كيف استطاع رجال تغطية دماء هؤلاء الأطفال بالدهان. لم أكن غاضباً، ولم أكن حاقداً على الإطلاق، ولم أكن أستطيع مجرد فهم هذا التصرف.

حضر في خاطري صموئيل، وحده بيننا، وهو يناشد ضمائرنا.

ـ حاولتُ أن أتصور وجه هؤلاء الناس، وأصواتهم، وحياتهم. تساءلت ما هو شعورهم بعد انتهاك تلك الحرمة.

بحثتُ عن كلمات أقولها.

ـ لقد قمنا بذلك لنُذَكِّر بآلام شعب.

نظر إليَّ.

---

[٨] Tsahal هي التسمية اليهودية لجيش إسرائيل.

ــ يوم يُقتل الشعب الآخر؟

أعتقد أنني رفعت كتفيَّ، وتلك حركة احتقار أكرهها.

ــ لم نفكر هكذا.

ــ حين كنتم ترسمون العلم، كان صموئيل يضُم قلنسوة أبيه.

ــ لا علاقة لفلسطين في إبادة يهود سالونيك.

حنى الطبيب رأسه.

ــ أعرف ذلك، لكنكم على علاقة بإبادة تسعة أطفال. وعندما أردت أن أقف، وضع الدكتور كوهين يده على ذراعي.

ــ إن ما تفعله في بيروت هو جيد، تجعل الطوائف تشارك في حلم السلام ذاته، إنه عمل صائب، وحسن، أردت أن أقول لك ذلك.

أحسست أنه دخل إلى سرنا عنوة.

ــ ثم أردت أن أقول لك أيضاً إنني قد ارتحت. أعرف الآن أن هؤلاء الذين رسموا ذاك العلم قادرون على أن يصغوا إلى آلام الآخرين.

وقف، وقد وضع ورقة نقدية بين قدحينا.

ــ عندك ابنة؟ لويز، أليس كذلك؟

هززت رأسي.

ــ ليحمك الله، ولكن إذا ألقتِ الحرب بطفل ميت في طريقك، فابكه، وكَرِّمْ كذلك شهداء «كريات شمونة»، من فضلك.

ابتسم الطبيب. مد لي يده مصافحاً، فوقفتُ لأصافحه. كانت لويز تملأ قلبي، وكذلك ضحكاتها، ودهشتها في الحياة. هناك أحمي مارون، حفيد سيمون، الذي ذُبح في الدامور، وكذلك تلاميذ مخيم شاتيلا الذين تغنوا بشعر المنفى؛ ثمة مكان كبير يجب شغله.

ـ أتعدني بذلك؟

ـ أعدك بذلك، يا دكتور.

ـ أما أنا، فسأصلي لأجل ابنتك الصغيرة.

لبس الطبيب ببطء معطفه الشتوي. لقد تغير، وبدا مطمئناً. رأيته أطول مما كان في المستشفى، وأشد عظمة، وأكثر جمالاً أيضاً. لم يسامحْ لكنه أصغى، وكان نور ذهبي يرافق حركاته.

١٧

الجوقة

في الرابع من حزيران، ظهراً، جلس الممثلون حول طاولة بيضاوية الشكل ذات غطاء أبيض من الورق المُغَضن، ووضع المركز الثقافي اليوناني صالة كبيرة تحت تصرّفنا لعطلة نهاية الأسبوع، في بناية خَرِبة في حي «بئر حسن»، مقابل الترويج له في البرنامج، ووضع شعاره على الإعلانات التي ستُطبع. على الجدار كانت هناك لوحة تصور معبد زيوس وهي تهمس مرحبة بشخصيات أنتيغون. لقد عادت المياه أمس إلى غرب المدينة، بعد انقطاع دام أياماً كثيرة، وكذلك الكهرباء. كانت إيمان هنا في بيتها، ولكي تأتي إلى التدريب هذا الصباح من يوم الجمعة، لم يكن عليها إلّا أن تجتاز طريق المطار.

وصل الممثلون الشيعة عشية ذاك اليوم، فأمضوا الليلة عند أقرباء لهم في منطقة الـ «جناح»، قريباً جداً من المدينة الرياضية. صحبني مروان مع «نكد»، الذي أخذ يردد مشاهده بصوت عالٍ طوال كل الطريق، أما يفكينيه ومادلين فقد وصلتا معاً، كما كان شأنهما دائماً، في حين رفعت إسمين المتأنقة شعرها، تاركة بعض الخصال تفلتُ فوق جبينها، كما اكتفت المربية بلبس صدرية مزهرة، فطلبتُ من كل ممثل أن يصعد إلى خشبة المسرح مع لوازم زينة. أحضر الدرزي طربوشه في كيس بلاستيكي، أخفت إيمان شعرها الأحمر تحت كوفية سوداء

وبيضاء، وتكدر شربل حين رأى الفلسطينية تصل متخفية بلباس الفدائيين. عشية ذلك اليوم، حاولت فرقة من الفدائيين الفلسطينيين اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن.

ــ قال الشاب متذمراً:

ــ لتحتفلي بهذا الحدث؟

أجابته إيمان:

ــ هذا ليس علماً، إنه منديل.

ــ كان عليَّ أن ألبس شبك أخي الحديدي، ولكننا متساويين.

كان المسيحي عكر المزاج. لقد غامر، بقطعه وحده خط عبور المتحف، فاسترجعتُ زمام الموقف قائلاً:

ــ أي شيء أتيتَ به، يا شربل؟

كان الشاب قد غلَّف عصا ذات مقبض فضي بورق جريدة، وقد كانت عبارة عن سيفٍ أيضاً.

أجاب شربل وقد انحنى عليها شأن رجلٍ مسنٍ ومنهك:

ــ إنها تمثل ضعف كريون وسلطته المطلقة.

أتى الحرس وليس معهم شيء، لكن كل واحد منهم قد أرخى شارباً وكان ينسجم بدقة مع لحية قُصتْ بعناية.

شرح نبيل مبتسماً:

ــ إن هذا المظهر لا يلفت النظر كاللباس الموحد، ويعطي تناسقاً للحراس الثلاثة، لكننا لم نتعمد المظهر الشيعي.

رمته إيمان بنظرة دكناء، ولم يُطوَ الحدث.

طلبتُ منهم، قبل أن نبدأ، أن يسجلوا الملاحظات. فبعد تلك

الأيام الثلاثة من القراءة، سنلتقي، في المكان ذاته، في ١٧، و١٨، و١٩ أيلول، من يوم الجمعة إلى الأحد، لنستفيد من أيام العطل لجميع الأطراف، ثم نلتقي في ٢٤ و٢٥ من الشهر ذاته. وفي السادس والعشرين، سيجري العرض العام، ضمن أبواب مغلقة، هنا بالضبط، وسنقدِم عرضنا الوحيد في أول تشرين الأول كما اتفقنا. وتابع: لا نستطيع أن نتدرب في سينما «بوفور» قبل هذا التاريخ لأننا لن نكون محميين. ولحسن الحظ،، تمتاز الغرفة التي نحن فيها بحجم خشبة المسرح ذاتها. إذن نتدرب في ظروف أقرب إلى الواقع، إذ لدينا قليل من الوقت، وأنا مدرك لو أننا، في حياة أخرى، لوجب علينا أن نضرب مواعيدنا بعشرة، لكن الحرب لم تعطنا إلَّا هذه الفرصة، ولا نستطيع إضاعتها.

كان كل الممثلين يدوِّنون ما أقول، ما عدا إيمان، فقد سجلت التواريخ فقط على راحة يدها.

۞

ـ هل من أسئلة؟

رفعت الشابة الأرمنية يفكينيه يدها.

ـ لم أجرؤ قط على طرح هذا السؤال، لكن لماذا أنتيغون؟

كنت أفرز بطاقاتي، فتوقفت عن عملي.

ـ لماذا أنتيغون؟ ما معنى ذلك؟

ـ إن لبنان هو بلد في حالة حرب، ولسنا مجتمعين حول نص يتحدث عن السلام. لا أحد يمد يده إلى أحد والجميع يموتون في النهاية، أليس كذلك؟

صفَّقت إيمان وهي تضحك.

أجاب شربل:

ـ إنها مسرحية تتحدث عن الكرامة.

طرح نبيل السؤال قائلاً:

ـ عن كرامة كريون أم عن أنتيغون؟

كنت سعيداً بهذا الحوار ومتضايقاً بشكل غامض معاً. فكرتُ أن هذا الحديث قد جرى مع سام، وأن موضوع السبب قد طوِي. رأتْ إيمان في هذا النص دعوة إلى التمرد، ورأى فيه «نكد» أنه برهان على الحب، ورأى نبيل ونمر أن أنتيغون ترمز إلى المدن التي تخلى عنها الله. أما بالنسبة إلى مادلين، فلقد وجدت أن أنويْ يروي العزلة المطلقة للسلطة، كما يروي هشاشة المراهقة وسرعة تأثرها.

أطلق حسين بالعربية قائلاً:

ـ أنتيغون هي صبية صغيرة وليس لها قضية إلّا نفسها.

ثارت ثائرة إيمان، وكذلك «نكد» حبيبها في المسرحية، وراح الجميع يتحدثون معاً؛ حينذاك رفعتُ ذراعيَّ.

يحب صموئيل هذا النص لأنه كُتِب في أحلك ساعات تاريخنا، حين فقدنا كل شيء، لذا، يستطيع كل واحد منكم أن يستمد منه القوة.

هزَّت المربية رأسها، كما وافقتْها إيمان، أما أنا، فقلت:

ـ إنني أحب درس المأساة الذي تعطيه هذه المسرحية، كما أحب هذه المسافة التي تبعدنا عن ابتذال الدراما. تذكروا ماذا تُعلِّمنا الجوقة عن المأساة. فهي تقول إن المأساة تمتاز بالرفعة، والاطمئنان والراحة. أما الدراما، فتَحدثُ مع هؤلاء الأبرياء، والخونة، والمنتقمين، لذا

يصبح الموت معقداً بشكل مرعب. الكل يناضل لأنه يأمل النجاة، وهذا نفعي، ومُعيب. وإذا لم ينجُ الشخص، فالأمر أقرب إلى الحادث. أما المأساة، فهي مجانية، وبلا أمل؛ هذا الأمل القذر الذي يُفسد كل شيء. أخيراً، لم يعد هناك أي جهد يُبذل للخلاص، فالمأساة هي من نصيب الملوك.

ابتسم نبيل، وراح نمر يترجم إلى حسين، الذي يصعب عليه متابعة الحديث. جاء الشيعة من دون خديجة، التي فكرت أنه من غير المجدي أن تتدرب على غرزة على الوجه وغرزة معكوسة طوال ثلاثة أيام.

فتح شربل كتابه، فعملت إيمان مثله، وتبعهما «نكد» والآخرون، فلاحظتُ أن الجميع قد وضعوا خطوطاً تحت الأسطر، كما وضعوا علامات على بعض المقاطع، وقاموا بثني بعض الصفحات. لقد اشتغلوا كلهم، وأنا كذلك، قرأت مقدمة قصيرة.

ـ إذن، إنني أمَثلُ الجوقة، فأنا آتٍ من بلاد اليونان الإغريقية، وأشكِّلُ كل ما ترك أنويْ من مسرح سوفوكليس. إنني على هامش المسرحية.؛فأنا الراوي، أقدِّمُ الشخصيات، وأروي الأحداث، وأستبقُها. إنني رسول الموت وصوت العقل معاً. سأدور وسطكم لكنكم لن تعيروني أي انتباه. تتحدثون إلى الشخصيات الأخرى بينما أوجه كلامي إلى الجمهور. إنني الوحيد الذي أهدمُ الجدار الرابع، والوحيد الذيْ أقبلُ طابع دوري التخيلي، والوحيد الذي أزيل الوهم، يراني المشاهد، ويتجاهلني الممثل. إنني على خشبة المسرح، لكنني على الهامش. لا تنظروا إليَّ حين أتلو، تكلموا حين سيأتي

دوركم ثم اجمدوا في أماكنكم. عمل صموئيل مع تقنيين، سيأتيان من فرنسا لضبط النور الذي يلاحق حركاتكم. فالشخص الذي يتكلم تُسَلَط عليه الأضواء، وحالما ينتهي يصبح تمثالاً من الملح، يبقى واقفاً، أو يجلس في الظل. وحين يُرفع الستار في نهاية المسرحية، ستكونون جميعاً هناك. يجب أن يفكر الجمهور بأحجار الشطرنج، فهي جامدة ثم تبدأ بالتحرك، من خانة إلى خانة، مدفوعة من الجوقة ومن القدر.

كان «نكد» ينظر إليَّ محركاً شفتيه. فقلبه يردد عليه بلا انقطاع أنه سيكون هيمون، في حين راحت إيمان تنظر إلى السماء، وشربل يكتب.

ــ هيا، سنستعرض الأمور بسرعة.

طلبتُ من كل واحد، أن يحدثني باختصار عن تجربته المسرحية، وأن يقرأ سطراً من النص يصور شخصيته بأفضل ما يمكن.

بدأتْ مادلين، وهي من مسيحيي المشرق، في الأربعين من عمرها، وطوال عشرة أعوام درَّبتْ فتيات من الطائفة الكلدانية، واللواتي من أخوية مريم على التمثيل. كان سجلها الطلابي بشكل أساسي مسرحيات من الكتاب المقدس. حدث مرة، وهي المرة الوحيدة، أن خانت الكتب المقدسة، فقامت بتمثيل دور دورين في ملهاة موليير «طرطوف» (Tartuffe). كانت حينذاك شابة، وكلما تحدثت عنها احمر وجهها.

ــ إننا نصغي إليك، يا مادلين.

ــ إذن. إن البداية، حين فاجأت المربية أنتيغون، بقدميها العاريتين في الصباح. كانت البنت صغيرة قد باتت خارج البيت، وانتهت من

تكريم جثة أخيها، أما المربية فتعتقد أنها كانت سراً على موعد مع شاب.

راقبتنا مادلين، وكانت الأولى في هذه الحالة من الإرباك والزهو، ففتحت دفترها، وتابعت الأسطر بإصبعها.

المربية

تتصرفين بجنون! تتصرفين بجنون! أعرف الأغنية المألوفة. كنت فتاة قبلك، ولم أكن سهلة المراس على الإطلاق، لكنني لم أكن بصلابة رأسك وعنادك، كلا. من أين تأتين، أيتها الشريرة؟

كان نبيل في الثامنة والعشرين، مثَّل مع نمر في فرقة تسترجع طقوس مسرح «التعزية» الإيرانية، والمخصصة لاستشهاد الإمام حسين، حفيد محمد، والذي قُتل في عام ٦٨٠ ميلادية كما قُتل معه ٧٢ فرداً من أسرته. كان الأخوان يمثلان رفيقيّ الحسين ويموتان بلا كلل إلى جانبه. كانا يمثلان في محيط العائلة، وكذلك في مجالس القرية، أيام عشوراء، وهي المناسبة التي تخلد هذه الذكرى.

ـــ ما المقطع الذي اخترته؟ يا نبيل؟

ـــ حين يُعِلم الحارس كريون أن جسد بولينيس قد حُرِّك أثناء الليل، يخاف من الملك خوفاً عظيماً، فيأخذ الاحتياطات، ويغطي رأسه.

الحارس

الجثة، أيها القائد. أحد ما قد غطَّاها. آه! ليس بشيء يُذكر. لم

يسعفهم الوقت لأننا كنا بالقرب من الجثة. ما هي إلّا حفنة تراب... لكنها تكفي مع ذلك لتحجبها عن النسور.

كانت إسمين تريد أن تتخصص في علم النفس؛ فالاضطرابات السلوكية التي تسببها الحرب تهمها. لقد لاحظت أن أفراد الميليشيا يخشون وقف القتال، وليس المعارك. كانت الشابة قد أدت أدواراً من المسرح الكلاسيكي في المدرسة، ثم في الجامعة. فمنذ سنتين، في عيد الميلاد في المركز الثقافي الفرنسي، مثّلتْ دور ابنة مينوس، ملك جزيرة كريت، في مسرحية ليو كاديا لأنويْ. تلت إسمين اللحظة التي أرادت فيها أن تشارك أنتيغون في عقوبة الإعدام، لكن أختها أعادتها إلى مكانها.

أما «نكد» فلم يُمثل قط. لقد انضم إلى الفرقة بفضل مروان، بعد أن تخلف ممثل درزي من منطقة الشوف. لم يقل هيمون أية جملة، بل فضّل أن يُغالي في تمثيل موته، وهو يحاكي كلمات الرسول الذي يعلن ذلك إلى الجمهور. لقد غرز سيفاً وهمياً في بطنه، شأن حماس السينما الصامتة، بيديه الاثنتين، وعينيه الغائرتين.

حلم شربل دائماً في أن يصبح ممثلاً سينمائياً؛ فبطلاه يُدعيان جيمس كوبرن وكلينت إيستوود، وغالباً ما تخيل نفسه بجانب أحدهما أو بجانب الآخر، في الشارع العريض المُقفِر في مدينة من الغرب الأميركي، ويده على مقبض مسدس محفور بعرق اللؤلؤ. وحين كان طفلاً، أمام المرآة، مثّل بعينيه، محاكياً المخططات الضخمة للسينما الإيطالية، ثم تابع ذلك. كانت تلك المرة الأولى التي يتحدث

فيها الشاب المسيحي فعلاً عن ذاته. قام بذلك دون مواربة، وهو يقبلُ ضحكات الآخرين، ثم تلا لحظته التمثيلية المفضلة، وهي حين يسعى الملك إلى أن يقدم السعادة إلى أنتيغون، عوضاً عن الموت. السعادة، تلك الكلمة التعيسة. ومرة أخرى، ترك شربل الباب مفتوحاً لإيمان، حينئذٍ وقفتْ، رفعتْ عنها كوفيتها، وبسطت شعرها أمام دهشة الجميع. أشاح نبيل بوجهه، ولم يخفض حسين ونمر أعينهما.

لم أقمْ حقاً بالتمثيل على الإطلاق، لكنني درَّبت الأطفال كثيراً على مشاهد مسرحية صغيرة مقتبسة من الشعر الفلسطيني، تلقى، وتُغنّى، وتُمثل في آن واحد. أحب، في مسرحيتنا، المقابلة بين كريون وأنتيغون، فهو يدَّعي أنه يفعل كل ما في وسعه لينقذها، لكنه لن يحرك ساكناً. إنهما فعلاً متحاربان. فهو يطلب منها أن تفهم دور الملك. فتجيبه:

أنتيغون

لا أريد أن أفهم، فذلك يلائمك. أما أنا، فإنني هنا لشيء آخر غير الفهم. إنني هنا لأقول لك لا، ولأموت.

جلست إيمان، فمطَّ شربل شفتيه بقرف.

وبدا لي أن سام قد ابتسم.

كم كنت أودّ أن يكون هنا، معنا. هناك قليل جداً من التعليمات عن المشاهد المسرحية في نص أنويْ، وهذا يثير الدوار، فهو يترك لكم خيار الحركة والنظرة. إنها فرصة كبيرة، عليكم الاستفادة منها.

رفعت مادلين يدها، وكانت تعض على قلمها.

ـ إنني أشعر براحة أكبر لو كان ثمة بعض علامات نتبعها. لا أعرف ما يفكر به الآخرون، لكنني لا أظن أن إشارة ترسم معالم شخصياتنا تكون في غير محلها.

ـ يبدو لي أن الحارس، على سبيل المثال، لا يتمتع بحد أدنى من الجدية؛ فوجوده لا ينسجم مع العقدة، فهل هو أبله أم ماذا؟

نظرتُ إلى نبيل، ومادلين، وإيمان التي كانت تهز رأسها.

ـ حسناً. سأقول كلمة واحدة لكل واحد منكم.

عدت إلى دفتر ملاحظاتي.

ـ يا نبيل، أنت، بالضبط، مصيب ومخطئ معاً. فالحارس ليس غبياً، لكن وظيفته تسيطر عليه بشكل كامل. وحين يُلقي خطبته الطويلة أمام أنتيغون التي ستموت، يُحدثها عن ترفيعه، وعن راتبه، وعن المزايا التي يتمتع بها حارس الملك، والتي تتفوق كثيراً على وضع عريف في جيش نظامي؛ إنه يُغرق المشهد بالعبثية. هذا هو المسرح الشعبي (أو ما يُعرف بمسرح الشارع) والذي يصطدم بالمأساة. يؤثر هذاالتفاوت تأثيراً كبيراً في خلق جو كوميدي ساخر. تصرَّفْ أنت شأن موظف، ينتظر العطلة، ويؤدي عمله إلى حد ما، وينظرُ إلى ساعته متسائلاً ماذا أعدتْ أمه للعشاء.

ظهرت على وجه نبيل ابتسامة رائعة، وكان يُدَوِن كل شيء.

ـ تكمنُ قوة الشخصية التي تُمثلها في أن لا شيء يؤثر فيها. العمل ثم العمل. إنه قليل الحزم، وفيه شيء من الجبن، أي بعض من كل ما تكره، أليس كذلك؟

أطلقت إيمان ضحكة وقالت:

ـ إنه دور توافقي، كما يُقال.

ـ بالضبط، فلنتحدث عن بطلتك أنتيغون. إنها فتية، مُتحمسة، ومذهولة. غالباً ما تُمَثَل أقرب إلى الجنون، مزعِجة، تضرب الأرض بقدمها شأن طفلة. هذا الكلام على صواب كبير، بالطبع، لكنه غير كافٍ. ليست أنتيغون بمجنونة، إنها قوية. فهي التي تقول لا، ويجب أن يكون رفضها للسعادة مبهماً ومغرياً معاً. إنها تريد كل شيء، فوراً أو لا شيء، لا شيء يفوق مطلبها مطلقاً. إنها تمثل أنتيغون في آن واحد شجاعتنا، وإصرارنا وهلاكنا.

راحت إيمان تكتب، هذه المرة، عشوائياً، من دون أن تنظر إلى صفحتها، ومن دون أن ترفع نظرها عني؛ فبقدر ما كانت تحدق فيَّ، كنت أعرف مدى فهمها لكل كلمة أقولها.

سأل شربل قائلاً:

ـ وماذا عن كريون؟ هل هو نذل كما تظنه إيمان أم بطل؟

أجبته إنني لا أعرف. لم يعرف أحد ذلك على الإطلاق. كان كل واحد يُدبر أمره مع كريون الذي يحكم على بابه. قلت لشربل إنه يستطيع أن يلعب دور الملك كما يشاء.

حينئذٍ أجاب أنه سيفعل كل ما في وسعه لينقذ أنتيغون؛ فهو يحبها، ويحميها، يريد أن يَفهَمها، لكنها ترفض اليد الممدودة نحوها، ويجد أن موتها لا فائدة منه مطلقاً. إنه يكره هذا الجانب المؤثر والشخصي، ويكره كبرياء هذه الصغيرة التي ورثت ذلك عن أبيها أوديب. إنه

سيذهب إلى أبعد ما يستطيع ليجنبها الموت. عبثاً، لن تموت بسببه، لكنها ستموت رغماً عنه.

كانت إيمان مرتبكة؛ فإلى أنتيغون وجَّه شربل كلامه.

أطلقت إيمان، في اللحظة التي مرت فيها أول طائرة:

ــ ما أروع دورك!

كانت نافذتان مفتوحتين، والساعة ١٥ و١١ دقيقة. سُمع صراخ فظيع، وعمَّت الدهشة الهلع، وتجمد الجميع في أماكنهم، قبل أن يندفعوا بغتة تحت الطاولة دون أن ينبسوا ببنت شفة. لقد استرجعوا ما يفعلونه في الملجأ، في حين كنت الوحيد الجالس على كرسيٍّ، أنظر إلى السقف. أوشكت أن أقف، لكن نبيل جرني من بنطالي وهو يصرخ. مرت طائرة ثانية، تبعتها طائرة ثالثة. ووقعتُ من على كرسيٍّ في اللحظة التي انفجر فيها الزجاج.

صرخ «نكد» قائلاً:

ــ إنهم اليهود!

قلبَ نبيل وحسين الطاولة ليجعلا منها درعاً، وارتطمت مادلين بشيء ما، فراحت الدماء تنزف من أنفها.

ــ يجب الخروج من هنا! أريد أن أخرج من هنا!

طوَّقها شربل، وقد جلس القرفصاء بالقرب منها.

ــ اهدئي. لا نعرف ماذا يحدث. لنبقَ معاً.

راح حسين يُكدِّس الكراسي.

صرخت بي إيمان بالفرنسية:

ـ لا تنظر! أغمضْ عينيك!

عدَلَ الآخرون عن التحدث بلغتي، وأخذوا يصرخون بالعربية. تمددتُ على الأرض، ويداي على رأسي. احتمتْ يفكينيه بي، وكانت تشهق بالبكاء، وسقط شعر إسمين على وجهها الذي يُشبه الدمية. مادلين من جهتها، كانت تبكي هي أيضاً، وقد أمسكت أنفها بيديها، أما نبيل، فأدار ظهره إلى النافذة، وفتح يديه نحو السماء، وراح يصلي راكعاً على ركبتيّه. قُصِفَتْ بيروت. كنت أرددُ تلك الجملة في رأسي لأدرك معناها. تهاوت الطائرات على المدينة. إنهم يقصفون عاصمة لبنان. شيء لا يُصّدَّق، مُقَزِز وهائل. كنت، هذه المرة، حقاً، في خضم الحرب، وقد أغمضتُ عينيَّ. إنني أرتجف، ولم يكن ذلك من الخوف، ولا من المفاجأة، ولا من الغضب، ولا من كره شيء ما. إن ما زعزع كياني هو الصدمة الفظيعة، والمتكررة، والتكسر الهائل، والعنف الفظ، والبحت، والفولاذ في كل الاتجاهات. كذلك صدمتني النيران، والدخان، وصفارات الإنذار التي تستيقظ كل واحدة في إثر الأخرى، وزمامير السيارات الجنونية، وصيحات الشارع، والانفجارات، والمزيد، والمزيد، والمزيد. اصطدمت روحي بعنف بالإسمنت المُتفَتِت، حيث التحم جلدي، وعظامي، وحياتي بالمدينة التحاماً عنيفاً. لا أحد قد لاحظ ذلك، فوسط صراخهم، رحت أبتسمُ. فكرتُ بجوزيف ـ بطرس وببندقيته التي تشبه لعب الأطفال، وطلقاته في الليل، وصرير الفأرة الفولاذية. فكرت بقنَّاصي الرينغ، وببرج رزق، وبكل مطْلقي الرصاص على المدينة، وقد ارتموا على الجدران في هذه اللحظة. فكرت بالطقطقات الباريسية التي تحدثها قنابلنا الرمانية والمسيلة للدموع،

فكرت بمفرقعات احتفالات ١٤ تموز، فكرت بالعاصفة، وبالصاعقة، وبكل هذا الصخب المُسهب في إنسانيته. كنتُ أعلك خديَّ، وأفتح فمي واسعاً، وأغلقه شأن من يمزقه. صعدَ ما في جوفي، وقبع في بلعومي. كانت ساقي تؤلمني ألماً عنيفاً شأن أوجاع الأسنان، ولم أسمع في حياتي شيئاً من هذا القبيل على الإطلاق. إذن، هكذا الحرب. قبل صراخ الناس، تُهدرُ الدماء، والقبور تسبق الدموع التي لا تنتهي والتي ترشح من المدن، تُهدمُ البيوت، وتهلع الجماعات؛ فالحرب هي صخبٌ يُكَسِّر الرؤوس، ويسحق العيون، ويُضيّق الخناق على الأعناق حتى لا ينفذ إليها الهواء. كان فرح وحشي يخترقني، فخجلت من نفسي. لم أكن خائفاً لكنني خجلت من ذاتي. كنت في الجحيم، وشعرت بالراحة، كنت مرتاحاً بشكل فظيع. خجلت من ذلك، ولن أبادل هذا الهلع بالسكون الذي كان من قبل البتة. كنتُ مأسوياً، ومنتشياً من رائحة البارود، ومن البرد، ومرتعداً من الألم. لاشك أن أذنيَّ تنزفان. تقيأ نمر، في زاويته، دون أن ينبس ببنت شفة، ولم يذهب أحد لنجدته، كما لم يأتِ أحد لنجدتي. ضربتْ قنبلة بيتنا، أو البيت المجاور، فتهاوى جانب حائط من الطوابق، مُكسراً شرفتنا.

نهض نبيل وسط الغبار الأسود، وأعطى أمراً مقتضباً. فتح البابَ على الممر، وهو يحمل كرسياً فوق ظهره.

صرخ الشيعي قائلاً:

ــ فلنخرج! فلنذهب!

أخذت كيسي المفتوح، وركضت شأن الآخرين، ثم توقفت. كانت أنتيغون مبعثرة على الأرض؛ فالكتب في كل مكان، مطوية، ومجعدة،

ومرمية بإهمال، في الجص والحصى، مع ملاحظات القراءة، والأقلام، والأكياس. التقطتُ نسخة إيمان التي كانت مجلدة بورق أزرق، تزينها زهرة تلفها الأشواك، فأصيبت البناية للمرة الثانية.

صرخ «نكد» قائلاً:

ــ إنهم يقصفون الملعب!

حين خرجت، لم نكن إلَّا ثلاثة. أنا، وإيمان، وشربل. هرب الآخرون نحو منطقة مار الياس، ورأيت ظهر نبيل، مع كرسيه الذي يستخدمه كدرع. ركضت إسمين ومربيتها إلى المستشفى العام، أما نمر فراح يطلق الشتائم نحو السماء، من أعلى مطله، منددا بالقتلة ملء حنجرته.

صرخت إيمان:

ــ هيا إلى شاتيلا!

ــ أتُريدين أن تُقتلي؟

مدَّ شربل إصبعه نحو أعمدة الدخان الأسود التي تصعد من المخيم، حيث كان كل شيء يحترق.

مرت طائرتان فوق رؤوسنا، متجهتين نحو المدينة الرياضية لقصفها، وهي التي كانت تُستَخدم كمستودع ذخيرة لمنظمة فتح، وكذلك كمخيم تدريب، كما أخبرني مروان. كانت المدينة تحترق، الإسمنت يحترق، والنيران تلتهم مخيمي صبرا وشاتيلا، وكذلك الضاحية الجنوبية. رد الفلسطينيون على الاعتداء، كما رد الناصريون، والشيوعيون، وراحت قاذفات صواريخهم تطق في كل الأماكن، ورشوا السماء غضباً ببنادق الفلين خاصتهم. كنَّا نشعر خلفنا تماماً،

من جهة برج البراجنة، بنفحة وابل رصاصهم ينطلق من صواريخهم. مرت شاحنة صغيرة ذات سطح وهي تزعق. في المؤخرة، التصق محارب بالدرابزين، وراح يطلق الرصاص على الغيوم برشاش ثقيل. كانت السيارات، في كل الأماكن، متروكة وسط الشوارع، بأنوارها المذعورة، وبأبوابها المفتوحة. ذهب شربل راكضاً نحو منطقة اليونسكو. توقف، ورجع نحونا. حلَّقت طائرات أخرى، فارتمى في زاوية جدار. جرتني إيمان نحو مدخل مسقوف حيث كان الاسرائيليون يقصفون أماكن أخرى، خلفنا، فألقى المسيحي بجسمه عليَّ، باسطاً يده، وقال:

ــ الوداع، يا جورج.

نظرتُ إليه.

ــ إلى اللقاء، تريدُ أن تقول.

ابتسم بحزن، مدتْ له إيمان يدها بدورها.

ــ الوداع يا شربل.

ترددتْ لحظة، وهو كذلك. تبادلا النظرات، وتقدم كل واحد منهما نحو الآخر، فاعتقدت أنهما، لو كانا وحدهما، ربما تعانقا، لكنّ نظرتي كانت فضولية. لم ألاحظ قط كم أنهما كانا يشكلان زوجين رائعين. لم يعد هناك أنتيغون وكريون، ولكن فتاة وشاب، شابان من عصرنا. لم يتبادلا القبل، مع أنه كان بإمكانهما القيام بذلك؛ كان عليهما أن يفعلا، ولبثتُ طويلاً في حالة من الحزن من أجلها، ومن أجله، ومن أجلي.

قال لها المسيحي قبل أن يهرب:

ــ حظاً سعيداً، يا أختي الصغيرة.

صرخت الفلسطينية حين كان يعبر الشارع:

ـ فليحمك الله.

رفع الآخر يده، وقد ابتلعه الدخان الرمادي، ثم بقينا هكذا، أنتيغون بلا ملكها، والجوقة بدون نصها. لن يأتي مروان، إنه واقف يستند إلى جدار، يراقب السماء تمزقها الأنوار المبهرة والخادعة. تخيلته، وقد حُصر في فوضى وسط المدينة، وهو يصرخ اسم «نكد» مكسراً زمور سيارته. ركضت أم على الرصيف المقابل، حاملة طفلها بين ذراعيها، وقد تدلى الشرشف الذي يغطيه شأن كفن. ناداها رجال، عند مدخل البناية، فاندفعتْ إلى هناك. فكرتُ بأورور، وهي تُصغي إلى المذياع. فكرتُ بجلدها المريض، وقد سلخه القلق. رأيت لويز. بابتسامتها، بيدها المرفوعة تحيي، وبشعرها شأن أميرة. رأيتها وسط هذا الشارع، وقد اختطف منها السلام، والشوكولا الساخنة، وشرائط ثوبها. أتت امرأة نحونا، رأيت الدماء تسيل على طول ذراعها، وقد انتُزع معطفها، واسود طرف وجهها كالشحار، وعيناها مفتوحتان كأنهما ميتتان، وشعرها حزمٌ من غبار. كانت تصرخ بالعربية، فتقف، ثم تتابع مسيرها.

ترجمت لي إيمان قائلة:

ـ لقد قُصِفَ مستشفى منظمة التحرير الفلسطينية.

ـ مستشفى منظمة التحرير الفلسطينية؟

ـ مستشفى غزَّة، في مخيم صبرا.

حاولتْ إيمانُ أن توقف حاملة الأنباء، لكن الأخيرة فلتتْ منها. لقد هربتْ شأن مجنونة، وهي تستغيث طالبة النجدة.

ـ إنني أعود إلى شاتيلا، سيحتاجون إليَّ.

ذهبت إيمان وهي تركض، وتركتني هكذا، مع محفظتي المفتوحة في طرف ذراعي.

ــ انتظري! سأرافقك!

صرخت دون أن تلتفت:

ــ لا عمل لك هناك!

ــ وكذلك لا عمل لي هنا على الإطلاق!

تبعتها، فأبطأت سيرها، ومشينا عبر الحصى حتى المخيم. لم أكن خائفاً، فتقدمت شأن من يمشي في نومه في الشوارع المذعورة، يأسرني الدخان، والضجيج، والاهتياج. كنا نصادف جرحى، وتائهين، وجماعات تشكو وتئن. ثمة امرأة تبكي ميتاً لها، وقد جثت على ركبتيها بالقرب منه، وبائع متجول مستلقٍ تحت عربته، وقد تبعثرت خضاره في مياه المجاري المبعوجة. انزلقت واجهات، وقد اقتُلعت من بنايات، وهي تجر معها ستائر ملونة، وشراشف أسِرَّة، أي الحياة من قبل. كانت إيمان تنظر إليَّ من طرف عينها؛ إنها قلقة، تراقب السماء وتعود بلا انقطاع إلى وجهي، فتوقفت بغتة.

ــ لستَ على ما يرام، يا جورج؟

وضعتْ يدها على صدري، لتجمدَ حركتي.

ــ لماذا تسألينني ذلك؟

ــ لأنك تضحك.

*

ارتمتْ على الأرض، وبقيتُ واقفاً حيث انفجرت قنبلة على بعد عشرة أزقة من مكاننا، ثم انفجرت قنبلة أخرى، فسطع نور أبيض يقتلع العيون، كما تراقصت حزم ضوئية كثيفة، في كل الاتجاهات، وكانت خصل من تلك الأكاليل الضوئية تخطط السماء وتتساقط على شكل تلافيف كثيفة، شأن دوران الغيوم التي تضربها الرياح.

تمتمت إيمان قائلة:

ـ إنه مستشفى غزَّة! إنهم مستمرون في قصف المستشفى.

انتصبتْ واقفة، وركضتْ حاسرة الرأس، وبقيتْ كوفيتها على الأرض في مقر التدريب المسرحي.

ـ إيمان!

كانت هناك ممرضة بصدرية خضراء، من جهة الشارع الأخرى، راحت تركض هي أيضاً. اندفع المخيم بكامله نحو المستشفى، فأخذتْ تصرخ ليعلو صوتها على الصخب.

ـ تقول إنها قنابل فوسفورية!

دفعت المرأتان الجمهور لتدخلا إلى البناء، فتبعتُهما، ورجلي تركض من بعيد خلفهما. ثمة نساء، ورجال، وأطفال في كل مكان، يخرجون ويدخلون، وافدون من كل الجهات.

ـ نحتاج إلى مساعدة، يا جورج! اتبعنا!

تبعتُ إيمان في السلالم المزدحمة بالمرضين الذين يستخدمون النقالات لإنزالِ الجرحى، والشراشف، والحقن إلى الأقبية. دخلنا غرفة أطفال المرضى. كان على الأرض فرشٌ زرقاء زُينت برسوم زهر أبيض، وأسِرّة من القصب المضفور. وصل للتو جريحان، ربما

في الخامسة، أو السادسة من العمر. لقد أصيبا وهما على شاطئ البحر، بالقرب من العجلة الكبيرة. فقدت البنت الصغيرة ذراعها، والممددة بالقرب من ساقها، وهي عبارة عن لحم مفروم ومِزق من القماش. كان أخوها قد طُلي بمرهم أبيض، لأن جلده محترق كما الأسمال، وقُشِطت قطعٌ منه شأن ورق الجدران.

همست إيمان قائلة لي:

ــ خذ الصغيرة.

انحنيت عليها. لم تكن تبكي، فمرّرت يديَّ تحت جسمها، ورفعتُها. كانت خفيفة الوزن جداً، فسقطتْ ذراعها من النقالة بضجة مخنوقة. بقيتُ هكذا، وقد التصقتْ بي دون أن أستطيعَ القيام بحركة.

ــ انزل إلى الملاجئ! تحرك!

كان معالجون يحملون الفُرش، وأخذ رجل طفلاً صغيراً بسريره ذي القضبان فأسْندتُ الجريحة إلى صدري، وخدّها على خدي، فأنّت أنيناً ضعيفاً، وأغمضتْ عينيها. كانت تفوح من شعرها رائحة الشواء، وكذلك من ثيابها، ومن نَفَسِها، ومن جلدها المحترق، كما لو كانت النار لا تزال تفترسه. مددت يدي لأمسك الذراع الميتة حيث كان إسوار من الكرات الزجاجية يُحيط بالمعصم الممزق. رأيت لويز، الأميرة أمام مرآتها، وعلى رأسها تاج من البلاستيك الفضي. سمعتُ لويز، بصوتها، وبأغانيها الصباحية. إنها لويز تلك التي حملتُها عبر غرفة المستشفى. فمعها نزلتُ السلالم، تباغتني ضربات من الأكتاف، ومن المرافق الخانقة، وصراخ الآخرين، والوجوه المنهكة، والجروح، والدموع. كانت إيمان أمامي حاملة الصبي شأن تقدمة قربان. أمسكتُ

طفلتي وأنا أضمها إلى صدري، ويدي كمخلب تطبقُ على معصمها المتجمد وذراعها التي تصدم فخذي.

كان اللاجئون يَصِلون من كل حدب وصوب، فهرع طبيبٌ وأخذ الطفلة في الحشد، وسط الممر، وهو ينظر إلى يديَّ العاريتين.

ـ عَقمْ جسمك، ولا تلمس عينيك ولا فمَك.

ثم رحل فجأة، واضعاً حملي بين ذراعيَّ، بقدميه الهزيلتين اللتين تدقان الأرض بخطواته الكبيرة.

كانت إيهان قد اختفت، ولم أكن أعرف ما يجب فعله.

سألني ممرض:

ـ هل أنت صحفي؟

قلت:

ـ كلا. كدت أن أجيب إنني مخرج مسرحي.

ـ يجب أن يرى الصحفيون ذلك!

ابتعد هو أيضاً، وذهب كل الناس في جميع الاتجاهات. كان لكل واحد دور. من جهتي، لم يكن لي أي دور، كنت تائهاً، لم أعد ممثلاً لأي شيء، أصبحت متفرجاً لا فائدة منه، وجدت نفسي متطفلاً، وسط الممر، يدفعني الأحياء، والمحتضرون، والموتى. نظرتُ إلى ممرضة، في زاوية الغرفة، أجلست خمسة عشر طفلاً على طول الحائط، كان معظمهم بثياب ممزقة، وبأرجل حافية. لم يكن أحد منهم جريحاً، بل كانت وجوههم سوداء من الشحار، فطلبتْ منهم أن يمسك كلُ واحد منهم يد الآخر. شكلوا حلقة بلا حراك، صامتة، وهم يمدون أعناقهم

نحو الباب بحثاً عن نظرة مألوفة. كانوا يتامى؛ استنتجت ذلك من حركات الكبار، ومن طريقتهم في مداعبة رؤوسهم حين يمرون، ومن إبداء حركة في الوجه لتطمئنهم. عرفتُ ذلك من الطبيب الذي جلس القرفصاء ليوزع عليهم العلكات، فوددت أن أكون هذا الطبيب أو هذا الطفل، أن أشعر بهذا التعاطف أو بهذا الألم.

ــ جورج؟

أقبلت إيمان نحوي، حاملة صفيحتين بيديها.

ــ أصيبتْ قنوات خلف البناء، اذهبْ لنقل الماء، من فضلك.

لم أجب، كما لم أنظر إلى الفلسطينية، ولم أرَ سوى الإناءين الأزرقين. أخيراً، كان لي عمل أقوم به، فتركت محفظتي على الأرض، وركضت نحو المخرج حيث كان عشرات الأشخاص يتوجهون نحو الماء، حاملين صفائحهم بأطراف أذرعهم. بعد ذلك، وجب إحضار الشموع، والضمادات، والخبز، والأمل. كنت مستعداً أن أروح وأجيء حتى نهاية الأزمنة، من أجل إيمان، والأطفال الجرحى، واليتامى، والمتألمين، والخائفين، والمنهكين، والتائهين، والنائحات. خرجتُ إلى الشارع، ركضتُ بين الحصى، وتبعتُ المجموعة الظمأى، وانعطفتُ إلى زاوية البناية.

لقد تمزق الهواء، فسمعت أزيز المعدن الصاخب، والتحامه بالنار، وومَض بريق أبيض مؤلم وهائل. ابتُلِعتُ، ثمة ثقب أراد أخذي، نهشتْ قلبي نفحةٌ حارقة، فمزقَتْ أضلاعي شأن قفص عصفور فخرجتْ من صدري، والتفّتْ بالتراب. أفلتتُ الصفائح، وخبأتُ عينيَّ بملء

يديَّ كي لا تُقتلعا. أطبقتُ فمي بدلاً من أن أفتحه، وأحسستُ أنَّ رئتيَّ تستعران، وكذلك وجهي، وأذنيَّ. التحمت راحتا يديَّ بخدّيَّ، وقُذِفتُ إلى الوراء، فغارتِ الأرض وساقاي معها. رحت ألطم مكاني كي أفلت من الهوة. شممتُ رائحة الخنزير المشوي تنبعثُ مني، وكذلك رائحة دجاجة يوم الأحد التي كانت أمي تنذف ريشها فوق النار. رحت أطقطق بأزيز صوت النار، وعيناي تذوبان، والضوء ينفجر خلف جفنيَّ. كان النور يومض وهو يثقب جبيني، وصدغيَّ، ورقبتي. انسد منخريَّ، ولم أعد أتنفس، فسقطتُ بعنف على ظهري من دون أن أحمي رقبتي، وكعبيَّ، ومرفقيَّ. تمزقت ساقي، وكذلك وركي، تقيأتُ أمعائي، فكانت كأفعى لا نهاية لها، زحفتْ حتى ثقب الماء الذي شكلته الحفرة.

انتُشلتُ ثم رُفِعت كما الانتصار. ثمة أصوات من حولي، من رجال ونساء. أعطِيتْ أوامر سريعة، فألقي بي على كتف، ثم على ظهر. مُدِدت على نقالة، وحُملتُ ورجلايَّ مرفوعتان، ورأسي معكوس، ويداي ملتحمتان بوجهي. كنتُ أحترق. كانت النار تلتهمني، فعلاً، شأن حطبة ألقِيَت في الموقد. أردت أن أفتح عينيَّ، فصرختُ، كمن ألقى رملاً على الأتون، فتمزَّقَ اللهبَ كأن موسى حلاقة قد اخترقه. تعرفت إلى أصوات المستشفى الصاخبة، والخطوات المتثاقلة، والأنين، وصراخ بعضهم، والرائحة، والمُعقِم، والتعرق، وكانت الحمالة موضوعة على الأرض، ورأسي يصطدم.

ـ جورج! يا إلهي!

إيمان. لن يُصيبني مكروه بعد الآن. شعرت بيدها على يدي، فنزعَتْها برفق عن خدي.

ـ يا إلهي!

جاءني صوت عربي، صوت رجل.

ـ سيغسلون عينيك، هل تسمعني، يا جورج؟ يغسلون عينيك.

رفع الرجل اليد الأخرى عن وجهي، كان أشد فظاظة، فأمسك بي مع إيمان ليسنداني. ثمة أحد قد غسل جفنيَّ المطبقين بماء غزير خلال دقائق طويلة. أحسست ألماً عظيماً، وكانت عيناي من الرمل، والدبابيس، والزجاج المدقوق، وشعرت بمذاق بحري على شفتيَّ حيث كانت ذبابات تدور، فأوشكت أن أفقد الحياة.

همست إيمان قائلة:

ـ كل شيء على ما يرام. إنه مصل مالح.

أجلسوني، وراحوا يخلعون ملابسي.

ـ كل شيء مشبع بالشظايا، ويجب أن تتخلصَ من ذلك.

شددت على يد إيمان، ورحت أكسر يد أنتيغون، إذ ماذا سأفعل لأبكي.

لم أقل ذلك، لكنني فكرت فيه. فكيف يستطيع المرء أن يبكي من دون عينيه.

ـ انتبه، سيفتح الطبيب جفنيك.

جاء صوت رجل آخر، حانقاً. قام بحركة مباغتة، وأعطى أمراً جافاً.

ـ كلا، لن يفتحهما، يجب متابعة الغسل، سنأخذك إلى غرفة العمليات.

ـ يا للبشاعة!

كانت تلك كلماتي الأولى كأعمى، فسكتتْ إيمان.

ـ أرجوكِ، قولي لي.

طرحت إيمان أسئلة بالعربية، فأجابها الرجل. راحت تترجم كلمة من عشر كلمات، ويدها تُسحقُ في يدي.

ـ لقد أصبتَ بحروق. ثمة تمزق في الجفنين، لا نعرف بعد هل هناك شظايا في القرنية، أم جروح.

كان صوت الرجل ذاته، فترجمتْ إيمان قائلة:

ـ حاولْ أن تفتح عينيك.

يستحيل عليَّ ذلك. شعرت بالغثيان، وبألم في الرأس.

ضغطَ بإصبعيه، فأحسست ألماً فظيعاً.

ـ حسناً.

كان الظلام مطبقاً تماماً.

ـ أدرْ عينيك نحو اليسار، ونحو اليمين. يجب أن يدخل ماء النصل إلى كل مكان، لكنني سمعت صوتاً عربياً.

ـ ماذا قال؟

ـ لا شيء.

ـ إيمان!

ـ إنه يبحث، وينظر إذا كانت القرنية قد أصيبتْ بالحروق. إن كان هناك ثقب في العين، أو كسر في المَحجر أو تمزق في المقلة.

ـ ألا يجد شيئاً؟

ـ إنه يُفتش.

عاد الصوت، والترجمة.

ـ هل طُعِّمْتَ ضد الكُزاز؟

وما أدراني بذلك؟ ربما نعم، وربما لا. ضد النزلة الوافدة أيضاً؟ لقد فقدت عينيَّ. كنتُ في مستشفى يُقصَفُ، على بعد حياة من بيتي، مستلقياً على الأرض، محاطاً باليتامى، يُمزِق الألم رأسي. لن أرى شيئاً بعد الآن، لا شيئاً البتة. لقد أُكِلتْ عيناي، كانتا تسيلان على خديَّ شأن بيض مكسور: البياض، والصفار، والقشرة التي تخدش.

ـ هدئ من روعك، يا جورج. عاد الصوت، والترجمة.

ـ عندك وذمات في الجفنين، لكن ليس هناك تشوه في البؤبؤ.

تركت يدها.

ـ لا أفهم شيئاً، يا إيمان. كفى.

ـ تطلب مني أن أترجِمَ، وها أنا أترجمُ.

حاولت أن أنهض مستنداً إلى مرفقيَّ، فسقطتُ. كنتُ عاري الصدر، بسروال قصير، بلا حذاءين، وبلا جوربين. كنت خجلاً من جسمي الذي هو عرضة للأنظار. فوضع أحد ما غطاءً فوق ساقيَّ.

ـ اسأليه هذا السؤال فقط:

ـ هل سأفقد عينيَّ؟

جاءني صوت إيمان، بسؤالها المتردد، ثم تبعه جواب الرجل.

ـ عندنا دائماً عينان لا لزوم لهما.

*

أمضيت الليل بكامله في ممر مستشفى غزة، وسط تأوهات أخرى، وكانت الضمادات التي تحمي حروق ذراعي، وجبهتي وخديَّ رطبة باستمرار بفضل النصل. بقيتُ صائماً، تحسباً لتدخل جراحي، وكنتُ مكبلاً بالأنابيب. فكرت بسام، هو في سريره، وأنا على نقالة.أعطيت لإيمان رقم هاتف أورور، وكان عليها أن تطمئنها: لقد أُصِبتُ بجرح طفيف أبقاني بعيداً عنها. كانت عيناي مسدودتين، أولاً بالضمادات العينية، ثم وضعتْ عليهما قوقعتان من الكرتون ثُبتتا بشريط لاصق. في السهرة، تبادل الأطباء الشتائم بخصوص اختيار التدابير الوقائية. كانت إيمان تترجم ما يُمكنني فهمه. بدأ الألم يخف، ولم يكن ذلك بمؤشر إيجابي، إذ يمكن لألم لا يُطاق أن يرافق جرحاً بسيطاً ووخزة خفيفة تخفي جرحاً عميقاً. لا شيء يتوافق مع ما كنتُ أظن. لقد أصبتُ بشظايا في منتهى الصغر في القرنية، وغُرِزت قطعة خشبية في حُجاج عيني اليمنى. كنت أتناول مضادات حيوية، وكذلك حبوباً للغثيان وللتقيؤ، كما أجروا لي بزْلاً، ونظفوا عينيَّ بماء غزير مرات ومرات. سمعت مرة كلمة «إخراج الأحشاء». كان الصوت انكليزياً، إذ ثمة أطباء انكليز يعاضدون زملاءهم الفلسطينيين، ثم تحدثتْ إيمان عن ملاقط، كي تُنزع الشظية، كما تحدثتْ عن لأم، وعن خيوط لخياطة العين.

في ٥ حزيران، حين كان الأطباء يُنقِبون في قرنية عيني، حلَّقتْ طائرات إسرائيلية فوق المدينة. قالت لي إيمان إنهم قصفوا النبطية، والدامور، وقلعة الشقيف، وقطعوا الجسور في جنوب البلد. فكرتُ بنبيل، وبنمر، وبحسين، وبحراس كريون. رأيتُ خديجة العجوز، بدور أوريديس التي تتكدر لأنها ستقتل نفسها. لقد أقسمتْ إيمان لي

أن الجرَّاح قد قام بعمله أحسن قيام إذ كان في عينيَّ غبار من الزجاج، ورماد من الأخشاب، وذرات حديدية بالغة الصغر. لقد سحَبَ من عينيَّ ما يكفي لإعادة بناء المستشفى. أجابت أنتيغون مطولاً عن دموع أورور، وحاولت جهدها أن تُطمئنها، وأقسمتْ لها إنني لا أتحدث إلَّا عنها، وعن ابنتنا.

في مساء اليوم الثاني، جاء ياسين بالقرب من سريري، وأمسك شقيق إيمان يدي، ففوجئت بهذه البادرة، وشكرني من أجل تراب يافا. إن إيمان هي التي ستحتفظ بحصته من الكنز الذي سيكون في مأمن أكبر في بيتهما في شاتيلا عنه في سترة محارب. لقد صبتْ أخته هدية سام في كيس مذهب، ثم علَّقته على مفتاح أجدادهما، على ساعة جدار غرفتها. كان هذا المفتاح قد قفل بيت الأسرة في يافا، في شباط من عام ١٩٤٨، مساء طردهم، وهي ستفتحه صباح العودة الكبرى. لقد أقسم كل من إيمان وياسين أن يذروا التراب في الحديقة المسترجعة، حين سيجتازان العتبة.

شرح لي أن بيروت قد انقطعت عن العالم، فقد قُصِفَ المطار، وللخروج، يجب عبور الخط الأخضر، والذهاب إلى مرفأ جونيه المسيحي للوصول إلى قبرص.

ـــ ومسرحيتنا؟

قلت له لم يبقَ أمامنا سوى قليل من الوقت، وقليل من جلسات التدريب، وإن علينا جمع شملنا كلنا، فلقد تفرقنا بشكل عشوائي، دون تحديد موعد، وإن الأول من تشرين الأول ثابت بالنسبة إلينا. ويستحيل الآن وقف ذلك، كما أن الكل موافقون، الشيعة، والمسيحيون، والفلسطينيون، وفات الوقت للتراجع.

ــ لم يعد لدينا وقت للتراجع، يا ياسين.

كانت عيناي تحترقان من الدمع، فأخذت ذراعه بكلتا يديَّ.

ــ هل تدرك ذلك؟ لم نعد نستطيع وقف المسرحية!

كان يدرك ذلك، أجل. بالطبع كان يفهم، حتى إنه سيأتي ليرانا على المسرح. سيأتي وحده، أو مع رفاقه بالسلاح، حسناً. سيترك بندقيته على الباب، وسط البندقيات الأخرى. سيحاول أن يحصل على مكان جيد، في الصفوف الأولى؛ قد أستطيع أن أؤمِن له ذلك؟

توقفت عن التنفس. كنت أعرف ذاك الصوت. إنه يكذب. إنه الصوت الذي يسمعه المشرف على الموت. إنه الصوت الذي يتحدث عن الأيام الآتية، من الصيف القادم، والذي لن يأتي مطلقاً، عن تلك الأشياء التي لا تُعد والتي سنعيشها معاً. إنه الصوت الذي يتصنع الضحك كي لا يبكي، فهو الصوت الذي يُزين الموت، ويترنم، ويواسي، ويُسبغ البلسم على القلب. إنه الصوت الذي يلف الشراشف، ويُغلق الباب ثم النعش. إنه الصوت الذي لم يعد يُصدق كلمة واحدة تُقال عن الحياة.

ــ وأنا أحب أن أكون في المقصورات الأمامية حين ستفتح باب أجدادك، فهل تستطيع أن تؤمن لي ذلك؟

كان عليَّ ألَّا أتفوه بذلك. ما قلته مثيراً للاشمئزاز وغير عادل. أردت أن أعتذر، لكن ياسين لم يترك لي الوقت للاعتذار، فلقد انحنى، واضعاً يده على ذراعي، فشعرت تنفسه بالقرب من عينيَّ، وهذا الضغط الأخوي عليَّ.

ــ أنت الذي ستُدَوِّر المفتاح في القفل، يا صديقي.

ثم وقف، فجاءت إيمان، وكان صوتها فوقنا تماماً.

ـ جورج؟

أخذت إيمان مكان أخيها، وضمّتْ ذراعيَّ إلى صدري، إذ منذ أن خفَّتْ آلامي، لم نعد نمسك أيدي بعضنا. كانت تنبعث مني رائحة التعرق، والقذارة، والنار. كنت في نفق من الهمس والصراخ. أعطوني إبرة كي أنام، فنمتُ مع أنتيغون التي بقيتْ طوال الليل معي، وقد استلقتْ على غطاء بالقرب مني.

في الصباح غيرتْ ضماداتي، ولم تعد تسعى إلى طمأنتي. كانت تُنشف جروحي المتقرحة، وجلدي الممزق. كان الرجال، حولنا، يتحدثون بصوت عالٍ. ثمة امرأة تبكي، وفي الخارج، كان الشارع يطقطق بأصوات الأسلحة الآلية.

ـ ماذا يحدث؟

أجابتني إيمان قائلة:

ـ لقد اجتاح الاسرائيليون لبنان.

سألتني أنتيغون:

ـ ماذا سيفعلون لقتلي؟

كان عساكر قوة الفصل الدولية العاملة في لبنان (FINUL) التابعون للأمم المتحدة والذين يُعرفون بالقبعات الزرقاء، قد أزيحوا بقوة. حوصرت مدينة صور، وكذلك النبطية، وحاصبيا، وقُصِف مخيم الرشدية. قطعتِ الدبابات مدينة صيدا، ولم يعد لمطار بيروت وجود.

ـ ستعود الطائرات، يجب نقلك من هنا.

احتججت عبثاً، وقلت إنني سأبقى هنا، في ممر الموت هذا. فهنا

مكاني، ولا أحد يستطيع أن يطردني منه، لكن ياسين قد اتخذ قراره، وتبعته إيمان.

في بداية بعد الظهر، جاء مروان ليأخذني من المستشفى. جمعَ ملابسي، وأخذ محفظة أوراقي، وجرني من هناك، فرفضت أن أمشي خطوة. حينذاك نقلني ياسين مع أخي الدرزي حتى السيارة، وقد أمسكا بي من إبطيَّ، وقدماي تُجرجران. قد يظنُ بعضهم أنها عملية خطف، لكنني لم أكن أصرخ. وضعاني على المقعد الخلفي، وقد مدداني على أغطية، كما وضعا وسادة تحت رقبتي. كانت إيمان تتحدث إلى مروان، وتعطيه التعليمات لكنه لم يكن يُجيب. يا لشجاعته بالمجيء حتى هنا، وسط مخيم شاتيلا الذي يغلي غضباً، ليخطف صديقه الفرنسي. كنت مستلقياً على ظهري، في الحر، سجين ظلمتي الجديدة، والألم يعصرني، وتحيط بي كل تلك الأصوات الغريبة. انحنت إيمان عليَّ.

ــ شكراً على كل ما فعلتَ.

ــ لم أفعل شيئاً.

ــ لقد أعطيتني قوة أنتيغون.

ــ إنها تُرهات.

ــ تدبرْ أمرك مع ذلك.

وضعتْ يدها على جبيني، ثم أغلقت باب السيارة، كما يُدفَع الباب على طفل مريض. صعد مروان إلى المقدمة، وأطلق زموراً ليُفسح الطريق للسيارة.

قال لي صوت عذب:

ــ سترتاح.

انتفضت.

ــ «نكد»؟

ــ نهارك سعيد يا جورج.

كان هيمون هنا، معنا. مرر ذراعه بين المقاعد ليشُدَّ على فخذي.

ابتعد الخطر.

أضاف الأب قائلاً:

ــ ستأكل، وتنام، فتعود إلى فرنسا متجدداً.

لم تكن السيارة تتجنب الأخاديد، فخرجت من المخيم كمن يولي الأدبار.

ــ إلى أين نذهب؟

أجاب مروان بصوته الرخيم، والواثق، والجميل:

ــ إلى بلدة عاليه، إلى بيتنا، في الجبل.

قلت:

ــ أهلاً وسهلاً.

أظن أنهما قد ابتسما. تمنيت للابن وكذلك للأب ما قلته وهو موجود في قلبي أيضاً، حيث كان لهما أسرة وأرض.

١٨

«نـكـد»

شعرت بيدَيْ «نكد» تعتنيان بي، بعد أن كانت إيمان تقوم بذلك، فكان يغسل عينيَّ صباحاً ومساءً برهافة فائقة، ويُغيّر أضمدتي شأن طبيب عجوز. وبعد أسبوعين من وصولي إلى «الشوف» حاولتُ أن أنزع القشرتين اللتين تحميان عينيَّ، فدخل النور شأن حربة، ليسحق صدغيَّ ورقبتي.

راح «نكد» يردد على مسامعي:

ـ أمامك الحياة كلها لترى.

وحين يأتي لي بالشاي أو بالقهوة البيضاء، كان يشنف أذنيَّ ببعض الردود المسرحية؛ حتى إنه يتخذ أحياناً صوت أنتيغون، ويحلقُ ذقني كل ثلاثة أيام أيضاً، وكان ذلك مربكاً وخطراً، بعدها يُطْبقُ على أرنبتي أنفي بين إبهامه وسبابته، رافعاً ذقني، واضعاً إصبعين تحت أذني كي يُدير وجهي قليلاً.

ذات ليلة، أحضر لي «نكد» مرآة، فتأملت من انعكاس وجهي فيها. كان بياض عينيَّ دامياً، يعض الحدقة مشكلاً هالة بنية، في حين كانت القزحية اليمنى منقطة، تشوهها بقعة رمادية. وفي كل مرة أطبق فيها جفنيَّ، كانا يجرفان الرمل الحارق، ومع ذلك، كنت محظوظاً، حسبما

قال لي الأطباء؛ فصحيح أنني فقدت بعض النور، لكنني احتفظت بعينيَّ سالمتين.

كنا بعيدين عمّا يجري، ولقد روى لي رسولي «نكد» أن الشيعة في النبطية، قد استقبلوا الإسرائيليين بالخبز، ورشوا الأرز على دباباتهم؛ حتى إن جيش الدولة اليهودية قد سمح لهم بالاحتفاظ بأسلحتهم وبمواقعهم، باعتبار أنّ عدوهما واحد.

كنت ضائعاً، فكرتُ بحرّ أسي: نبيل، وحسين، ونمر، الذين كانوا يقولون إنهم مستعدون أن يموتوا دفاعاً عن حدودهم، وتخيلتُ خديجة العجوز ترفعُ يدها لتحيي نجمة داوود.

لم يكن الدروز يحاربون الإسرائيليين مطلقاً، وحين سألت مروان عن السبب، بدت منه إشارة غامضة؛ فشرح لي أن الكتائبيين، مسيحيي الشوف والمتن، هم أعداؤه، ويجب أن يسترجع منهم كل شبر من الأرض، بقوة الأسنان، بعد انسحاب تساحال. تلفظ بذلك الاسم وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة عبرية من فم لبناني.

في ١٣ حزيران، كانت بيروت محاصَرَة، ولويز مصابة بالتهاب حاد وتقيُّح في أذنيها، كما أصابها ذباح في الحلق والتهاب في الجيوب الأنفية. لقد تم الوصل بين القوات الإسرائيلية والميليشيات المسيحية، وكان الطبيب قد غادر أورور، تواً، حين نجحتُ في طلبها بالهاتف، في الوقت الذي كانت فيه عاصمة لبنان تُقصف من الجوّ والبحر والأرض، وقد تلقت ابنتي علاجاً بالمضادات الحيوية لمدة عشرة أيام.

قالت لي أمها:

ـ إنها تطلب أباها.

أعرف ذلك، وأنا أطلبها أيضاً، بصوت خافت حين يعاودني الألم.

ذات مساء، كنت أمشي مع «نكد» في أحد شوارع القرية، أمسك بذراعه، شأني شأن رجل عجوز، وهو يحدثني عن الحرب. يتولى التعبير عنها؛ كانت المياه مقطوعة عن بيروت، وكذلك الكهرباء، ولم يعد هناك شيء. لقد أسس بعض الشيعة حركة أطلقوا عليها اسم حزب الله كي ينطلقوا إلى القتال مجدداً.

قال لي:

ـ بعد السوريين، ها هم الإيرانيون يتدخلون بدورهم.

رحت أصغي، ورأسي يؤلمني لأنني لم أعد أفهم شيئاً.

ـ يا «نكد»، لن نمثل أنتيغون مطلقاً.

جلست بالقرب منه، على حجر عريض، عند حافة الطريق، فسألني الشاب قائلاً:

ـ أترى أشجار الأرز، من هنا؟

أشار بإصبعه نحو قمة الجبل، فرحت أغضِنُ عينيَّ، وتمكنت من مشاهدتها. كانت عشر شجرات، شأن قطيع مشرف، ورعد السماء ينذر بحلول عاصفة.

ـ وأبعد من ذلك؟ هل ترى القرية، هناك؟

أجل، كنت أراها؛ نظرتُ إلى أنوارها البعيدة من خلال دموعي. كنت أصغي إلى صمت السلام، مغتاظاً لوجودي هنا. لقد استمر القُصفُ على مخيم شاتيلا من دون هوادة، ففكرت بإيمان، تخيلتُها في

قبو، وهي تضم أطفالاً تحت حجابها. فكرت بشربل، أيضاً، وهو ينظر إلى الجنود الإسرائيليين يمرّون. وفكرت بجوزيف ــ بطرس الذي سيريهم مسدسه ذا القبضة المنكّلة وهو يضحك.

عشية ذاك اليوم، كان الإسرائيليون قد مشَّطوا الجبل، ثم دخلوا بلدة عاليه، وكنت بصحبة «نكد» حين مرّت أول مركبة. رمت طائراتهم في سماء بيروت منشورات تأمر فيها المدنيين بمغادرة المدينة، في حين كان الناس، هنا، يشربون من النبع، بهناء، وقد أسندوا بنادقهم إلى حافة البئر. وحين اقترب القرويون من الجنود، ردوا عليهم مبتسمين، فامتدت الأيادي للمصافحة، وكان المدنيون اللبنانيون والعساكر الإسرائيليون يتحدثون اللغة ذاتها.

همس لي نكد قائلاً:

ــ إنهم دروز.

رأيت مروان ثانية، فكان متضايقاً، ومنزعجاً من فكرة النضال ضد المحتل؛ لقد أدركت حينذاك ما يجري، فإسرائيل تحتل الشوف على يد بني جلدته.

*

استمر القصف طوال شهر تموز، والطائرات تمر فوقنا لتسحق بيروت، وكان عرفات قد دعا إلى المقاومة.

تنبأ مروان بما سيحدث قائلاً:

ـ سيفاوض على رحيله.

لم أصدق ما سمعت.

كل صباح، كان يذهب إلى العاصمة. صار سائقاً لثلاثة صحفيين فرنسيين، يدفعون له أتعابه بالدولارات ونقداً. وبعد عدة أيام، ربح الدرزي مبلغاً استطاع أن يبتاع به سيارة مرسيدس مستعملة.

كان يعود في نهاية كل أسبوع، حاملاً أخباراً مهمة. لم يُصَب بيته في منطقة الحمراء بأي أذى؛ كما لم يتأثر فندقي بشيء. ذات مساء من شهر آب، رجع وهو يرتجف؛ لم يرَ في حياته مثل هذا الطوفان من الحديد قط. لقد أصيب صندوق سيارته بثُقوب من جراء تطاير الشظايا، وأمامه، سائق قد أصابته إحداها في بلعومه.

حين كان يروي ما شاهد، تخرج زوجته من الغرفة، إذ إنها لم ترغب في رؤية الأبنية منهارة، ورفض سماع بكاء الأطفال. كانت تخشى الأشباح المذعورة التي أهلت بها الجادة البحرية. لم ينم مروان، في تلك الليلة، وقال لي إنه قد شاخ كثيراً، وإنه في منتهى التعب. مكث أمام بيته، جالساً على كرسي، وهو يحمي سيجارته من الريح في راحة كفه، وقد لحقت به بعد العشاء، فبقينا هكذا، جريحَين صامتَين.

تمتم الدرزي قائلاً:

ـ لن يبقَى منَّا شيءٌ.

تحسنت صحة لويز، لكنها بقيت تسعل، فأوصى الطبيب بإجراء فحوص في الأسبوع التالي. حدثتُها بالهاتف.

صرخ أحد الجيران قائلاً:

ـ الاتصال لك! يا «نكد».

كان يمضي أيامه محاولاً الاتصال بأولاده في لندن، وهو يدقدق على قرص الهاتف لاستثارة حرارة الخط، فهرعنا حتى بابه. كانت سماعة الهاتف مرفوعة وملقاة فوق الطاولة، فرحت أرتجف وأنا أطلب رقمي. كانت أورور مذعورة، فراحت تتحدث بسرعة كبيرة، وتريد أن تعرف كل شيء، عن عينيَّ، وعن القنابل، ومتى سأعود؟ ولكن متى؟ لا بد أن عندي فكرة ما عن تاريخ عودتي. طلبتُ منها أن تعطيني الصغيرة، بسرعة، الآن، قبل انقطاع المكالمة.

ـ تكلمي، إنه بابا.

جاءني صوت عصفور، ورسوم متحركة، وبطة تنتصب عالياً. لم أفهم كلمة واحدة مما تقول.

رددتْ أورور قائلة:

ـ إنه بابا، قولي له نهارك سعيد.

سمعت ضحكة، وخربشة، وصرير فأرة، وصوتاً ناعماً جداً، تُقَطِّعه خشخشة الخط، فوقعتُ على الكرسي، ورحتُ أرددُ «حبيبتي»، «حبيبتي»، «حبيبتي»؛ ولم أعد أهتدي إلى الكلمات. تناهت إليَّ ثانية ضحكتها التي تشبه صوت الضفدع؛ إنه صوت احتكاك البشرة على السماعة، ونفحة قريبة جداً، وصوت يزعق. سمعت سعالاً قوياً، ثم لم أعد أسمع شيئاً. لا حرارة في الخط ولا ذبذبة؛ كنت أسمع نبض دمائي فقط. نظرتُ إلى الجهاز الميت، وضغط الجار مرات كثيرة على اللاقط، ثم بدر منه تعبير آسف. أحسست بيد نكد تلقى على كتفي. لم أشكر مضيفنا، إذ كنتُ شأن الأعمى، فتركتُ نكد يقودني خارج

الغرفة، وخارج هذا البيت. جررتُ ساقي على الطريق الترابي، يمسكني خطيب أنتيغون، ولم أعد أرغب في رؤية شيء، ولا أن أنظر إلى شيء. أغمضت عينيَّ حتى غرفتي، فتمددت فوق سريري وطلبت من نكد أن يخرج. أردتُ العودة إلى بيروت، واجتياز خط المتحف، والذهابَ إلى مرفأ جونيه، والإبحار على متن أول مركب لأضعَ قدمي في قبرص، وأصعدَ إلى الطائرة، وألصقَ جبيني بكوّتها، وأصلَ إلى باريس. كنت أبغي زوجتي وابنتي؛ اشتقت إلى غرفتي، وسريري، والخبز الطري، وحمَّامٍ ساخنٍ، وكأسٍ من النبيذ الأبيض. أردت أن يحملوني، ويُبعدوني، ويُنقذوني. نمت بملابسي، وبحذاءيَّ، وقد غطتِ الوسادة عينيَّ ضاغطة بقوة.

*

حين عاد مروان من بيروت، أطلق بوق سيارته ليدوي طويلاً، وخرج من سيارته، بخطوة راقصة.

ـ رحل الفلسطينيون، إلى جهنم! وكذلك السوريون. قضي الأمر!

أبحر عرفات وجماعته إلى تونس، وصنعاء وعدن، حاملين أسلحتهم الخفيفة. كان مروان في المرفأ، وروى لنا كيف كانوا يطلقون الهتافات في الهواء كأنهم قد ربحوا المعركة. فكرت بياسين، إذ لا بد أنه على ظهر السفينة؛ كنت آمل ألَّا تكون إيمان قد تبعته.

ـ هل اصطحبوا معهم النساء والأطفال؟

لم يرَ صديقي إلَّا مقاتلين، وكانت النساء تهلل لهم، لكنهن لم يبحرن معهم.

في المساء، غسل لي مروان عينيَّ بنفسه، على ضوء المصباح الأصفر، طالباً مني أن أدير عينيَّ يمنة ويسرة. لقد سره رؤية تحسن حالتي. وحين كان يمسح وجنتي، راح يعد الصباحات القادمة. كنا في ٣١ آب، فخلال خمسة عشر يوماً، سوف ينزلني إلى المدينة؛ فقد أوصى بتأمين تكسي يعبر بي الخط الأخضر لأنه لم يكن في استطاعته القيام بالمهمة. ولكن السائق البديل رجل موضع ثقة، فهو أرمني، ومسيحي مثلي.

خلدت إلى النوم شأني شأن ميت، وكذا كان الأمر بقية الليالي الأخرى، فقد تعودت على سكون الجبل. في مساء الثالث عشر من أيلول، جاء نكد ينضم إليه على المصطبة، فحدثني عن أنتيغون قائلاً لي إن كل شيء لا يزال ممكناً، وإنه باقٍ هنا على الدوام، وكذلك إيمان، على الأرجح. كما أن إيجاد شربل سهل جداً، والشيعة حريصون حقاً على عرض المسرحية. نظرت إلى هيمون، ولم أعد أعرف شيئاً؛ قال لي إن العرض سيكون أكثر جمالاً وأشد ضرورة، بعد هذه المحنة. كنتُ أنظر إلى الجبل، ورحت أفكر بمسرحنا، وباتفاقنا، وبالبنادق التي ألقيناها، فبدا لي كل شيء من زمن آخر. تردد «نكد»، ثم وضع يده على ذراعي.

ــ إنني أحبك كثيراً، يا جورج.

ابتسمت قائلاً:

ــ وأنا أيضاً.

كرر قوله:

ـ أما أنا، فأحبك.

راح الشاب الدرزي يُحدق في الأرض. بدا خائفاً من كلماته، أما أنا ففقدتُ الحركة، وكذلك الصوت. فنظرتُ إليه، إلى عينيه الهاربتين، وشعره الذي تداعبه الريح. كان عليَّ أن أضع يدي على كتفه، وأقترب منه، أو أتحدث إليه. لم يسعني تركه وحيداً بعد هذا الاعتراف. لم أستطع حقاً.

قلت بصوت يُصفر:

ـ أنت على حقّ. يجب متابعة أنتيغون.

رفع رأسه.

لا يزال أمامنا شهران، لذا يمكن تمثيلها.

كان يراقبني، وراح نظره يبحث عن نظري.

ـ شرحتُ له أننا سنتدرب في ١٧ أيلول و١٨ و١٩ منه، لكن الوقت يكاد يحصرنا لأنني عازم على العودة إلى باريس، ومع ذلك نستطيع أن نلتقي كما هو مقرر في ٢٤ و٢٥، أليس كذلك؟

ابتسم ابتسامة رائعة، مُحِبّة، عذوبتها لا متناهية، ولم تعد عيناه تفارقاني. كنت أتحدثُ بسرعة، بسرعة كبيرة جداً، ورحت أصفُّ التواريخ، والأرقام والأسماء كمن يرمي أحصنة في المعركة، فرفع يده عن ذراعي.

ـ إذن، نقدم البروفة النهائية في ٢٦ أيلول، أتتذكر ذلك؟ ويكون العرض الافتتاحي أول تشرين الأول كما هو متفق عليه.

لن نغير المواعيد، فلم يكن ذلك ممكناً، لأننا إذا بدأنا بتعديل التواريخ، فلن يعود متبقٍ أمامنا سوى تغيير المسرحية ما دمنا نقوم بذلك، فضحكتُ ضحكة متصنعة، وصاخبة، وزائفة. وتابع: ستتكفل

إيهان بالاتصال بالمربية وبإسمين، وسأتصل هاتفياً بنبيل وكذلك بشربل حين يستتب الأمن، إذ لا مصلحة لهما في التخلي عني الآن، وإلَّا ستقوم الحرب بيننا! أطلقتُ الضحكة البلهاء ذاتها. وسالت دمعة عرق على ظهري، ومضيت في حديثي فتكلمتُ عن لوحة الإعلان التي يجب إعدادها، كما عن الدعوات، والأضواء الكاشفة، فعاودني اللهاث المؤثر نفسه.

تنشق نكد الهواء، ونظر إليَّ ثانية، ثم وضع يده على فخذي.

ــ لا تقلق، يا جورج، كل شيء على ما يُرام.

ثم وقف، ففتح ذراعيه، وتمطى بقدر ما أمكن أمام الجبال السوداء، فأحسست كأنني ممثل بلا نصّ، وبلا حركة، وكذلك بلا أناقة ولا جمال.

ــ أرجوك ألَّا تحدثَ والدي بذلك.

هززت رأسي فجأة.

كانت الابتسامة تعلو شفتي نكد، على الدوام.

ــ مهما جرى لنا، سنمثل أنتيغون، وسأكون بطلك هيمون.

نظر إليَّ.

ــ هل تعرف لماذا؟

هززت رأسي بالنفي.

ــ لأن الدرزي يؤمن بالتقمص.

*

قال لي مروان في إثر عودته من بيروت:

ـ يُدعى ابني نكد، وليس موليير، ولن أتركه يموت على خشبة المسرح كالدمية.

كنا عائدين للمرة الثانية من الجبل بسيارته الحمراء القديمة، التي يقودها ببطء ليتجنب هزهزة الطريق. بدا متوتراً، وقلقاً وغاضباً. وقبل يومين، قُتل رئيس الجمهورية، ورئيس حزب الكتائب، بشير جُمَيّل، في وسط الحي المسيحي. وانتقاماً لذلك، اجتاح الإسرائيليون غرب بيروت وتمركزوا حول المخيمات الفلسطينية العزلاء. لذلك كان مروان يخشى ضربة انتقامية شنيعة تنهال على البلد.

كانت عيناي تؤلمانني، لكنني كنت بلا ضمائد، وأيضاً من دون واقٍ أو قطعة قماش رطب. فقط، وضعت نظارتين داكنتين لتحميهما من نور الصيف. باختصار، لم أفقد عينيَّ.

ـ يا مروان، لقد مات موليير في بيته.

ـ هذا لا يهمني. لقد مات متنكراً، وليس كما يموت الإنسان.

ـ إن ابنك رجل، وأنت تعرف ذلك حق المعرفة، وهو ممثل قدير.

قطب مروان حاجبيه، ورفع ذقنه؛ كانت تلك طريقته في التعبير عن زهوه.

كان قد علَّق سبحته على مرآة السيارة وأغلق المذياع. إنه يخاف عليَّ، وأنا أعرف ذلك، وعندما نظر إليَّ قال:

ـ هل تجد أن «نكد» يُحسِن التمثيل؟

ـ إنه أجمل من يمثل دور هيمون، وهذا يفوق آمالي.

ـ أسألك ببساطة إن كان يُجيد التمثيل.

ــ إن قلبه هو الذي يتكلم. لقد رأيتَه بأم عينيك، أليس كذلك؟

هز مروان رأسه، وكان ابنه يُجيب على أنتيغون وكأنه رجل يُقدم إلى امرأة حبه وحياته، وهذا حقيقي. لقد وافق عليه، لكنه راح يقول كذلك إن الحرب قد أدركتنا، وإنها فتحت عينيه؛ فما كان ممكناً قبل الاجتياح الإسرائيلي في ٦ حزيران، لم يعد مقبولاً الآن.

ــ إنك لا تُحب المسرح.

ضحك.

ــ إنني أحدثك عن لبنان.

ــ وأنت لا تحب الممثلين.

نظر إليَّ نظرة خاطفة.

ــ ليس ممثليك، كلا. وتابع: ما حاولتَ القيام به لم يعد له معنى اليوم، لقد خلطتَ الإخوة والأعداء من دون سبب.

ــ لنبنِ معاً حلماً.

ــ عن أي حلم تتحدث؟ إنهم يتلون نصك، لكنهم يعرفون تمام المعرفة أن ذلك ليس الواقع.

ــ هذا ليس نصّي.

ــ لن يُغَير ذلك شيئاً! لا تكمن الحياة الحقيقية في عباراتك وأجوبتك.

ــ إنها ليست أجوبتي، لكنها جمل جان أنويْ.

ضحك الدرزي، وقد فلتَ المقود، وضرب بيديه على فخذيه.

ــ أنت مجنون!

ردد أنني مجنون، سواء أكان أنويْ أم غيره، فهذا لا يهمه. لم أكن أفهم

شيئاً من الوضع؛ فالبلد يُقصَف ويخرَّب وأنا أجيء من باريس بمعطف المهرج. وقال لي إن السلام لا يُصنعُ بوجه بهلوان طُلي بالمساحيق؛ ففي الوقت الذي يحصي البلد قتلاه، يصعد عشرة شبان على خشبة مسرح متهدم، هذا لم يعد له أي معنى. يكاد يأسف لأنه استقبلني وساعدني، كما قال إن إخراج هذه المسرحية يُعَد ضرباً من الغرور البحت.

ـ إنها فكرة يهودي، مرة أخرى.

هزني ما قال.

ـ لا يحق لك أن تتحدث هكذا عن سام!

غاص مروان قليلاً في مقعده، وكان ينظر إلى الطريق بمزاجه السيئ.

خاطبني الدرزي قائلاً:

ـ إنني أكن لصموئيل أكونيس احتراماً كبيراً.

كنت قد استدرت، وأدرت له ظهري، فكان يتذمر.

ـ إنك تعرف تماماً أنني فعلت كل ذلك من أجله بقدر ما قمت به من أجلك، إذن، كفى!

لم أحر جواباً. كانت عيناي تحرقانني، ورأسي يدق.

تمتم قائلاً:

ـ أرجو المعذرة.

خفض زجاج النافذة، واستنشق الهواء بملء رئتيه.

ـ ليس وقع الكلمات على الأوروبي كوقعها علينا. أتفهم ذلك؟

كلا لم أكن أفهم ما يقول، ولم أكن أريد فهم ذلك.

ـ وإذا قلت لك: كانت تلك فكرة حالم يوناني، هل يلائمك ذلك؟

لم أحر جواباً.

ـــ انظر إليَّ، يا جورج، لقد مضى أكثر من سنتين وأنا أشارك في تلك الحكاية، وسبعة أشهر وأنا أحميك كابن لي، حتى إنني قدمت نكداً إلى ملهاتكم.

ـــ إنها ليست ملهاة، إنها مأساة.

ـــ ملهاة، مأساة، سمها ما شئت! ولكن بما أن صديقك مشرف على الموت، وأن الإسرائيليين في بيروت، وأن كل الناس يطلقون الرصاص بعضهم على بعض، أقول إنه يجب وقف كل ذلك. لن يعود في وسعكم إخراج أنتيغون، هل تسمعني؟ انتهى الأمر، يا جورج. لستَ فوق هذه الحرب. لا أحد فوق الحرب، ولم يعد هنا من مأساة أخرى إلّا هذه الحرب.

عدتُ نحوه، ونظرتُ إليه. نظرتُ إلى وجهه، وشعره المتشعث، وشاربيه الرماديّي اللون، والندبة القديمة المحفورة على خدّه، فاختفت شفتاه، وكانت عيناه شبه مغمضتين، وعلى المقود، كانت سلاميات يديه بيضاء.

ـــ أعتذر منك، أنا أيضاً، يا مروان.

رفتْ عيناه ولاحتْ شبه ابتسامة على وجهه.

ـــ أعرف الحرب جيداً، فهي تبحث عن الناس أنّا كانوا، حتى في كواليس المسارح. إنني أعطي لممثليك شهراً واحداً حتى تجدهم منضمين إليها.

ـــ ربما، لكن قبل ذلك، سيكونون في البروفة الأخيرة.

رفع كتفيه.

ـــ كلا، يا جورج، لن يأتي ابني.

ــ سيكون حاضراً للعرض في أول تشرين الأول، هذا ما وعدْتَهُ به.

ــ وعدي هذ مضى عليه وقت طويل، ولم يعد الأمر متوقفاً علينا بعد الآن.

كنت قد أقسمتُ لصموئيل، وهو على فراشه، في المستشفى، أن تُمَثَل أنتيغون مهما كلّف الأمر. أما اليوم، وقد فقدتُه، فلم أعد متيقناً من شيء.

ــ يبقى الكلب كلباً، يا جورج، وإن تربى بين الخراف. فممثلوك ليسوا ممثلين، إنهم عسكر. أنت لا تعرف ذلك، لكن الحرب تتذكرهم.

دخلنا بيروت يوم الجمعة في ١٧ أيلول من عام ١٩٨٢، فراح الليل يرخي سدوله، وكان الجو ساكناً.

كان جنود سلاح المدرعات الإسرائيلية يقومون باستفزاز الناس عند مفارق المدينة، وسط عربات الفواكه وبائعي الخبز.

١٩

أنتيغون

جلس صبي هناك، مستنداً إلى الحائط، بلباس رياضي أزرق، منتعلاً خفين، وقد جف اللعاب حول شفتيه، ونزلَ خيط من الدم البني حتى ذقنه، في حين كانت عيناه مغمضتين. ثمة صبي آخر يرقد بالقرب منه، وقد غطت على بطنه غيمة من الذباب. وهناك، كلب مستلقٍ على جنبه، بقوائمه المتصلبة، وقد سحق فوق ساقي الطفل، فأسندتُ ظهري إلى باب مفتوح.

أيقظني مروان أثناء الليل حيث كنت أنام في غرفة استقباله، فشعرتُ بوجوده من دون أن يتكلم أو أن يلمسني؛ كان يجلس القرفصاء، ووجهه فوق وجهي، عندما قال:

ــ جورج، يحدث شيء ما في المخيمات.

لم يقل إلّا هذه العبارة، من دون أن يضيف أدنى كلمة. نظرتُ إليه، كان قد لبس ثيابه في الظلام، فنهضتُ من دون أن أفارقه بنظري. لم أكنْ قد رأيتُه قط في العتمة. وفكرتُ برسول مسرحيتي أنتيغون، بالرجل الذي يعلن نهاية العالم.

لبستُ بنطالي وقميصي، ولم أطرح أي سؤال؛ يحدثُ شيء ما، وهذا

كل ما في الأمر. كان لصديقي الدرزي صوت خفيض، وحركات بطيئة، ووجه متكدر. ذهبَ نحو الواجهة الزجاجية دون أن يُضيء الغرفة، ووضع يده على الزجاج، كما لصق عليه جبينه، والقلق يعصر جسده بقامته الطويلة.

كان رجل ينتظر في البهو، قميصه مفتوح، ومسدس بارز مثبّت إلى حزامه، فوقف حين اقتربتُ منه، وحيَّاني بحركة من رأسه. كنتُ قد لاحظت ذاك الدرزي الذي كان في إحدى زاويا الغرفة، حين مثَّل «نكد» دور هيمون. وفي اللحظة التي ضممته فيها بين ذراعيَّ، نظر كل واحد منا إلى الآخر. بدا هذا الشخص الوحيد الذي لم يتساءل ماذا يفعل رجلان وسط الغرفة، وهما يتعانقان ويرددان كلمات غريبة، فصفّق في نهاية المقطع الذي ألقيناه وصافحني قبل أن يرحل.

همس لي وهو على العتبة:

ـ إنَّ أنويْ درزي.

فوجئت بتلك العبارة التي أُطلِقت وسط وداعات شعائرية. وفي حين كان الآخرون يضعون أيديهم على قلوبهم، كان هو يلمس يدي. لاحظت شعار الحزب الاشتراكي الذي كان يحمله على ظاهر يده، وعليه ريشة ومعول داخل مثلث، وكذلك النجمة الخماسبة موشومة بين إبهامه وسبابته، فابتسم لي، في ذاك المساء، ابتسامة متواطئ.

أما هذه الليلة، فلم يعد نظره يوحي إليَّ بشيء.

ركبنا ثلاثتنا السيارة الحمراء حيث كانت الشوارع مقفرة. وحين وصلنا إلى شاطئ البحر من جهة مار الياس، ركن مروان سيارته، وترجّل منها، وعيناه تنظران إلى السماء. حدثه الآخر بالعربية،

وإصبعه إلى الأعلى، فهزَّ صديقي رأسه، وخرجتُ بدوري. فوق صبرا وشاتيلا، كان الليل مضيئاً وكأنه نهار، وعشرات اللآلئ المتوهجة تهبط ببطء على المخيمين، تتأرجح في الهواء قبل أن تنطفئ. ثم تتبعها أخر، تصعد كالسهم، قبل أن تهبط ثانية على شكل غيمة تُعمي الأبصار.

تمتم مروان قائلاً:

ـ إنها قذائف مضيئة.

رجعا إلى السيارة، فبقيتُ وحيداً، أنظر إلى الظلام الذي يصمد أمام نور البشر.

ـ آخذك إلى شاتيلا، لكنني لن أدخل إلى المخيم.

انحنيت على نافذته.

ـ ماذا يحدث؟

نظر إليَّ مروان قائلاً:

ـ أتريد أن تذهب إلى شاتيلا أم لا؟

جلستُ في الخلف حيث كان الليل دافئاً، بينما كنتُ أنا متجمداً. وحين انطلق مروان، وضعت ذقني على ظهر مقعده، ورحت أبحث عن عينيه في المرآة العاكسة.

ـ ماذا يحدث، يا مروان؟

أجاب الدرزي الآخر:

ـ يُضيء الإسرائيليون المخيم. إنهم يبحثون عن شيء ما.

في ضواحي شاتيلا، أوقف مروان سيارته وأطفأ المصابيح، وامتدت أمامنا أرض ترابية تؤدي إلى أول المساكن، حيث كان جنود

المصفحات الإسرائيلية نائمين. خرج جندي من دبابة، كان جالساً فوق برجه، وقدماه على صفيحة معدنية، والقذائف تغمره بالنور الأبيض.

كرر مروان قوله:

ــ أنتظرُ هنا. لن أذهب إلى هناك.

التفتَ الآخر، وأشار إليَّ بحركة من رأسه في الوقت الذي كنتُ فيه على وشك أن أفتح باب السيارة، وأخرج، فبقيتُ في مكاني.

ــ قل لي ماذا تظن.

استدار صديقي الذي لم أتعرف إلى وجهه، ولا إلى نظرته.

أجابني مروان قائلاً:

ــ أعرف تمام المعرفة هذا السكون.

ثم أدار ظهره.

ــ سيطلع النهار. هيا، إذهب الآن.

أخذت حقيبتي، وتركتُ السيارة، والرجُلين، كما تركتُ ما بقي لي من لامبالاة، ومشيتُ نحو جنود المصفحات. قررتُ أن أمر بين هذين الجنديين، وكذلك أمام الجندي الذي يدخنُ فوق درعه، وتقدمتُ حتى وصلتُ على علو الزنجير. انتظرتُ كلمة، أو صرخة، أو أمراً. تبادلنا، أنا والجندي، النظرات؛ كان كئيباً، وأشاح بوجهه. لم أكن شيئاً بالنسبة إليه، لم أكن موجوداً، لم يعد حوله شيء على الإطلاق.

دخلتُ المخيم، دخلتُ القفر. كانت هناك رائحة القمامة المحترقة، والزنخ، والمجارير وفكرت بصمت مروان. كان النهار في أول بزوغه،

النهار الحقيقي، والقذائف لا تزال تُضيء صبرا، من الجهة الأخرى. مشيتُ، وتقدمتُ شأني شأن إنسان شبه كفيف. دخلتُ الجحيم من أخدود، أي من زقاق ضيق يمكنني أن ألمس جدرانه من الجانبين إذا ما فتحتُ ذراعيَّ. رأيتُ أول ميت: رجل، حافي القدمين، بثياب النوم. كان مستلقياً على بطنه ومسحوقاً في التراب. ركعتُ، ثم تراجعتُ، ويدي على فمي لطرد رائحة الجيفة. بحثتُ حولي عن شخص يساعدني، فطرقتُ أول باب، فكان شبه مفتوح، وقد اصطفت الأحذية على عتبته. فكرتُ بحكاية ذات الخصائل الذهبية[٩]، وبأسرة الدببة وبفتاتي الصغيرة التي تنعم بالسلام. كان خفّا الأب عند العتبة، وكذلك قبقابا الأم، وأحذية الأطفال، فمددتُ رأسي، وناديتُ بلطف، ثم دخلتُ.

كان الأب منهاراً على الطاولة، ووجهه في صحنه النظيف، وقد تهدلتْ يداه على طول جسمه. أما الأم، فكانت مستلقية في المطبخ، في بقعة من الحساء والدماء، والخزانة مفتوحة، والغسيل منضد. رحتُ أرتجف، فلم أدخل غرف النوم، فخرجتُ من هناك وأنا أركض في الزقاق. طلبتُ النجدة، بالفرنسية، وبالإنكليزية، وكان النهار في منتهى الشحوب. وصلت امرأة وسط الغبار الأحمر، منديلها على رأسها، ويدها مرفوعة. كانت تبكي وتئن بكلمات غريبة عليَّ. ثمة امرأة أخرى خلف ظهري، وأشباح تتتابع، تخرج من آخر زوايا الظلمات. تَعثَّر شبح امرأة تتجه نحوي، مسكتْ ذراعي، وجرَّتني؛ عيناها جافتان وهي تصرخ. كان عجوزان يسدان مدخل بوابة، وقد

---

[٩] Boucles d'Or et les trois ours: الفتاة ذات الخصائل الذهبية والدببة الثلاثة، للأخوين Grimm (المترجمة).

فُتِحَ عنقاهما. إنهما رجل وامرأته، وقد التف الحجاب حول رقبتها كأنه حبل مشنقة. تراجعتُ فجأة، أنتهك قدسية موتهما عندما كنتُ أمشي متخبطاً في الدماء البشرية. ذهبتُ إلى الباب وأنا أمشي متراجعاً. فكان الشارع يبكي، وثمة صرخات فظة، وعويل. إنه اكتشاف الموت ثم الجسد الذي يبكونه. تقدمتُ، وكانت الأبواب مفتوحة، جميع الأبواب، ولم أعد أجرؤ على الحراك. في إحدى زوايا الشارع، توقفتُ، وجلستُ فوق كتلة خرسانية حيث كان تسعة رجال ممددين على الأرض، بعضهم فوق بعضٍ، بأفواههم الفاغرة وبقمصانهم وبناطيلهم الملطخة بالدماء. كان هناك آخرون تحت إحدى السيارات، وآخرون سقطوا على طول الجدران، وكأنهم أعدموا بالرصاص. ساعدني شاب على النهوض.

قال لي بالإنكليزية:

ـ يجب أن تُبقي عينيك مفتوحتين.

ـ عندنا دائماً عينان زائدتان.

فكرت بطبيب مستشفى شاتيلا الذي تردد في إعادة بصري.

مشيتُ، فرأيتُ عصا على الأرض، وعجوزاً مستلقياً على ظهره نخرته الطعنات، وذراعاه مفتوحتان على وسعهما. كان رجل آخر أبعد منه قد دُقَتْ مؤخرة رأسه بمطرقة ضخمة. راحت فتاة صغيرة تناديني من باب بيتها. فدفعتني إلى الداخل، فخفضتُ رأسي ونظرتُ إلى إصبعها، وليس إلى السرير الذي تشير إليه. كانت الشراشف مضرجة بالدماء. اقتفيتُ درب الآلام والدها؛ لقد جروه من غرفة نومه، إلى الممر، ثم إلى العتبة، ليُرمى على الأشواك. وفي زنقة، قُطِّع الجسد قطعتين،

وألقِيت الساق اليمنى بالقرب من الذراع. هناك، سقطت امرأة، تحت منشر الغسيل. ثمة امرأة أخرى، تُركَتْ في القمامة وقد غُطيتْ بالحصى. وبالقرب من حطام بعض السيارات، وقفتْ ثلاث عربات مأتمية تشدها أحصنة رمادية اللون وإلى جانبها خمسة رجال واقفين بخشوع. في إحدى زوايا الشارع، ثمة ساق اصطناعية، انتُزِعتْ من عجوز وقع منهكاً فوق ستار حديدي. وعلى بعد عدة خطوات، كان هناك شاب، منتفخ البطن، مُحْترق الوجه، وقد جف برازه ملء ساقيه. كان الموتى في كل مكان: في البيوت، وفي الشوارع، وفي الزنقات، وعلى المسطبات. كان اللحم مسحوقاً، والجروح مفتوحة، وخيوط من نخاعات في الدغل، وجثة امرأة بعينين مجنونتين باظتين من محجريهما وكأنهما كريات من عرق اللؤلؤ، في حين كانت الشمس تُلطخُ الجو، وبدا صوت صَرار الليل بذيئاً، أما حشود الذباب، فكانت غاضبة جرّاء ما يزعجها في وليمتها.

بعدها رأيتُ أول طفل، وكنتُ أخشى ذلك خلف كل باب، وأرتاعُ إثر كل صرخة. كان هناك، رضيع، بصدره العاري، وبحفاضاته الممزقة، فكان كمن سُلِخ جلده، ولحمه قد سُحِق حياً على جدار من الكتل الحجرية الخشنة.

توقفتُ وقد أصيبت عيناي بالجفاف، وقلبي باليباس، وكان الهواء ثقيلاً. رحت أتنفس بشكل متقطع؛ فاستنشاق الهواء يعني عبَّ الموت وابتلاعَه. أردت أن آخذَ الطفل، وأن أحملَه، وأن ألوِحَ به في المخيم، وأن أريه للناس في بيروت، وأن أذهب به إلى باريس، وأن أصرخَ به في

كل أرجاء الأرض. انحنيت فوقه، فصرخ رجل وصل راكضاً، وأراني الرمانة وقد نُزَع دبوس منها، وأخْفيتْ تحت عارضة، بالقرب من الجثة، ورَبطَ حبلٌ رِجلَ الضحية برافدة من الخشب السميك بحيث إن تحريك إحداهما كان يعني تحريك الأخرى وإطلاق الانفجار.

ــ شرح لي الرجل قائلاً:

ــ لقد فخخوا الأجساد.

أخذتِ الملائكة، الآن، تقود خطواتي، إذ ثمة فتاة صغيرة بقميص أحمر، شُقَ جبينها، وانفرجت ساقاها. كانت هناك فتاة أخرى، أبعد من ذلك في الزاوية، بثوب مخطط، ووجه على الحائط، وظهر ممزق. وثمة صبي كُسِر ظهرُهُ، وقد رُسمت على قميصه الأزرق صورة ميكي، وأربعة إخوة قد تكدسوا على الرصيف وحُرقوا، فكانت لحومُهم قد انتُزِعَت مع ملابسهم، كأنهم قد طُحنوا وأعيد صهرهم معاً. لم أعد أستطيع المقاومة، فاستسلمتُ لما حولي. كنتُ أمرُّ من يد إلى يد، ومن بيت إلى بيت وسط الصراخ، والعويل، وقد راحت تلك العيون المسلوخة تبحث عن عينيَّ. قادتني امرأة إلى مهد مضرج بالدماء. كان عبارة عن قصب متشابك، وقد مُد بالشراشف الرمادية والبيضاء. كان الطفل مذبوحاً، وهو مستلقٍ على جنبه، وقد فُصل رأسه، ويداه في ظهره، وانطوت ساقه بشكل معكوس وكُسرت ركبته. أردت أن أقدمَ له دموعاً، فبحثتُ في أعماقي، وأغمضت عينيَّ كي أستنجد بها. لم تسعفني دموعي التي كانت تغمر أحشائي، وقلبي، وروحي، لكنها لم تنهمر على وجنتيَّ، فخرجتُ وأنا في تلك الحالة، لا شيء على وجهي.

كان مروان قد قال لي:

ـ اسلك الطريق الذي هو أمامك، سرْ فيه مباشرة. وبعد بائع الدواليب، درْ نحو اليسار،فهناك المكان الذي تقصده.

تعرفت إلى الأرض القفر، وإلى اللوحة الجدارية الكبيرة التي تلون حائط المدرسة، وعيادة بيير، طبيب الأسنان. وقفتُ وسط الشارع، فكان باب بيت إيمان مفتوحاً، والرجال والنساء يتقاطعون شأن تائهين، وثمة مصور صحفي كان يعمل، فرفع عينيه نحوي، وهو يبكي. بقيت هكذا، وسط الجميع، وعيناي شاخصتان نحو الباب. انتظرت، ربما يدخل أحد، أو يخرج، أو تظهر يدٌ من خلال قضبان النافذة، ثم رحت أمشي، فاجتزت الشارع بتمهل؛ وأنا أسير خطوة فخطوة، وكانت أحشائي تصرخ من الرعب.

لم أكن قد وطئت بيت إيمان قط. كان الباب يؤدي إلى المطبخ الذي هو عبارة عن غرفة صغيرة جداً مزدحمة حتى الجدران بالطاولة والكراسي، التي كانت كلها مقلوبة، والمائدة أعِدّت لوجبة المساء. هذه المرة، لم أنادِ، ولم أصرخ، فنظرتُ إلى الباب الذي يؤدي إلى الغرفة الأخرى. هناك، كان الأب جالساً على الأرض يستند إلى إطار الباب، وقد انحنى إلى جانبه، بعينيه المفتوحتين، وبكوفيته البيضاء الملطخة بلون أدكن. كانت إيمان قد حدثتني عن أختها الصغيرة، وعن إخوتها الذين كانوا مربوطين، بعضهم إلى بعض، وقد تكدسوا وسط الممر. كان نور النهار يدخل عبر النافذة، فينقب في كل بقعة دم شأن كلب يشم. اصطدمت بالطاولة، وكذلك بالكراسي الواقعة أرضاً، فشاهدت إيمان في غرفتها، مستلقية في الصمت، وقد تمددت بعرض

سريرها، فتدلّى رأسها من جانب، وقدماها من الجانب الآخر. كان جلَّادوها قد ربطوا يديها إلى ظهرها، بسلك حديدي، وانتُزِع قسم من وجهها. كان خدها، وجبينها، وصدغها عصيدة تطن بالذباب، كما غُرزتْ كمامةٌ في فمها، وقُطِعت رقبتها، في حين كان قميصها مفتوحاً، وقد تمزق من الكمين، أما ثدياها فقد قُطعا، وبقعة خضراء تنتشر على بطنها، وثوبها ذو المربعات السوداء والبيضاء قد رُفِعَ. كانت قد فُسِخت، واغتصبت أحشاؤها، والدماء تُضَرِّج فخذيها، وتصل إلى الكاحلين. لقد دافعت عن نفسها، وكانت تُمسك بخصلة من الشعر في قبضتها.

لم أعد أقوى على التنفّس، وقد توقفَ قلبي، ومع ذلك فككتُها. كانت متصلبة، ومتجمدة، وقد ماتت في اليوم السابق، والسلك الحديدي مغروز في جلدها. مددتُها على السرير، ودسستُ وسادة تحت رأسها، وأنزلتُ أسفل تنورتها، وبكّلتُ الزر الوحيد لثوبها. كان منديلها الأزرق ملقى على الطاولة، فأخذتُه ووضعتُه على وجهها، فلم يعدْ يظهر إلَّا شعرها ثعلبي اللون.

كدتُ أتضرع إلى الله، أردد عبارات أتذكرها من طفولتي، ثم عدلت عن ذلك. كانت إيمان قد وضعت في إطار، فوق سريرها، صورة عن عملة ورقية قديمة صادرة عن مصرف فلسطيني. وكانت هناك ساعة الحائط، وقد تدلى من طرفها كيس نقود مذهب، عُلِّق بمفتاح صدئ، طويل طول اليد. لقد تعرفت إلى الكيس، فيه التراب الفلسطيني الذي أهداه إياها سام، وكذلك مفتاح عام ١٩٤٨، هذا المفتاح الذي قفلَ بيت الأسرة في يافا، وقد حمله أجدادُها معهم إلى المنفى.

ـ أنت من سيضع المفتاح في القفل، يا صديقي.

لقد رأيت ياسين مجدداً، المناضل الفلسطيني، ووعده بالعودة. لقد أبحر مع إخوته في الهزيمة، فرحلوا إلى تونس يتبعون عرفات بأسلحتهم وآمالهم، تاركين أسرهم بلا دفاع.

فككت المفتاح، فكان ثقيلاً، بساق حديدية، وحلقة مشغولة بدقة. فتحت الكيس، ففَصلتُ التراب إلى قسمين متساويين، قسم لإيمان، وآخر لياسين. سكبتُ النصف في راحة يدي، ورششتُ به جسم إيمان. لم أكن أبكي، ولم أعد أرتجف بل كنتُ بمثابة أنتيغون وقد انحنتْ فوق جسد بولينيس. ذررتُ التراب المقدس على الضحية، فكان التراب عذباً وناشفاً ودهنياً معاً، مرصعاً ببريق لامع كالألماس. ذررتُ منه على منديلها، وعلى جذعها، وعلى ساقيها المزقتين، وعلى راحتي يديها، ورجليها. نثرته، وفركت ما بين أصابعي.

انحنيتُ أمام تلك الشهيدة التي عانتْ كل ضروب العذاب، وأخذتُ المفتاح، وما بقي من فلسطين في الكيس المذهب، وقفزتُ فوق الإخوة، وتجنبتُ الأب. خرجتُ إلى الشارع حيث كان رجال إسعاف الهلال الأحمر يحزمون صبياً في كيس بلاستيكي مزود بسحَّاب. وحين مررت بمحاذاته، قدَّم لي ممرضٌ الجثة. أراني إياها وكأنه يطرح سؤالاً. كان التلميذ بعينين بيضاوين، والكفن الشفاف كقالب يلتصق على جبينه، وأنفه، وذقنه. خُيل إليَّ أنني أرى بخاراً حول شفتيه، فرفعت يداً، أعني بها أني لم أكن طبيباً، ولا صحفياً بل كنت مخرجاً للحياة على المسرح، لكنني عاجز عن فعل أي شيء أمام

ذلك الموت. أخرجت دفتر سام، لا أدري لماذا، لأتعلم حركة من جديد، ولأضع مسافة بيني وبين الدماء. كتبتُ: «النهاية.» هذا كل شيء. أحطتُ الكلمة بدوائر رسمتها بعصبية، حتى تمزق الورق.

ثم لم أعدْ أنظرُ حولي، فمشيتُ وسط الطريق، مشيتُ مغمض العينين ككفيف أبغي الهواء الطلق، يتبعني العويل، والصراخ، والغسيل الذي ينشف عبثاً في شمس أيلول.

كان مروان ينتظرني، وحده في السيارة، وحين رآني من بعيد، خرج صديقي وفتح لي ذراعيه.

قال لي ببساطة:

ـ إنني أعرف.

سرنا نحو المدينة، فأصعدني إلى الخلف.

كان رأسي بين ساقيَّ، ووجهي في يديَّ. طلبت منه أن يفتح النوافذ، حيث كانت رائحة الموت تنبعث مني. لم نتبادل الكلام وحين وصلتُ أمام بيته، ساعدني على السير، وقد وضعَ يداً تحت إبطي. طلبت منه أن أستحم، فوراً، الآن، كي أغسل الغبار، والرائحة، والصور التي تزاحمت عليَّ بالآلاف. خلعت ملابسي بعنف، وفركت وجهي وقد انحنيت فوق المغسلة. نظَّفت أنفي حتى الألم، وقد انتزعت قطعاً من الصابون أسد بها منخريَّ، وفتحت نافذة الحمام، والصنابير، وكان الهواء الذي يدخل هبّات هبّات، دافئاً، ونتناً. صدمَتني المياه، وراحتْ تضربُ جلدي شأن جرح. غسلتُ شعري، وغسلتُ وجهي ثانية، وصدري. فجأة، أوقع الهواء ستارة الحمام، ولصقها بجذعي، وبساقيَّ،

فرسمتْ من جديد وجهي، شأن كيس جثة. دخل الموت تواً، وكان في الغرفة يحوم حولي. كانت له رائحة الغثيان، ورائحة الكلب المبلل، واللحم الفاسد الذي تبعني من المخيم ليقضي عليَّ هنا. صرختُ، وتمسكتُ بالستارة بيديَّ الاثنتين فوقعَ قضيب الستارة، كما سقطت الحلقات الواحدة تلو الأخرى. تزحلقتُ إلى الأمام، فوقعتُ في الحوض، وأنا أجرُّ معي كفني المبلل، فاصطدم جبيني بحافته وسالت الدماء، من جفني المجروح، وهي تنساب في شقوق الحوض الخزفي، ليطردها الماء المحرق. صرخت ثانية، وانتابتني حازوقة غضب، ثم بكيت. بكيت ما بقي لي من دموع كانت تهدد على الدوام. إنها دموع اليتيم الذي قطفَ زهرة يودع بها أمه الراحلة، ودموع الطالب الذي لم يجرؤ أن يلمس جلد أبيه الميت منذ فترة. بكيتُ كل الغضب الذي في أعماقي، وكذلك العنف، والكراهية. بكيتُ أطفال «كريات شمونة» وأطفال شاتيلا. بكيتُ لأصفي حسابي مع دموعي.

دخل مروان بغتة، وألقى بنفسه تحت الدوش، فأغلق الصنابير وهو يشتم بالعربية. كنت مستلقياً، ومنكمشاً على نفسي، فرفعني برفق، ورأسه يلامس رأسي. أخذني بين ذراعيه، وحملني شأن طفل غافٍ. كنتُ أنتيغون، رأسي من جهة، وقدماي من الجهة الأخرى، ودمائي على الصدر وعلى الفخذين.

ـــ كفى. انتهى الأمر، ستعود إلى بيتك، ستعود، يا جورج.

ـــ لقد قتلوا أنتيغون.

كان صوتي لا يعلو على الهمس، ما يكفي لأسمَعَ ما أقول.

أجاب مروان:

ـ إنها إيمان التي قتلوها.

دخل البهو مع غنيمته الدامية، فأطلقت زوجته صرخة، واختبأت في غرفتها، وطمرت الفتاة جبينها في وسادة.

كرر صديقي الدرزي قائلاً:

ـ لم يقتلوا أنتيغون.

وضعني على السرير، وغطَّاني بالشرشف، وانحنى فوقي.

ـ إنك أنت، أنتيغون. إنها سام. إنها «نكد» وكل الآخرين. إن عددهم لا يكفي لقتلها.

٢٠

«ميمي ـ لينوت»

لم يكن أحد، من قبلُ، قد ضمني بين ذراعيه على الإطلاق؛ فقبل أن أعبر الخط الفاصل، عانقني مروان، فطمرت رأسي في صدره، وتصالبت يداه خلف ظهري، حابساً كتفيَّ وجذعي. خبأتُ وجهي في قعر كتفه التي كانت تعبق منها رائحة المسك، وكذلك رائحة جلد سترته. أبقاني هكذا، طوال دقيقة، وسط سائقي سيارات الأجرة. أما أنا، فوضعت حقيبتي على الأرض، وتدلتْ ذراعاي، ثم دفعني بلطف من دون أن تفارقني عيناه. أسند يديه إلى كتفيَّ، وأمسك بي بصمت، على مسافة ما، ثم أدار لي ظهره. ركب سيارته. وحين انطلق، كان جسمه الكبير يرتجف. ولربما كان يبكي، فلن أعلم بذلك البتة. لم يستدر نحوي، ولم يرفع يده من النافذة المفتوحة، بل رحل ثانية إلى الحرب من دوني.

ركبتُ باصاً صغيراً حتى مرفأ جونيه حيث كان صليب يتأرجح تحت المرآة العاكسة، في نهاية سبحة من حبات شجر الزيتون. كان يحتضنني بذراعيه، فرحت أشعر بحرارته، وبدقات قلبه. أمسك بي على ظهر المركب، أبقاني بين ذراعيه في قبرص، وكذلك حين صعدتُ إلى الطائرة، وعندما غفوت فوق كوة الطائرة، وحين وصلتُ إلى مطار

«رواسي» في ظلّ أجواء مناخية عاصفة. لم أرد أن أترك ذراعيه لأذرع أخرى، ولم أرد ملجأً غير ملجئه. سرتُ في ممرات المطار شأن من يصعد إلى المشنقة، فكان كان الخوف يعصر أحشائي، وقلبي يدق وهو يسعى إلى الهرب. وحين وصلتْ حقيبتي على بساط الأمتعة، ذهبتُ لأجلس في مواجهتها، على الأرض، على طول الحائط، ومددتُ ساقي التي تؤلمني. نظرتُ إلى كل هؤلاء الأحياء؛ فثمة وجوه لفحتها الشمس، وجلود تلمع من الملح، وأثداء عارية تحت الحرير المفتوح، وروائح زهر «التياريه» البولينيزي. تُسمع كلمات عن العطلة الصيفية، وكان هناك حشد من الناس، وزمر، وحياة بلا أناقة، تشقُّ ممراً صاخباً نحو العودة،إلى ضحكات تقزّز حزني وتثيرُ اشمئزازي.

رحتُ أمشي.

وحين فُتِحت الأبواب الجرَّارة، لم أرَ سواهم. إنهم حفنة من حياتي، وسط آخرين جاؤوا يرحبون بي، من بينهم أورور، ولويز، وصديقان، وبعض الرفاق الذين كم كنت آمل ألّا يكونوا هنا.

سمعت اسمي يُصرخ في البهو شأن هتاف، ورأيتُ أذرعهم تتالى في الهواء، وابتساماتهم تلطخ وجوههم، إذ ثمة أبله يلوِّح بعلم فلسطيني، فخفضتُ عينيَّ. كنتُ خجلاً، و رحت أبحثُ عن ابتسامة أقدمها لهم، انتزعتها من أعماقي. إنها ابتسامة إيمان الساطعة، وابتسامة مروان الحارَّة، وابتسامة شربل الساخرة. رفعتُ رأسي، فوجدتها. عدت إليهم بابتسامة «نكد»، الذي غفر لي الحرج الذي أثاره لدي حبه الكبير لي. إنها ابتسامة رائعة، تلك الابتسامة التي كان عليَّ أن أعيدها إليه، تلك التي قدمتها إلى هؤلاء الغرباء.

ركضتْ لويز نحوي، فوضعتُ ركبتي على الأرض، تاركاً حقيبتي تقع، وكذلك جواز سفري، وكل ما في يدي. التجأتْ إلى ذراعيَّ، بيني وبين مروان، فحرص كلانا ألّا نضمها بقوة كبيرة. راحتْ تكرر «بابا»، وهي تفرك خدي براحة يدها. لحيتي خشنة اللمس لأنني لم أحلقها منذ الليلة الفائتة. انتظرتُ المجموعة لكنها لم تأتِ. لم تأتِ بعد. بقيتْ أورور على مسافة مني، وكذلك الرفاق، وقد أدركتُ من احترامهم لي أن مظهري مثير للشفقة. نهضتُ بصعوبة والحنان يطفح من يديَّ، فعانقتُ أورور، وكم تخيلتُ هذه اللحظة وخشيتها معاً. صدمني عطرها الذي كانت تعبق منه رائحة الزهر شأن مُسكر بالعسل. لقد داعبتْ شعري، والتصقتْ يداي بظهرها، مع أنني لم أكن أضمها بل كنت أهنئها.

راحت تقبل خدي، وشفتيَّ، وقد خفضتُ جبيني، واستمرت تأكلني، وتفترس ما بقي مني، وتبحثُ عن عينيَّ، تمررُ إصبعها على الندب الرديئة، وتبكي على جفنيَّ المتهدلين، وكذلك على هزالي، وهي تردد: إنه لم يعد لي الوجه ذاته، ثم تراجعتْ خطوة إلى الوراء، متسائلة ومتعجبة:

ـ هذا أنت. أحقاً أنت!

التصقتْ لويز بساقي المريضة، وحينذاك تقدم الآخرون. كانوا أكثر عدداً عما رأيت للتو، إذ ثمة رفاق من جامعة «جوسيو»، ونظار من ثانويتي، وأساتذة، أتوا ليشْتَمّوا المأساة، ليكونوا حاضرين، وليروا، من قرب، الشخص الذي رأى ذلك. بقيتْ أورور مُمسكة بخصري، وبكتفيَّ، وبخديَّ. كان لزوجتي عشر أذرع لكنها لم تطلق

إلَّا إحدى يديه التي مددتُها إلى الآخرين، الذين عصروها بحماس يوازي حماس الجمهور المُحرَّر. إنني أضحك الآن، لا بل كنتُ تائهاً. مررتُ خلال عدة ساعات من بين ذراعيٍّ الدرزي المسلح إلى التعانق في المطار حيث كان أشخاص يطبطبون على ظهري، ويمررون يديهم في شعري، ويضربون أضلاعي. قدَّم لي أحدهم كأساً من الشمبانيا، وقد حمل الزجاجة إلى هناك، وأتى بكأس لي وحدي، وسط الحشد، طالباً مني أن أشرب نخب عودتي. أخذت الكأس وغببتها دفعة واحدة، ورأسي إلى الخلف. صفَّقَ الجميع. لقد فزتُ في مسابقة، وانتصرتُ في سباق سيارات، وضربتُ رقماً قياسياً. ثمة رفيق مصور راح يحوم حولي شأن صحفي يعمل لمجلة في حين كان المارة يُحدقون بي، ويحاولون التعرف إليَّ. أجل، أنت تعرفه جيداً! إنه ممثل، على ما أعتقد. ما اسمه، قل؟ تركتهم يقودونني بلطف إلى المخرج. أردت أن أشتري صحيفة من كشك الوصول، علِّي أجد بيروت في ورق الجريدة، لكنني لم أستطع أن أفلتَ منهم. لبستْ ابنتي ثوباً برسوم مربعة، فأشحتُ ببصري عنها وتخيّلتها وقد رُفِعَتْ، وانتزعَت ثيابُها الداخلية وسالت دماؤها على فخذيها. أفلتُّ يدها، كما أبعدت يد أورور عني التي كانت تذهب من دموعها إلى جلدي، فطلبتُ بعض الهدوء، قليلاً منه. حينذاك فهم الجميع أنني أريد الهدوء، طبعاً، الهدوء. فكيف لم يفكروا بذلك مع أنني آتٍ من هناك؟ كانوا يتحدثون بصوت خفيض لأنني بعد كل ما رأيتُ، لا بد أن أكون متعباً، ومصدوماً، ويلزمني الهواء، والصمت، والوقت الذي نلتقي فيه جميعاً في البيت.

ــ نلتقي جميعاً في البيت؟

كانت أورور قد أعدتْ حفلة صغيرة، حفلة بسيطة، وهي أنها عبارة عن سهرة لتشير بها إلى أهمية الحدث، ولأن آخرين لم يستطيعوا المجيء إلى المطار.

ــ عن أي آخرين تتحدثين؟

ضحكت أورور. وهي تقول: من هم الآخرون؟ إنهن الرفيقات، وأفراد من لجنة فلسطين، إنهم أصدقاؤنا، أليس كذلك!

بعد أن وضعت حقيبتي في صندوق السيارة سألتني مستوضحة.

ــ ألن يسرُّكَ ذلك؟

أن أرى كل هؤلاء الناس؟ أجل، طبعاً، إنها فكرة رائعة لكن يلزمني فقط قليل من العزلة قبل أن يصلوا، لأنني أود أن أسترجع أنفاسي، وأستجمع أفكاري، وأن أحجب غضبي واشمئزازي.

ــ هل تخفي عني شيئاً ما؟

نظرتُ إلى أورور، بوجهها القلق، وهززتُ رأسي بالنفي، إذ لم يكن عندي كلمات أقولها لها، مع أنني أخفيت عنها الموتى الذين لن تعرفهم أبداً.

حين وصلنا إلى الشقة، استأذنتها بالنزول لأن المدعوين سيصلون إلى البيت في الساعة الثامنة مساء. كنتُ بحاجة فقط لأن أقوم بجولة في الحي، لأن أمشي وحدي. فمن فضلك، يا أورور، من فضلك، يا لويز، يلزمني بعض الوقت للتيه قليلاً، وأنا أسير نحو حي «سان لازار»، من دون زمامير، ومن دون أنظار الناس. أرجوكم، جميعاً،

أريد ساعة لي، كي أتخلص من تلك الملابس، ومن تلك الرائحة. أريد أن أحاذي بنايات لا تحمل آثار دمار، أريد أن أصادف مارة من دون سلاح. أريدُ أن أسمع وقع خطواتي على الأرصفة المبللة. أريد أن أنظر إلى أشجار الدلب، أنشد هدوء الفوانيس. أريد الواجهات الزجاجية، والمخازن التي تُغلقُ. أود أن أشعر بالمترو الذي يسير تحت الأرض يهدر في أحشائي. أريد أن أدخل مقهى صغيراً، وأن أشم رائحة مصفاة القهوة، وكذلك التفل الذي يُرمى بضربات صغيرة على طرف صندوق القمامة. أريد أن أرى الكؤوس على حافة المشرب. أشتاق إلى لوحات المسرح الإعلانية في الشارع. أريد أن أصادف فتيات، وشباناً. أريد أن أستطيع العودة إلى بيتي.

قبلتني أورور كونها تفهم ذلك. لقد بدا لها أن من المؤلم سماع ما أقول، لكنها كانت تفهمني. وبعد تفكير، اقترحت عليَّ أن تتركَ لويز عند الجارة وترافقَ وحدتي، فرفضتُ وقد أمسكتُ بيديها، ورفعتْ حاجبيها. حسناً، إنها موافقة. إنها تتفهمني. إلى اللقاء، إذن؟ يا حبي، يا جريحي، يا عائداً إليّ. إلى اللقاء يا زوجي إلى الأبد. إلى اللقاء، يا أبا ابنتنا النحيفة، والتي هي في بالغ الشوق لأخ صغير لها. إلى اللقاء، يا أبا المستقبل الذي أحبه. إلى اللقاء فوراً، وبسرعة. اتفقنا؟ لأن المدعوين سيأتون بعد قليل. أجل، طبعاً، لقد قبلتْ! حسناً: لو كانتْ مكاني، لتصرفتْ كما تصرفتُ. لذهبتْ تمشي في الشوارع بحثاً عن الهدوء. لكنَّها تصحبني معها. أجل هكذا. لكانتْ تركت الطفلة عند الجارة وأخذتْ ذراعي، لأنني كنتُ ضرورياً لها، وحياتياً لوجودها. أما أنا، لكنتُ فخوراً بثقتها وسعيداً بها. ولكن كلا، بالطبع لم تكن في مكاني. في الواقع، لسنا حقاً متماثلين. إنه

ضرب من الجنون ، مع ذلك، فإنَّ ما بيننا من فروق وتباينات، ليس في الأمور الجوهرية»، ولكن في أشياء كثيرة. فبقدر ما أذهب بسرعة، أعود بسرعة؟ طبعاً. كنتُ على صواب. هيا، فلنذهب.

وجهت أورور قولها إلى لويز التي دخلت غرفة الاستقبال:

ـ بابا يذهب من جديد!

أجبتها:

ـ بابا سيعود.

ثم أغلقتُ الباب من دون أن أنتظر. نزلتُ السلم راكضاً، وكنتُ أخشى صوت إحداهما، وبكاء الأخرى. عندما وصلت إلى مدخل البناية، كانت هناك علبة بريدنا وعليها أسماؤنا، كما كُتب اسم ابنتي بالقلم الأحمر. كنا هنا، بحياتنا، وبعلبة أخبارنا، ثم الباب الزجاجي، فالشارع. استدرتُ نحو اليسار، ومشيتُ بسرعة، وأنا أخشى رؤية الوجوه الأولى التي أعرفها. سرتُ في شارع «لينينغراد»، وركضتُ في شارع «روما»، ودخلت إلى محطة «سان لازار» إذ ثمة قطار يذهب إلى مدينة «دييب»، فترددت في أخذه، ثم عدلتُ عن ذلك، وصعدتُ ببطء شارع «أمستردام». بعدها عدت إلى أسرتي أجرُّ قدمي شأن تلميذ صباح الاثنين. كان رأسي يؤلمني، وكذلك بطني، وكان بلعومي يابساً. ثمة ضجيج عندهما، تناهى إليَّ من النوافذ المفتوحة حيث لم يكن غائب سواي كي يكتمل شملنا. صعدتُ السلم ثانية حيث وضعتْ أورور أسطوانة أغانيها الفلسطينية، فتوقفتُ في الطابق الواقع تحت شقتنا. كنتُ أود أن أكون ذاك الجار، أعود إلى مكان آخر غير بيتي، ألّا أكونَ قد رأيتُ شيئاً. وألّا عرفتُ شيئاً.

وبعد أن اجتزتُ الدرجة الأخيرة، وضعتُ يدي على الباب، رننتُ الجرس، ودخلتُ.

*

كانت بقعة بيضاء تعكر عيني اليمنى، هي عبارة عن نقطة ماء تغمر الديكور. أما الجروح التي سببتها «الحرب الغريبة» فلا يتضمنها عقد تأميني، لذلك كانت مهمة تدريب بصري على عاتقي، وكذلك الفحوص الطبية. لذلك أشار عليَّ الدكتور كوهين بطبيب عيون صديق له، فقال لي أنني كنتُ محظوظاً بنجاتي، لكن لم يعد في رأسي شيء في مكانه، وأن وضعي يثير قلقه. لقد وجدني بعد ثلاثة أيام من عودتي، جالساً على الرصيف أمام المستشفى، فلم أشأ الدخول، ولم أستطع دفع الباب، وأخذ المصعد، والسير في الممر، والمرور أمام مكتب الممرضات، والدخول إلى غرفة سام، النائم منذ أسبوع. لقد أغمض أخي عينيه، ولم يعد يجيب، ولم يعد يتحرك،مع أنني لم أكن أرغب في صمته.

نصحني الطبيب قائلاً:

ــ افعلْ ذلك من أجله.

ماذا أفعل؟ هل أجلسُ بالقرب منه؟ هل أرتبُ شراشف الممدد؟ هل أكذبُ عليه، هذا ما تريده؟ هل أروي له نجاح مسرحية أنتيغون الذي حلم به؟ شربل في عظمته، وإيمان في جمالها، تلك المسرحية التي صُفِقَ لها طويلاً في الظلام، من طرفي الخط الأخضر. هل أجعله يحلم للمرة الأخيرة بكلمات الخائن؟

ــ إذن، افعلْ ذلك من أجلكَ.

من أجلي؟ هل أشاركه بالدماء؟ هل ألطخُ شراشفه، ووجهه، ويديه؟ سأروي لك ما حدث، يا صموئيل أكونيس. اسمع. كان كل شيء على ما يرام حتى وصول الطائرات. وهل تعرف ما حدث، يا عزيزي سام؟ لقد دمَّروا كل شيء. ماذا حدث لممثلينا؟ رحلوا راكضين إلى خنادقهم. وماذا حلَّ بمسرحك؟ عصفتْ به القنابل الأخيرة. وأنتيغون؟ ماتت أنتيغون. ذُبِحَتْ، ومُزِّقتْ، واغتُصِبَتْ. أتسمعني؟ وأنت، كيف حالك يا صديقي القديم؟

مدَّ الطبيب لي يده ليساعدني على الوقوف، لكنني لم أمس يده. أملَ أن أكون بالقرب من سام لأودعه لكنني لم أحركْ ساكناً، فجلس القرفصاء، ووضع حقيبته على الرصيف، كما يتكيف طبيب الأرياف ليعمل على طاولة مطبخ. اعترفَ لي. أجل، لقد رآني البارحة. وفي اليوم الأسبق، على الرصيف ذاته، لكنه انتظرَ كي لا يُفاجئني. أما هذه المرة، فلقد قرر أن يأتي نحوي. فحص عينيَّ، هكذا، في الشارع، وهو يطلب مني أن أتبع بنظري نور المصباح. أصغى إلى دقات قلبي. قاس ضغطي الدموي. كان المارة يشيحون بأنظارهم كوني متنزهاً أصيب فجأة بوعكة.

قال لي إن مستشفاه مفتوح لي في النهار وفي الليل، وأية ساعة أريد يوافق عليها، وإنه يقودني شخصياً بالقرب من صموئيل أكونيس، حالما توافيني الشجاعة، وحالما أرغب في ذلك، وحالما أشعر بالحاجة إلى رؤيته. قال لي إن أيامه تهرب بسرعة، وإنّ الظّ ساعدني لأنه ما زال حياً. طلب مني أن أفكر ملياً، وحدثني عن الكلمات التي تأتي بعد فوات الأوان، وكيف أن المرء يبكي على ذلك وهو بالقرب من

حافة القبر. وضع يده على كتفي، كلمني بدون تكلف، ونصحني بالاستراحة، وكذلك بالنوم، على أساس أن المرض ليس في عينيَّ فقط، لكنه يكمن في جسمي دون جرح ظاهر.

أعطاني بطاقته، فقدَّمتُ له آخر ابتسامة لي.

*

عدت مرتين لأجلس أمام المستشفى، ثم عدلت عن ذلك لأنه لم يكن في استطاعتي أن أعيش ميتة أخرى.

كل صباح، كنتُ آخذ لويز إلى دار الحضانة لأن أورور كانت تعمل، ولأنني كنت في إجازة مرضية. وبعد أن أوصلَ ابنتنا إلى دار الحضانة، أشتري صحيفة ليبيراسيون، ثم لوموند بعد الظهر، ولأنني كنتُ أبحث عن لبنان من خلال الصفحات.

خلال شهر كانون الأول، انسحب الاسرائيليون فجأة من الشوف، تاركين الدروز والمسيحيين وجهاً لوجه.

ــ سنسترجع منهم، بأسناننا، كل إصبع من الأرض.

تصورتُ قوة مروان، وعذوبة «نكد»، كنتُ أعرف أن رجال جوزيف ــ بطرس يواجهونهم.

كثيراً ما اتصلت بلبنان، متحدثاً مرة مع هيمون، ومرتين مع أمه. كان مروان في المعركة مستبدلاً المسدس بالبندقية. هكذا ابتدأ شتائي، وأنا أترقب اسم قرى الجبل في حبر ورق الصحيفة. ذات يوم، وخلال

فترة بعد الظهر، نسيتُ لويز في دار الحضانة، فرجعتُ إلى البيت من دونها، عند منتصف الليل. عشية عيد الميلاد، أشعلتُ الغاز تحت وعاء الماء وتركتُ البيت عندما أعلِن في المذياع أن قرية مسيحية قد عانت العذاب والقتل من ميليشيا الدروز، وأن النساء والأطفال قد قُتِلوا، وهرب المدنيون يهيمون في الطرق، لكن أورور عادت في الوقت المناسب، فوجدت الوعاء وقد ذابت يده، وجدار المطبخ أسوَد من الدخان، وكان الجيران قد طلبوا النجدة. حين عدتُ إلى البيت، انهار كل شيء، وكانت زوجتي تبكي الجدار المسود في حين رحتُ أصرخ لمقتل المسيحيين. كنا خصمين وجهاً لوجه، بنظراتنا القاسية وكلماتنا الشريرة. كانت قبضتاي مغلقتين، فطلبت إليها أن تسكتَ، وأن توقفَ كل شيء، الآن. أردتُ أن تكفَ عن الصراخ، وعن التنفس، وعن الحياة. أردتُ أن تديرَ لي ظهرها، وأن تتخلى عن كل شيء، وألّا تلفظ كلمة أخرى. كان شعرها يُغطي عينيها، وهي تتألم بجنون. أردت أن آخذها بين ذراعيَّ أو أخنقها، لكنني لم أعد أعرف. وعندما مددتُ يديَّ، راحتْ تصرخ.

ـ لا تلمسني! لا تلمسني بعد الآن مطلقاً!

كانت خائفة وكذلك أنا، فقد خفتُ من ذاتي كوني سمعتها تصرخ كلمات امرأة جريحة، وأم قلقة. لم تكن أورور تفقه شيئاً، ولم تعد تفهم شيئاً. راحت تقول إنني أمشي في الشارع شأن رجل نائم، من دون أن أنتبه إلى الأرصفة، وإلى السيارات، وإلى الإشارات الضوئية، وإنني أتقدمُ من دون أن أرى الآخرين. لم أعد أنا كما كنت من قبل؛ فقد كنتُ أنهض في الليل، ولم أعد أنظر إليها مباشرة. لذلك لم أكن سعيداً،

ولم أعد سعيداً، على الإطلاق. لم أبتسم لها منذ أشهر، وغادرتِ الضحكات بيتنا. لم أعد أقترب منها، بل كان جسدي يهرب منها حين تُقرب يدها من بشرتي. كنت أنام في طرف السرير، على حافة الخندق، وقد أسندتُ رجلاً إلى الأرض، ولم أعد أرى أصدقاءنا، ولم أعد أخالط الناس قطّ. وفي الحدائق الكبيرة منها والصغيرة، كانت زوجتي أشبه بمُطلَّقة. ستدخل لويز إلى مدرسة الأطفال في شهر كانون الثاني، فهل كنتُ على علم بذلك؟ أين؟ في أية مدرسة؟

ـ أجب، يا جورج!

لم أكن أعرف، ولم أعد أهتم للحياة. كانت ابنتي، يوم أمس، قد بسطتْ لي رسماً، إنه أول شخص ترسمه، بساقين طويلتين، وعينين واسعتين تعادلان ضخامة رأسه. كتبتُ بسرعة عدة كلمات على ظهر الورقة وأنا أصغي إلى المذياع. لم نعد نجتمع على المائدة لتناول الطعام، ولم أكن آكل سوى الخبز والرز. لم أكنْ أغيّرُ بنطالي ولا قميصي، ولم أعد أتكلم. كنتُ أضربُ بقبضتي على الطاولة وأنا أصغي إلى نشرة الأخبار. كنتُ أقتطعُ مقالات الصحف، وأخط تحتها بكاملها سطراً فسطراً، وأضعُ دوائر على الجمل، وأضيفُ كلمات في الهوامش إلى ما لا نهاية، كما أضع، بالعشرات، إشارات استفهام، وتعجب. كنتُ أثبتُ تلك الأوراق المجعدة بمسامير في كل مكان على جدار غرفة الاستقبال، وقد ربطتُ بعضها ببعض بخيوط ملونة. كنتُ أتحدث وأنا وحدي، ولم أعد أجيبُ. كنتُ مريضاً. كنتُ مجنوناً. لذا يجب أن أعَالَجَ، يجب أن أستشير طبيباً، وأن أطلب النصح. راحتْ زوجتي ترجوني كونها كانت تحبني، وهي تصرح بأنها لم تعد تستطيع تحمل هذه

الحياة. كانت لويز على الباب، وقد جلستْ تستند إلى الحائط، فلم أرها حين دخلت مع أنها كانت تبكي بصمت، ويداها على أذنيها. التفتتُ بغتة، وضربتُ باب المطبخ بالضبط فوق رأس ابنتي، فكسرته شأن من يلطم عدواً، وقد انغرزت قبضتي في الخشب المعاكس. وحين انهارت لويز، رمتْ أورور نفسها عليها، وأخذتْها بين ذراعيها، وركضتْ بها نحو غرفة النوم من دون أن تنبس ببنت شفة. بقيتُ هكذا، وقبضتي سجينة الخشب حيث راح رأسي يدور، وكنتُ أرتجف، وأتنفس بفم مفتوح، وبطبل في أحشائي. لقد كانتا تبكيان. وفي الوقت الذي راحت فيه أورور تهمس بحبها لها، سحبتُ يدي، ونظرتُ إليها، فكانت الدماء تقطر منها، وقد قُشط جلد قبضة اليد، وراحة الكف، وسلاميات الأصابع. لم تكن تلك يدي، ولا ذراعي، ولا أي شيء منيّ. إنه عنف آخر يختلف عن عنفي. أردتُ أن أذهب إلى غرفتهما، وأن أطمئنهما، وأن ألعق دموعهما، وأخمد أنينهما، فلم أستطع، فتراجعت في الممر، فتحتُ الباب وخرجتُ. وذهبتُ لأجلس أمام المستشفى، ثم غادرت مكاني، ومشيت فوجدتُ الحرب من جديد في أعماقي، وعرفتُ أن المرء قد يموت غضباً، وأنني لم أكن بعد على استعداد لذلك.

*

عندما بلغت لويز ثلاث سنوات في ٩ كانون الثاني من عام ١٩٨٣، رجعتُ إلى البيت دون إعلام مسبقٍ في أول بعد الظهر، بعد غياب خمسة عشر يوماً. ذهبتُ أول الأمر إلى الفندق، وهو مكان حقير في

حي «باربيس»، بلافتة تومض فتمنعني من النوم ليلاً، بعدها التقيت بزوجين من أصدقائي، ففتحا لي أريكة تصبح سريراً، وكانت أورور على علم بذلك، فاتصلتْ بي مرتين هاتفياً، لكنني لم أستطع أن أجيبها حيث كان ضجيج قبضتي في الباب يطغي على صوتها.

قالت لي أورور:

ــ يوم الأحد، هو عيد ميلاد ابنتنا.

اعتبرتُ هذه الكلمات دعوة لي.

لم أفتح الباب بمفتاحي بل دققت الجرس، إذ ثمة ضحكات أطفال في البيت، وبالونات من ألوان كثيرة قد عُلِقَت بمسمار، ورسم يصور جُنية. فتحت أورور الباب، وارتسمتْ على ثغرها البسمة التي تستقبل بها الأطفال، والتي احتفظتْ لي بها.

صرختْ لويز:

ــ بابا!

ألقت بنفسها بين ساقيَّ، فجلستُ القرفصاء، وضممتها، فجلستْ أورور معنا، أعدنا تشكيل دائرة حبنا.

ــ تمتمت زوجتي قائلة:

ــ تعالَ.

كان ستة أطفال في غرفة الاستقبال، وقد جلسوا بشكل دائري حول مهرج، وكانوا ينتظرون لويز لتنضم إليهم.

قال المهرج ممازحاً:

ــ لكن ها قد وصل الأب الجميل متأخراً!

فانفجر الأطفال بالضحك.

ـ يمكننا أن نصفق بقوة كبيرة، لهذا الأب المتأخر!

كان ذلك صوت امرأة حين هتف الصغار لي. كانوا أربع بنات، وصبيين، وقد لطَّخوا وجوههم بمساحيق الزينة، وبقبعات من الكرتون على رؤوسهم.

ـ الآن، وقد حضر الجميع، أتريدون أن أنادي «ميمي ـ لينوت»؟

صرخ الأطفال أجل. أدخلَ المهرج ذراعه في كيس كبير أحمر مُزين بالماس، ولبس دمية تشد على يده اليمنى، شأن قفَّاز للسهرة، وتعلو إلى المرفق. لقد كانت دمية بشعر أحمر فاقع، وبضفائر مرفوعة، وبخدين أحمرين وابتسامة كبيرة.

صرخت طفلة قائلة:

ـ إنها «فيفي برانداسيه».

أجاب المهرج:

ـ كلا! إنها «ميمي ـ لينوت».

كانت الدمية خافضة الرأس، ورخوة البدن.

ـ لكنني أرى جيداً أنها لا تزال نائمة. أنوقظها؟

صرخ الأطفال مشجعين.

ـ يجب أن تنادوها بصوت عالٍ جداً! هيا! «ميمي ـ لينوت»! «ميمي ـ لينوت»!

جلستُ أرضاً، في الزاوية حيث كانت لويز تُشدِّد على اسم الدمية، وتصفق بيديها، وهي سعيدة أن تراها ترتعش. راح المهرج ينظر إليَّ، ويتحدث إلى الأطفال ثم يعود إليَّ ثانية. ولأنه كان لحوحاً، ظننتُ أنه يريد أن أوقظَ «ميمي ـ لينوت» بأن أصفق بيديَّ. كان يراقب أورور

بالاهتمام ذاته، إذ لا بد أنهما كانتا صديقتين. بحثتُ عن وجه أعرفه تحت طلاء المرهم الأبيض والأنف الذي هو من مادة الباغة، وسألتُ العينين اللتين اصطبغتا باللون الأسود، فاستيقظتْ «ميمي ـ لينوت»، وحيَّت الحضور بأناقة، وراح المهرج يتكلم من بطنه. كان صوت محركة الدمى جميلاً ورخيماً، والدمية تتكلم بصوت حاد وهي تقول للمهرج:

ـ إذن الأمور هكذا، إنني من خرق، أما أنت فشخص حقيقي؟

كان المهرج يقول نعم. فلها بيت حقيقي، وأصدقاء حقيقيون، ولم يكن للدمية إلّا ذاتها، وهي تعيش في كيس. كانت الأمور تجري على هذا النحو، وإذا توقفت يدها عن الحركة، تصبح الدمية جامدة.

ـ هيا إذن! وحاول، لنرَ!

كان الأطفال يضحكون، أما أنا، فلقد ذُهلتُ. راح المهرج يفقد شيئاً فشيئاً من خفته، فأصبحت حركاته شأن آلية صدئة، فابتعد بنظره عني ليثبته في مكان آخر، وخمدتْ ابتسامته، وكان لكلماته رنين النحاس الأجوف. فبرز صوته، وبدأت «ميمي ـ لينوت» تعيش، وراحت تتحدث بجدية أكبر، وتغمز بعينيها، وتفتح فمها وتغلقه، وتتأرجح، وتسرق حركات معلمتها، وأخذتْ الحياة تمر من الواحدة إلى الأخرى. لقد تخلى المهرج عن الحياة، فكان واقفاً، فجلس بتراخٍ، ثم استلقى على جنبه، منهكاً من التعب، في حين كانت ذراعه تتحركُ وحدها، وهي ترسم تلافيف تثير قلقاً يتزايد. حينذاك، لم يعد أحد يضحك، وحتى أورور، فلقد شحب وجهها، فشعرتُ بالغثيان، وأمامي صبي، بقميصه الأزرق، ورسم ميكي. شاتيلا. بعدها رأيت الصبي ثانية مستلقياً في التراب، وقد كُسر ظهره، واقتلعتْ جبينه رصاصة.

قتلتْ «ميمي ـ لينوت» المهرج الذي كان ممدداً، بلا حياة، وذراعه وحدها مرفوعة في حين كانت الدمية تضحك بسخرية وهي تنظر إلى الأطفال، تقطب حاجبيها، وتلوي فمها، وترفع قبضتها، مكشرة عن أسنانها، وهي كانت تهددهم، فنهض طفلان وهما يصرخان، وذهب ثالث راكضاً في الممر، واسترسلت لويز في البكاء. فمشيتُ بحذر شأن قط متأهب، وقفزتُ على تلك القذارة وأنا أنفخ، وأبصق، وانتزعتها بفظاظة من يد المهرج. وللأنني خفتُ أن تعضني، انتصبتُ واقفاً، وبرمتُها فوق رأسي قبل أن أسحقها بعنف على الحائط.

ـ جورج!

كان ذلك صوت أورور التي صرختْ، ففتحتُ عينيَّ، في حين كان الأطفال متحلقين، ولم يتحرك أحد من مكانه على الإطلاق. كان المهرج يحمي وجهه بذراعيه، وهو يتراجع ببطء نحو النافذة وكنتُ ممسكاً «ميمي ـ لينوت» من مشدها، بينما انفجر رأسها في طرف يدي. وعندها وقف الأطفال بشكل فوضوي، كانت لويز تبكي، فجمعتهم أورور في الممر شأن من يُخلي صالة الصف. لقد كانت النار تشتعل، والدخان يتصاعد، وصفارات الإنذار بالآلاف، والرصاص يصفر في كل مكان، فنزع المهرج شعره المستعار الأزرق، وأنفه الأحمر.

ـ لا تؤذِني!

كان المهرج امرأة، فهربتْ، وسارتْ ببطء بمحاذاة الجدار، دون أن يفارقني نظرها، فانحنيت إلى الأمام، وتركتُ الدمية، ونظرتُ إلى الغرفة الخالية، وإلى الزينة الورقية في السقف، والصحون الكرتونية

على الطاولة، والكؤوس المرسومة بالنجوم، والمناشف المزينة، والرسوم على البالونات المطاطية. نظرتُ أيضاً إلى المرآة، فوق المدفأة الجدارية حيث كان فمي ملتوياً، ونظرتي مغشاة.

*

نمت. نمت فترة طويلة، وأنا مطمور تحت الأجساد الميتة، فلم أعد أشعر بالليل، ولم يكن لي إلَّا الكوابيس فقط، حتى إنني كنت أتناول حبات لأتنفس. في عيد ميلادي الثالث والثلاثين، أعدت لي لويز حلوى باللبن أكلناها في حديقة المشفى، مع أورور ورفيقين، وانقضى الربيع هكذا، أي من السرير إلى النافذة، ثم جاء الصيف. في حزيران من العام ١٩٨٣، سُمِح لي بالخروج، والسير في الشارع، لكنني كنت أعود لأنام في المأوى. إنه غرفة منعزلة، بعيداً من الصحافة، والمذياع، والتلفاز، وكنتُ فيها بمأمن. لقد تمنتْ أورور في الأسابيع الأولى أن تنقطع عني أخبار لبنان، فكنتُ أقرأ جرائد مخرمة، لأن المقالات الممنوعة قد قُصَّتْ بعناية. بعدها توقفوا عن ذلك. تدخل الدكتور كوهين شارحاً لهم أن الإخفاء لا يجدي إلَّا في تأجيل المشكلة. فأنا لم أكن في مستشفاه، ولم يأتِ لزيارتي إلَّا مرة واحدة، ومعه صحيفة «لوريان لوجور» التي اشتراها في ساحة الأوبرا.

في ١٢ تموز، عشية خروجي النهائي، تلقيتُ رسالة من مروان، كانت قصيرة، وجافة، وفظة. لقد قُتِلَ «نكد» من قبل الكتائب، مع ثلاثة شبان دروز، ولم يكن واحد منهم محارباً، بل إنّ سيارتهم تاهت في الخطوط

المعادية، فصفّوهم على الحائط ورموهم بالرصاص. احتفظتُ بالرسالة في يدي طوال يومين وليلتين، لم آكل خلالهما ولم أشرب، بل كان عليَّ أن أذهب لزيارة سام. فبعد أنتيغون، قُتِلَ هيمون، لذلك كان عليَّ أن أطلعه على تلك الأحداث. لا شيء من كل ذلك يمكن أن يبقى بيني وبين ذاتي كونه كان ثقيلاً جداً عليَّ، ومؤلماً إلى أبعد الحدود، وأقسى من أن يتحمله إنسان وحده. سأذهب غداً، سأدخل غرفته، وستكون عيناه مغمضتين. أما أنا، فدماؤهم تضرج يديَّ، وسنتقاسم الصمت.

لقد قلتُ لنفسي كل ذلك، لكنني لم أستطع أن أجتاز باب غرفته.

٢١

ليوبولدين[١٠]

لم أكنْ أعرف أحداً، ثمة بعض الوجوه لا تحمل اسماً، ونظرات حزينة، وهمسات تنبعث من الممر. كنتُ قد رأيتُ تلك الفتاة، وذاك الفتى، أيضاً. ربما في المسرح، وربما في «جوسيو»، لم أعد أعرف. فقد أغلِق تابوت سام بدوني، في نهاية فترة الصباح، فصعدتُ بعد ذلك، من سلم الخدم، وأنا أؤخر لحظة دق بابه. أما أورور فإنها سهرت بالقرب من جثمانه، مع مجموعة من الممثلات حيث كان سام يدير فرقتهن، وقد التقين عمداً لتمضية هذه السهرة المأتمية. لم أشأ أن أراه يحتضر، كما لم أردْ أن أراهُ ميتاً، فمكثتُ ساهراً على لويز في البيت، ثم أوصلتُها صباحاً إلى روضة الأطفال، وبقيتُ بعيداً من كل ذلك. انتظرتُ في المقهى مجيء الأشخاص المتشنجين ليغلقوا الصندوق. رأيتُهم يصلون، وقد انعكست صورتهم على واجهة زجاج المقهى، بلباسهم الرسمي الأقصر من قياسهم، وبأكمام قمصانهم التي تكاد تغطي أيديهم. طلبتُ كأساً أشربها، قدح نبيذ «الكلفادوس» ليُنَشط

---

[١٠] Léopoldine هي البنت البكر لفيكتور هيغو، والتي ماتت مع زوجها بعد يومين من زواجهما، بحادث في مركب نهري، وكانت في التاسعة عشرة من عمرِها. ولقد أحدث موتها صدمة مأسوية عنيفة هزَّت كيان الشاعر فانعكست في شعره، وخلَّد ابنته في قصائد كثيرة. والأبيات التي ذُكرت، وردت في إحدى تلك القصائد والتي بعنوان «غداً، عند الفجر..» (المترجمة).

قلبي، ثم قدحاً آخر، وآخر. وحين نزلوا، تركتُ كرسيَّ، وقطعتُ الشارع العريض. وعندما وصلتُ إلى الرصيف، وضعتُ قلنسوة سام على رأسي، وسط الشارع، لأعرف ثقلها. سيعود الحمَّالون في فترة بعد الظهر، ولم يبقَ أمامنا أنا وسام سوى ساعتين، فقررتُ أن أذهب إلى مقبرة «بانيو»، بعد الجنازة، بعد أن يكون الجميع قد غادروا المكان، لأنني لم أشأ أن تَتبعَ خطواتي خطواتهم، ولم أرد أن أرافقهم، ولا أن أصطفَ معهم، ولا أن أصافحَ أيادي، ولا أن أقَبلَ أحداً. لن أذهب إلى المقبرة قبل الغد، لكنني أخفقتُ، فعدتُ من دون أنتيغون، بلا شيء، وتخليتُ عن صديقي إلى الأرض.

أردتُ أن أترك الغرفة المأتمية، فأمسكني شاب، كان يونانياً، تناهتْ قصة أنتيغون إلى أذنيه. قال لي إن سام من دوَّنَ رغباته على الورق، هناك حيث كانت صفحة قد اقتُطِعت من دفتر وضع فوق النعش.

«كل واحد من أصدقائي، يصلي، ويغْني ويرحل مع شيئين.»

كان هذا كل شيء. استأذنتْ امرأة بالذهاب، وبيدها صندوق صغير، ونزع شخص آخر عن الحائط صورة عربة، تسحق شبك مدرسة «البوليتكنيك».

ـ لكن هل أنت أعمى؟ إنني هناك! هناك، ألا ترى؟

كان سام يُشير إلى نقطة سوداء على صورة الجمهور.

ـ كيف تعرف أنها أنت؟

ـ أعرف ذلك، هذا كل ما في الأمر. انظرْ! إنني على وشك أن أسقط من الشبك الحديدي.

ابتسمتُ، ثم استدرتُ حول الأريكة، والطاولة. كانوا خمسة عشر شخصاً، يشربون دون أن يتحدثوا كثيراً، لكننا كنا نسمع دوريفليه يعزف قداسه الجنائزي. تسللت خلف الأريكة، مستنداً إلى ظهرها، ونظرتُ إلى هؤلاء الناس، وكذلك إلى انعكاس صورتي على الزجاج. إنه يوم الاثنين من أيام الخريف الذي قيل فيه كلُ شيء.

«غداً، عند الفجر، حين يبيض الريف، سأرحل.
وكما ترين، أعرف أنك تنتظرينني.
سأذهب عبر الغابة، سأذهب عن طريق الجبل.
ليس في استطاعتي أن أبقى بعيداً عنك أكثر من ذلك...»

لم أرفع صوتي، بل رحتُ أردد الأبيات، وعيناي على الخارج من دون أن أرى ما يحدث في الداخل، ومن دون أن أسمع أية ضجة. لم أضع أية نبرة، ولا أي لون، بل تركتُ الكلمات تكسو صوتي. كنتُ حزيناً إلى أبعد الحدود، لكن دموعي قد جفت، وذهبت الأخيرة منها مع الدماء والماء والصابون، في حمام مروان.

لم يُصفِق أحد، شأن ما حدث منذ قليل، حين تلتْ امرأة شابة مقطعاً من مسرحية «إلكترا»، لجيرودو، فانتقلتِ الأنظار إلى شيء آخر، وعادت الكؤوس إلى الشفاه، ولم يبقَ لي هنا ما أقوم به.

ذهبتُ إلى المكتبة، وأخذتُ كتاب الطبخ الألماني، وكذلك حقيبة سام، كيس شركة طيران الأولمبيك المصنوع من البلاستيك البالي، واستأذنتُ بالخروج، والتقيتُ بعض النظرات، فحنيت رأسي هنا

وهناك، صافحتُ يدين، ثم تركتُ زجاجة البيرة التي كنتُ أشربُها على حافة النافذة.

وحين وصلتُ إلى الشارع، فتحتُ الكتاب، وأخذتُ صورة جوزيف بوكزوف، المدسوسة بين صفحتين، ثم رميتُ كتاب الطبخ الألماني داخل أول حاوية للقمامة. وقبل أن أنزل إلى المترو، نظرتُ إلى رجُل «اللاصقة الإعلانية الحمراء». وعندما حدثني سام بكلمات فضفاضة عن رَجل أعدِم بالرصاص، لم أفهم شيئاً منه، بل لقد احتجتُ إلى صمت ما بعد الحرب لأتعرف إليه، فمررتُ إصبعي على وجنتيه الغائرتين، وعلى نظره، وعلى شفتيه الرقيقتين.

ــ أنظر إليه، يا جورج، إنه سيموت قريباً، ولم يعدْ يستطيعُ أن يفعل شيئاً، لكنه ما زال يحلم بتمزيق جندي.

خرج رجل من المترو، نظر إليَّ، ثم أشاح بنظره عني حين كنتُ جالساً على الدرجات الحجرية أتحدثُ إلى صورة، والقلنسوة على رأسي، واعداً تلك الصورة أن أثأر لها.

*

لم يكن حولنا من طبيعة إلَّا حديقة «مونسو». فلا وجود لأهل يملكون منزلاً فسيحاً، ولا مقراً بعيداً من تلك البيوت الريفية حيث

تتعاقب الفصول. يوم الأحد في الثاني من تشرين الأول من عام ١٩٨٣، وللمرة الأولى منذ خروجي من المستشفى، عهدتْ أورور إليَّ بلويز لأهتم بها بعد الظهر. كانت يدها في يدي، وكنا نسير في ممرات الحديقة، ننظرُ إلى الأوراق الذابلة التي رحت أتبع إيقاعها، ببطء، وأنا مندهش من كل خطوة من خطواتها.

دفعتُ ابنتي في أرجوحة من المعدن الأخضر، لكنها أرادتْ، بعد ذلك، رؤية البط، ثم الأحصنة الصغيرة، فطلبتْ مني دراجة كهدية لعيد الميلاد، شأن الصبي الصغير الذي يركب دراجته أمام بيتنا. اشتريتُ قطعتين معدنيتين تُدفعان لحيث مكان الركوب على الألعاب الخشبية، فجلستْ في عربة من الخشب المقشور، ثم على حصان خشبي كئيب، في حين كنتُ مع الأمهات، والآباء، ومع كل المنتبهين الذين يفيضون حباً. وفي كل مرة تمرُ فيها أمامي، كنت أرفع يداً وأنا أغني اسمها. كنتُ أفعل شأن الآخرين، أقلدُ دور الأب، فرأيتُ نفسي منحنياً نحو الدوَّار، بموسيقاه الحزينة، وانقبض قلبي من رؤية كل هؤلاء الأحياء. ثمة رجل يأخذ صوراً لابنه، وأم تمسحُ ركبتي طفلها. بعدها رغبتْ لويز في أكل البوظة، فكنتُ أوافقها على كل شيء، ونادراً ما كانت عيناها تلتقيان عينيَّ، بل كنتُ أقوم بحركات فيها بعض المبالغة.

كانت أورور قد أسرّت لي:

ـ لويز تخاف منك.

أمام كشك السكاكر، كانت امرأتان تتباريان، وكانت إحداهما واقفة من قبل، فلم توافق على ذلك الأخرى، فاتهمتها بأنها اخترقت رتل الانتظار.

ـ لكنني، أنا أيضاً أزعجكم!

وقفتُ وراءهما، أستشيط غضباً، وتنفستُ بهدوء لأنه يجب أن أهدأ.

امرأتان تتقاتلان من أجل قطعة حلوى، في يوم سلم من أيام الآحاد، فخفضتُ رأسي، وعينيَّ، ورحتُ أصغي لما يجري في مكان آخر، من صيحات الأطفال، وصفير الحارس ليحمي مروجه الخضراء. طلبتْ لويز كتلة بوظة بالشوكولا، فكانت كبيرة جداً، وقد وضِعت بتوازن على قرن من البسكويت. وبعد عدة خطوات، وقعتِ البوظة، وسُحقت عند قدميها، وأصيبت لويز بالذهول، فنظرتْ إلى الكتلة المسحوقة، والقرن الفارغ، ونظرتْ ثانية إلى البوظة وراحتْ تبكي. في معطفها الأزرق، ووجهها الذي تغطيه القبعة، لم أكن قد رأيتها صغيرة هكذا قط. كانت الدموع تُلطخ وجهها، في حين كانت قدماها منطويتين، وقد سقط الجراب، أما بنطالها الوردي، فكان قصيراً جداً. راحتْ تبكي فأردتُ أن أسكِتَ حزنها وأنا أجلس القرفصاء. بوظة؟ ليس هذا حدثاً خطيراً. لكن أي طفل يبكي بسبب بوظة؟ هل تدركين ذلك، كتلة بوظة من الشوكولا؟ ألا تخجلين من ذلك؟ أمسكتُها من كتفيها لكنها لم تكن تسمعني، فانتزعتُ القرن الفارغ من يدها، جرفتُ برجلي الأرض، وكتلة البوظة، والحصى، والتراب، ومددتُ لها الهدية الفظة.

ـ خذي! كلي! كليها، بوظتك!

راح الناس ينظرون إليَّ، والتقتْ عيناي بعيني أم شريرتين فتراجعتْ لويز، وتعثرتْ في حركتها. لم ألمْسها، أقسمُ بذلك بل

اصطدمتْ قدمُها اليسرى بربلة ساقها اليمنى، فسقطتْ، وجهها إلى الأمام، ويداها خلف ظهرها. اصطدم جبينها بالأرض، وكذلك خدها. رفعتُها بغتة حيث كانت تبكي من الألم، والمفاجأة، وراحتْ تنادي أمها. كانت الدماء تسيل من جبينها، ومن وجنتها، فنزعتُ قطع الحصى التي التصقت بلحمها، الواحدة تلو الأخرى، وكنتُ أردد أنها وقعتْ. لم أدفعها، لا علاقة لي بما حدث، لقد زلتْ قدمها، فتعثرت لأنها قامت بحركة خاطئة. كل إنسان عرضة لذلك، أي للحركات الخاطئة! يا لتلك الفكرة، وهي وضع الحصى في حديقة للأطفال!

أخذتُ لويز بين ذراعيَّ ومسحتُ جراحَها بكمي، ولم تكن ذا أهمية فعلاً. إنها بعض الخدوش والخرمشات التي تحدث في باحة المدرسة. لقد ركضتُ معها حتى البيت، وتوقفتُ في الطريق ثلاث مرات أستجمع أنفاسي وأنا في حالة من الغضب. فقد جمعتُ البوظة من الأرض، وأسأتُ التصرف معها وهي حزينة. صرختُ أن هناك أطفالاً، ذُبحت رقابهم في مهدهم، لقد قُطِّعوا، وسُلخوا، وتقطعت أوصالهم، وسُحِقوا بضربات من الحجر، وابنتي تبكي من أجل بوظة لعينة؟ أهذه هي مأساتها؟ كتلة من بوظة من الشوكولا وقعتْ من قرن من البسكويت؟ كانت مصائب السلم تثير اشمئزازي. تقدم رجل، وطلبَ مني أن أهدأ، فوقفتُ أشبه بوحش كاسر، فتراجع من دون أن ينبس ببنت شفة. هل هذه هي مشكلتك؟ كتل البوظة؟ والركبتان المخدوشتان؟ والشعر المتشابك بعد الحمام؟ هل هذه هي حيواتكم؟ يوم الأحد هذا الذي تنبعث منه نتانة يوم الاثنين؟ وتلك

الأسر على شكل القطيع؟ وتلك الضحكات المتصنعة لأخذ الصور؟ تلك السعادة البائسة؟ خافت لويز مني. حينذاك خطفتها من الحوض الرملي، ومن الحديقة، ومن الشارع، ومن يوم الأحد، وركضتُ حتى البيت لأضعَها في مأمن.

أخذتْ أورور ابنتنا بين ذراعيها، وقالت إنها وقعت. هذا كل ما في الأمر. تأرجحت، وركبت الخيول الخشبية، ورأت البط، والأحصنة الصغيرة، وأوراق الشجر الحمراء. كان في جيبها ثلاث حبات من الكستناء، للمعلمة. لم تتحدث عن البوظة، لا شيء من ذلك. لقد زلت قدمها، وحين ملأتْ أمها حوض الحمام، طلبتْ مني لويز أن أغسِّلها، فحملتُها إلى الحوض، وألقتْ لعبها في الماء الفاتر، فرحتُ أنظر إليها، وأنا جالس على حافة الحوض. رأيت جفنها وقد انتفخ، وبدا خدشُ جبينها جرحاً. فكنتُ أنا المسؤول، أنا الذي أحدثتُ ذلك. لقد عذَّبتُ ابنتي، كنتُ أبتسم لها، نظفتُها بلطف بقليل من الماء، ثم دلكتُ جسمها: اليدين، والرجلين، والجسم كله، ثم مددتُها في الحوض لأغسل شعرها، بصابونها السائل، والذي هو بطعم الفريز، وأنا أردد الجملة ذاتها دائماً.

ـ هل يُزعج الصابون عينيك؟

ـ كلا، إنه لا يُزعجني.

لففتها في منشفتها، وحملتها إلى غرفتها. كنت أحب تلك اللحظة، هذا الجسم المبلل على صدري، وهذا الشعر على وجهي، وهاتين الذراعين تطوقان رقبتي. اخترنا ثياب النوم.

ـ ألبسها وحدي!

أخذتُها من يدها للذهاب إلى المطبخ، ولم أكن قد فعلت ذلك مطلقاً. كنتُ أمسك يدها لتنزل من الرصيف، وأمام باب المدرسة، وقبل جرس الباب بالضبط، ولكن ليس في الممر لنمشي في بيتنا. التقتْ عيني بنظرة أورور التي كانت تبتسم، فوضعتْ كتابها على الطاولة المنخفضة. كان الأب والابنة يمشيان يداً بيد على عصا الممر البحري، فجاءت لتنضم إلينا في المطبخ. كانت لويز تريد مزيداً من المعجنات التي هي على شكل صدفات، أضفتُ قطعاً من اللحم المقدد. فأكلتْ ببطء، وهي تشرب بصخب بعد كل لقمة. كنتُ جالساً على الكرسي الصغير، أنظر إلى ابنتي. مررتْ أورور ذراعيها حول كتفيَّ وقد التصقتْ بظهري، قبلتني بلطف من عنقي، ولم تصدر منها هذه البادرة من قبل.

سألت ابنتنا قائلة:

ـ هل أنتما عاشقان؟

ابتسمتُ. ذهبتْ أورور إلى غرفتنا.

ـ سأنام، فهل تأتي بالقرب مني؟

جلستُ بالقرب من لويز، على حافة السرير، لأروي لها حكاية من حكايا الليل وتركتُ غرفة الحمام مضاءة. كنتُ أتنفس بصعوبة، ومع ذلك رحتُ أنظر إلى وجهها المشوه، وكذلك إلى يديها، وشعرها كأنني أسرق الصور الأخيرة. كانت عيناها تترنحان من النعاس، فوضعتْ إبهامها تخفي بها فمها، واستدارتْ. قرأتُ صفحة أخرى،

حيث كان أرنب أبيض يركض بين السماء والثلج، من دون أن يعرف للون وجوداً، وعندما نامت لويز، أغلقتُ الكتاب، وذهبتُ إلى غرفة الجلوس، فجلستُ على الأرض، في العتمة، وقد أسندتُ ظهري إلى الحائط؛ إنني نمتُ، على ما أعتقدُ.

في الساعة الرابعة، عدتُ إلى غرفة ابنتي، وانحنيتُ عليها، كما أفعلُ كل ليلة منذ عودتي من لبنان. وضعتُ يدي على جبينها الدافئ، وعلى جذعها. بحثتُ، شأن كل ليلة، عن قلبها السريع الذي يُشبه قلب حيوان صغير، وعن الدماء التي تنبض في أسفل عنقها. وكما كل ليلة، سمعتُ تنَفّسَها، واستنشقتُ نَفَسها. وشأن كل ليلة، خشيتُ أن تموت طفلتي قبل الفجر.

ذهبتُ، بعد ذلك، إلى غرفتنا حيث كانت أورور نائمة أيضاً، على ظهرها، وفمها شبه مفتوح، وكانت قد أشعلتْ شمعتنا.

في المرة الأولى التي تبادلنا فيها الغرام، أطفأت أورور الضوء، ثم أشعلت شمعة. كانت حاملاً، وتخاف أن أراها عارية، اختبأتْ تحت الشراشف، وراحت تلعب بالعتمة. لم نتبادل الغرام بطريقة أخرى مطلقاً إلّا وسط هذا الغبار الذهبي. كانت أورور تضع الشمعة في قدح؛ باعتبارها كاهنة نارنا المقدسة، ثم كان الشمعدان العتيق الذي أتى فيما بعد. إنه أول شيء اشتريناه معاً، من مخزن بيع أوانٍ قديمة في مدينة كانكال. لقد أتيتُ بالسرير، وجلبتْ هي معها البراد والفرن، كما نقلنا مكتباتنا، وخزائننا. لم تكن كراسيها متجانسة، فأتيتُ بطاولتي، وأحضرتُ شراشفي، ووسائدها، ولوازم المائدة الملونة من

عندنا، والصحون من مقاطعة بريتانية، وطناجر من ماين. لكن هذا الشمعدان النحاسي كان لنا. فقد دفعتْ نصف ثمنه، ودفعتُ النصف الآخر، ولكنها لم تكن ترى لماذا على الشاب أن يقدم النور وحده.

أتذكرُ عينيها حين أرتني إياه، وقد رفعتْ يدها فوق مجموعة العتائق. كانت تبتسم، وتغمز بعينها، وتمد لسانها كالحربة في زاوية شفتيها شأن طفلة، تصفق به في الهواء كأنه عصا رئيس فرقة موسيقية. في ذاك المساء، اشترينا شموعاً، ووضعنا الشمعدان للمرة الأولى. كنا نأخذه معنا في عطلتنا، وفي سفرنا، وفي بيوت أصدقاء يستقبلوننا. لقد صنعنا ابنتنا لويز على نوره. كانت أورور تعد الأيام في دفتر صغير. كانت هنا، هذه الليلة، الآن، وكانت الشمعة شبه ميتة. كنا قد أشعلنا ما تبقى من الفتيلة السوداء، وتبادلنا الغرام، إلى أن انطفأت الشمعة، وشممنا رائحة الدخان الثقيلة، والأزيز حتى حلول الظلام.

تحركت أورور قليلاً، ووضعت يديها تحت خديها، واستدارت على جنبها، فاستدرتُ بدوري. كنا وجهاً لوجه. نظرتُ إليها. نظرتُ إلى حركاتها في الليل، إلى جبينها المتحرك، وإلى ارتعاش منخاريها. استلقيتُ ثانية على ظهري، ورقبتي بين يديَّ المتصالبتين. وكان ما جرى في الحديقة، ثم الحمام، والطعام، والنوم، ونفَس لويز وتنهدات أورور. لقد انطفأتْ الشمعة، وكذلك رائحة الدخان الكثيفة، والأزيز، والظلام، ووصل حفل الوداع إلى نهايته.

لم أكن أشعر بشيء. لا بالحزن، ولا بالمرارة. لم يكن في فمي أي مذاق، ولم أحس أي انفعال، أو شعور بالبرد، أو الحر، أو الجوع، أو النعاس. لم أعد أسمع قلبي، ولا أفكاري، ولا الصخب الذي يحدثه الصمت. لم أكن خائفاً. أدرتُ رأسي، فنظرتُ للمرة الأخيرة إلى الصورة البيضاوية الشكل التي تركتُها هنا. نحن الثلاثة. أورور ضاحكة وجميلة. لويز تغمز بعينيها تحت أشعة الشمس. وأنا أبتسم للغد بشفتيَّ المُطبَقتين. كنا هالكين. جعلتْ الحرب زوجتي شأن أرملة، وصنعتْ من ابنتنا نصف طفلة، وها هي الآن تطلبني، تريدني لها، تلك الحرب. فهي لم تكن تخاف من صراخي، ولا من ضرباتي، ولا حتى من نظرتي، بل كانت الوحيدة الجائعة حقاً لتأكلني.

٢٢

كريون

غادرتُ حياتهما في اليوم التالي، فقبَّلتُ أورور، وضممت لويز بين ذراعيَّ. وهذا المساء، سيلتقي الجميع حول وجبة عشاء بيتزا بالطبق، أمام التلفاز، لكن كان عليَّ أن أذهب إلى مصبغة الكوي بالبخار، لأحضر معاطفنا الشتوية. وحين خرجنا للذهاب إلى المدرسة، صففتُ أشياء الفطور من طاسات، وزبدة مالحة بقيتْ على الطاولة، وقدح عصير البرتقال الذي لم تكن ابنتي قد لمسته. مسحتُ غطاء الطاولة بقطعة الاسفنج، وكنست أرض المطبخ، ثم غطيتُ سريرنا بأغطيته، ونفضتُ الوسادات قبل أن أضعَها في مكانها، كما التقطتُ حزاماً، وقميصاً لزوجتي، وأعدت كتاباً وقع من على الطاولة. بعدها ذهبتُ إلى غرفة لويز حيث كانت أغراضها وأشياؤها مبعثرة خلال فترة الليل فلممت ثلاث لعب وبرية، وقطعاً من لعبة تُركبُ، ورتبتُ في كيس بنطالين، إضافة إلى قميصين، وسروالين، وجوارب، وفرشاة أسناني. لففتُ لياسين مفتاح يافا والتراب في منديلي الرمادي، مع قلنسوة سام، وكذلك نسختي من مسرحية أنتيغون، مع ملاحظات كتبتُها كمسودة. في اليوم الفائت: حولتُ مالي إلى حساب زوجتي، وسحبتُ بعض المال النقدي الذي يكفي ليُقيم أودي عدة أسابيع.

حاولت أن أكتب لأورور وللويز، لكنني لم أوفق في كتابة عبارات لها

معنى، فجاءت الجمل مشبعة بالكبرياء. لن أموت غداً، شأن جوزيف بوكزوف، لكنني استعملت مع ذلك كلمات من أعدِم بالرصاص. ومع أنه لم تكن هناك أية عارضة أشْنقُ عليها على الإطلاق، لكنني كنت أقول الوداع شأن رجل مُحَطّم. رسمتُ للويز شمساً تغمز بعينها. وماذا أيضاً؟ كانت الشمس تسخرُ، وتستأذن بالانصراف وهي تبتسم؟ وتقول إنها قد تعود؟ رسمتُ، بعد ذلك، نجوماً على ورقة بيضاء، وأنا أربط بعضها ببعض شأن قبة سماوية. بابا الذي هو في السماء. إنها رسالة حزينة.

حينذاك لم أكتب شيئاً، ولم أترك شيئاً؛ فعملية التنظيف أخفتْ كل أثر، وقررتُ ألّا أضيف أي شيء، فوضعتُ المسوّدات التي سأرميها في بيروت، داخل حقيبتي، وأطفأتُ الأنوار في شقتنا.

*

تدبرتُ أمر عودتي وحدي. قبرص، فالمركب، ثم مرفأ جونيه لأنّ مطار بيروت، المغلق، كان قد أصبح مركز قيادة القوات الأميركية. وهكذا اضطرتني العودة إلى لبنان إلى أن أقوم بجولة حول العالم.

كان مروان هناك، وقد أسند ظهره إلى سيارته الحمراء، فلم يبتسم لي، ولم يرحب بمجيئي لأنه لم تعد لديه أرض ولا أسرة يقدمهما لي. فتح ذراعيه، فالتجأت إليهما، فضمّني إليه كما كان يضم «نكد». عبرنا نقاط مراقبة «القوات اللبنانية»، فخفضَ مروان عينيه، لأنّ هؤلاء كانوا يجابهون أهله في الجبل. فتّشونا ثلاث مرات، وأيدينا مرفوعة، كما

فتشوا صندوق السيارة، وعلبة القفازات، وتحت الكراسي، والواقيات من الصدمات. كنتُ مُخرجاً مسرحياً، ومروان سائقي. لماذا درزي؟ لأنني كنت أقيم في فندق «كافاليه»، في منطقة «الحمرا»، وصاحب الفندق درزي، إذن كان ذلك أكثر سهولة بالنسبة إليَّ. هل كنا نعرف ما يجري في الجبل؟ أجل، طبعاً، كنا على علم بذلك. مقتل المسيحيين؟ أجل، بالتأكيد. تحدثت الصحافة كثيراً عن ذلك في فرنسا. ما رأيي في تلك الأمور؟ لكنها فظيعة شأن كل المذابح.

حتى وصولنا إلى بيروت، لم ننبس ببنت شفة. فبعد أن اجتزنا الخط الأخضر، لم يعد مروان متشنجاً بل فتح المذياع. وفي إحدى زوايا الشارع، أصبتُ بالذهول حيث كان هناك تحصين بأكياس رملية، وبسقف من صفيحة حديدية متعرجة، يراقب المفترق. كان في داخله جنديان فرنسيان، وقد غُرِز العلم الفرنسي فوق هذا المبنى الهش، فاستدرتُ نحو هذين الصبيين اللذين كانا شابين، بقبعتين ورشاش يخرج من الفتحة، وأطفال يلعبون حولهما.

أطلق مروان قائلاً:

ـ يتحصن الأميركيون خلف الحواجز، في حين يقوم الفرنسيون بإصلاح تمديداتنا الكهربائية.

كانت تلك جملته الأولى والأخيرة طوال النهار.

ظننت أنه سيستضيفني في بيته، لكنه أوصلني إلى فندق «الكافاليه». فعدت ثانية إلى غرفتي، في الطابق الثاني، بالرغم من أن الأسعار ارتفعت بسبب الحرب. قال لي سامي البواب إن حسابي قد سُدِّدَ، وإن ليالي غيابي قد دُفِعت على فاتورتي حيث كان أمامي ثلاثة أسابيع.

وسألني أيضاً إن كنا سنمثل أنتيغون، فرفعت كتفيَّ قائلاً: ربما. لم أعد أعرف. قدم لي كأساً من الويسكي بعسل الخَلَنج ليرحب بي. كان البهو قفراً مع أن الفندق لم يصب وكذلك حوض الأسماك، فخرجت إلى مدخل الباب، والظلام قد أرخى سدوله، وبيروت نائمة. ليس ثمة أية طلقة، ولا أي حطام من الزجاج، ولا أي فولاذ ممزق، ولا أية صفارة إنذار مدوية. شرح لي طبيب أن الهدنة تأتي بالقلق، لأنّ الناس كانوا ينامون على دوي المدفع، وصار الصخب هو المألوف، وحين يتوقف، يعز النوم على الناس.

قال لي:

ــ لم أصف في حياتي هذه الكمية من الأدوية لمعالجة الانهيار العصبي، ولا المنومات مطلقاً إلَّا خلال فترات الهدوء.

في السكون الكبير، يُصاب الرُضَع أنفسهم بالذعر، وتُفضِل أمهاتهم قصف القذائف على تهديد هذا السكون، الذي يشعرون به.

مشيتُ حول الفندق فرجعتُ قلقاً، ولم تكن عودتي مؤهلاً بها. لم يفهم مروان لماذا عدتُ. لم يكن يهتم بالمفتاح، ولا بحفنة التراب. هذان الرمزان اللذان جئت من أجلهما لأعيدهما إلى مناضل فلسطيني، كتبتُ له أولاً لأشاركه في مصابه الأليم: ابنه «نكد» وبطلي هيمون. هو يتيم لفقدان ابنه، وأنا في حداد على حلمي. لم يُجب على رسالتي. حينذاك، اتصلت به هاتفياً، عشر مرات في ثلاثة أيام، والحمى تكوي أحشائي.

ــ سأعود، يا مروان.

تركت كل شيء. لم يعد لي شيء أقوم به بين ذراعيّ السلام، في عالم يبكي فيه الأطفال من أجل كتلة بوظة. كان مروان جافاً، وفظاً. فماذا

تركت؟ أسرتي؟ بلدي؟ وماذا سأفعل هنا؟ بأي حق أطالب بمكان صغير لي في هذه الحرب؟ أجبت أن الأمر ليس هكذا. إنني لا أطالب بشيء، بل أردت فقط أن أشرِّف وعداً، أن أسلم لرجل هذا التراب وهذا المفتاح، اللذين انتزعتهما من شاتيلا. وماذا بعد؟ ماذا سأفعل بعد ذلك؟ لا أعرف. لا أعرف بعد تماماً ما أنا فاعل. سأعود إلى بلدي، بسماء بدون طائرة، وبليالٍ بلا خوف، وبأقبية لا تحمي فيها سوى الخمور. لقد جعلني أقسم، أن أعود بعد ذلك، أن أرجع من حيث أتيت، وأن أجد حياتي، وحبي، وحناني ثانية، وأن أراقب صبية المدرسة، وأن أشرب زجاجة بيرة في الخريف في سطح مقهى، وأن أجد مكاناً في مروج أيام الآحاد، وأن أرتجف أمام فيلم، وأن أغمض عينيَّ لسماع أغنية، وأن أضحك وأنا أشرب نخبه، ونخب ذكراه، وألا أرجع مطلقاً ما دام بلده يقطر دماً. ووعدتُ. في الهاتف، أقسمتُ، ويدي مرفوعة. حينذاك قبلَ أن يكون مضيفي للمرة الأخيرة.

عاد المحاربون المخلصون لعرفات إلى لبنان، بعد أن طُردوا من بيروت، واستقروا في طرابلس، في شمال البلد، ثم دفعتهم القطع السورية، وكذلك المنشقون الفلسطينيون إلى مخيمات لاجئي «البداوي» أو «النهر البارد». كان ياسين هناك وقد سقط مع رفاقه في الفخ، فقاوم شقيق إيمان هجومهم، وظهره إلى الحائط، وأجرى صحفي من مجلة باري ماتش (Paris-Match) مقابلة معه، وظهرت صورته في المجلة الأسبوعية. وقبل أن يذهب ثانية للقتال، عهد ياسين إلى الصحفي بكلمة، مع اسمي وعنواني، يعلن لي فيها أن أخته قد قُتِلت في شاتيلا،

وكذلك والده، وجميع أفراد أسرته، ولم يبقَ إلّا هو، ويتمنى إن أكون في صحة جيدة، وأن ترى عيناي أشياء جميلة، ويقول لي الوداع.

أطلعت مروان على الرسالة حين وصلت إلى جونيه، فهزَّ كتفيه. لقد كان ياسين في البداوي قبل شهرين؟ وماذا إذن؟ هل كان حياً؟ أو ميتاً؟ كيف نجده؟ كيف الوصول إلى الجبهة؟ ولماذا كل ذلك؟ ذكرني به؟ من أجل مفتاح وحفنة تراب؟ صرخت أن هذا هو السبب، وإذا لم يساعدني، فسأذهب وحدي، سيراً على الأقدام، أو زحفاً، أو جاثياً على ركبتيَّ شأن تائب. إذن كان لا يريد؟ إنني أفهم ذلك. لذا فليتركني هنا، في هذا المرفأ، وليبتعد هو وسيارته الحمراء. فليرجع إلى جبله لقتل آخر شجرات الأرز. فتح لي باب السيارة من دون أن يُجيب، وحتى وصولنا إلى بيروت لم نتحدث مطلقاً.

في اليوم التالي، الساعة السادسة، استقبلني مروان في بيته. جاء ليأخذني من الفندق شأن شرطي يستدعي ضحيته. لم تكن زوجته هناك، ولا بناته. وفي إطاره من الخشب الأسود، كان «نكد» ينظر إلينا وهو يبتسم، فأجلسني في مقعده الخاص به، وهذا شرف. لم يكن يستطيع أن يصحبني حتى طرابلس لكنه قبِلَ أن يتركني في المراكز الأمامية السورية، على الطريق الساحلي. كان صحفيون غربيون يحاولون يومياً عبور خط الجبهة، بإذن من المنشقين الفلسطينيين حيث يمكنني أن أنضم إليهم خلسة. ثمة مجازفة، لكنها ممكنة. كان بإمكان كل شيء أن يُغلق في ليلة، أما اليوم، فما زال بالإمكان الدخول إلى طرابلس. فإذا أردتُ ذلك، يصبح سائقي، وتغدو الأذون القنصلية،

والتوصيات التي جُمعت ضرورية لتمثيل أنتيغون. ظهر اسم مروان في وثيقة رسمية يونانية، باعتباره «مترجماً رسمياً»، فكان عليَّ أن أحمل معي هذا الأذن بالعبور. في ضاحية طرابلس، كان للصحافة مقر عام، وهو سيوصلني إلى هناك ويعود إلى بيروت. لم يشأ، هذه المرة، أن يفعل أكثر من ذلك بحيث لا يمكنه عمل أي شيء آخر لا من أجله، ولا من أجلي.

كنتُ جالساً في مقعده، وهو واقف، بشكل مستقيم وسط غرفة الاستقبال. كنتُ مستعداً أن أوافق على كل شيء، وأن أشكره على كل شيء، لكنه أوقفني بإشارة من يده قائلاً:

ــ هل عندك عنوان ممثلك المسيحي.

لم يكن هذا مجرد سؤالٍ.

ــ شربل؟

ــ لا يهم. هل هو عندك؟

ــ أجل، إنه معي.

جلس مروان، ففتح زجاجة ماء دون أن يقدم لي كأساً.

ــ إن أخاه واحد من زعماء الكتائب.

ــ جوزيف ــ بطرس؟

هزَّ الدرزي رأسه، ثم ردد اسم الرجل الذي كان يتلو شعر هيغو وهو ينظر إلى حدقة بندقيته.

ــ من يسيطر على الجبل، يسيطر على لبنان. أكنتَ تعرف ذلك؟

لم يعد مروان ينظر إليَّ بل كان يستند إلى الواجهة الزجاجية، ويداه خلف ظهره. لم أجب. لم أكن أعرف بماذا أجيب.

ــ لقد حررنا ستين قرية من قُرانا، هل تعلم ذلك؟

كنت أعرف ذلك، أجل. ما يقرب من ٢٥٠٠٠٠ مسيحي نزحوا، وهم الآن على الطرقات.

ــ وآلاف من ميليشيا الكتائب قد لجأوا إلى «دير القمر»، أتعرف هذا أيضاً؟

ــ ذكره التلفاز الفرنسي، والإذاعة، والصحف. يحمي الكتائبيون ٣٠٠٠٠ مدني في المدينة التي يحاصرها الدروز، ويخشى كل واحد الهجوم.

ــ هل تعرف كذلك أن البحرية الأميركية قد قصفت مواقعنا؟

بارجة «نيو جيرسي» «New Jersey»، أجل. كنتُ أعرف ذلك.

ــ وأن الكتائبيين يسعون يائسين لتزويد رجالهم الذين وقعوا في الفخ، بالمؤن والعتاد؟ كلا. لم أكن أعرف.

ــ إن أخا صديقك هو واحد من هؤلاء الذين يفككون حصارنا.

استدار مروان بحيث لم يعد له الوجه ذاته. لم يكن أبا «نكد» المسكين، ولا الدرزي الضاحك، ولا أي وجه قد عرفته عنه. لقد أصبح رجل جبل لبنان، وكان ينظر إليَّ بنظرات جلّاد، فأصابني الخوف، ليس منه، لكن من نفسي. لقد أدركت أنني لم أكن في هذا المقعد لأصغي إليه وأستمع له. عرفت أن شيئاً ما هائلاً بيني وبينه على وشك أن يولد. سكتَ ثم نظر إليَّ حيث كان ينتظر، فسألته:

ــ ماذا تريد؟

ضم مروان ذراعيه لأنه كان لديه عده متسع من الوقت، وكنتُ سجينه. سيرمي لي بطاسة حين يحل الظلام، وكذلك بسطل أقضي

فيه حاجاتي، ورفعتُ حاجبيَّ، رحتُ أشجعُ جلادي في المستقبل.

ـ يعرف ممثلك أين يوجد أخوه، ويجب أن يقوله لك.

ـ أن يقوله لي؟ لماذا لي؟

ـ لأن رجاله قتلوا «نكد»، وصديقتك إيمان، أيضاً.

ـ رجاله هو؟

ـ إنهم ذاتهم، رجاله، أوليس رجاله. ماذا يغير ذلك في الأمر؟ إنهم جيوش الكتائب الذين دخلوا صبرا وشاتيلا. إنهم هؤلاء الذين دمَّروا قرانا وقتلوا أهلها. أكان الآخر هناك أم لم يكن، هذا لا يهمني. إنه يحمل اللباس الرسمي نفسه، والصليب ذاته. إنه أحد رجاله، فهو يُمثل الآخرين جميعاً، كما أمثل الدروز الذين يُعمرون الأرض كافةً.

فكرتُ طويلاً، ثم نظرتُ إلى مروان الذي قالت له عيناي نعم.

*

كان شربل على وشك الرحيل. وحين وصلت إلى بيته، أغلق حقيبته، وفتح لي الباب، ثم تراجع، ونظر إليَّ، فوقع كل منا بين ذراعي الآخر من دون أن نقول كلمة؛ فمنذ قنابل ٤ حزيران من عام ١٩٨٢، لم نتواصل. كان قد اجتاز الشارع، رافعاً يده، متمنياً حظاً سعيداً لإيمان التي دعاها «أختي الصغيرة» إلى الأبد. أدخلني المسيحي الشاب إلى شقته التي كانت ملأى بصناديق كرتونية، وهو سيغادر مع أسرته لبنان إلى انكلترا. لأن قريته في الشوف، هدمت وقَتَلَ الدروز اثنين من أولاد عمّه، وبقي أخوه وحده يُحارب.

ــ كيف حاله؟

أجاب شربل:

ــ إنه قاتلٌ شأن الآخرين.

اعتذر مني وراح يرتب كتبه في علب الكرتون، في حين لم يعد ينظر إليَّ، فجلست على الفراش الموضوع على الأرض.

ــ ماتت أنتيغون في شاتيلا.

رفع كريون إحدى ذراعيه، وتوقف عن الحركة، وهو يمسك بقاموس في طرف يده.

ــ لقد اغتصبوها، وخنقوها وذبحوها.

أدار لي شربل ظهره، وجلس على الأرض، أمام الحائط.

ــ قتلوا أسرتها أيضاً.

انتصبت واقفاً. كان عليَّ أن أشغل الغرفة التي هجرها للتو.

ــ ماذا تريد، يا جورج؟

ــ أخاك.

استدار شربل ببطء.

ــ كيف ذلك، أخي؟

كنتُ واقفاً أمامه، فشعرت أنني بدوري أنني جلاده.

ــ كان في شاتيلا.

ــ ما جدوى ذلك؟ هل سيعيدها ذلك إلى الحياة؟

رحت أصرخ بصوت إيمان، أظهرتها تتصارع تحت الضربات، وهي تصرخ من الرعب ومن الغضب، وتقتلع شعر جلادها. رويت له كيف كانت الدماء تنفر من عنقها المفتوح، وكيف كان

فخذاها ملطخين بالبراز، فوقف شربل، وأسند ظهره إلى الحائط.

ــ هل تعرف ما يحدث في الجبل؟ يحرقون كنائسنا، وبيوتنا. لقد قتلوا نساءنا وأطفالنا! أتسمعني؟

بحث في حقيبته، وأخرج تمثالاً للعذراء قُطِع رأسه.

ــ هذا كل ما بقي من ديرنا. أتفهم ذلك؟

ــ لا علاقة لإيمان بذلك.

ــ لكن لكل الناس مسؤولية ما في الحرب! لو لم يكن الفلسطينيون هناك، لما انفجر الوضع!

أطلعته على إعلان. إنه مشروع رسمتُه ثم طبعَه على ورق الحرير رفيقٌ يشتغل في الطباعة. كان هذا الإعلان دعاية لمسرحية أنتيغون، مع أسمائنا، واسم شربل، وإيمان، و«نكد»، ونبيل، ونمر، وحسين، وخديجة، ومادلين ويفكينه. كان فيها اسم سامٍ، واسمي، والعلامات الرمزية للقنصليات وكذلك للمؤسسات الثقافية. كانت بيضاء وحمراء وخضراء وجميلة، تزينها أرزة، شأن شجرة أنساب، وهي تجمع هؤلاء الأعداء غصناً بغصن لينحدروا نحو جذع زُرع في الأرض ذاتها. أرني هؤلاء الذين أحرقوا قريتك، على هذه اللوحة الإعلانية. أعطني الأسماء. من هجم على كنيستك؟ هل هي إيمان؟ أم «نكد»؟

لقد مات «نكد»، أخرِج عنوة من سيارة وأعدمه رفاقك رمياً بالرصاص.

صرخ شربلٌ قائلاً:

ــ إنهم ليسوا رفاقي!

ــ إنهم رفاق أخيك! والأمر ذاته!

ــ كلا ليس الأمر متماثلاً. إنني لست قاتلاً، ولم أقتل في حياتي أحداً على الإطلاق، ولن أقتل أحداً البتة. إنني راحل، هل تفهم ذلك؟ إنني أهرب، لم أعد أرغب في البقاء في هذا البلد.

وضعت لوحة الإعلان على علبة كرتونية للأواني، ومددت يدي إلى شربل، إلى كريون، إلى صديقي، الحلم. أخذها، لا أدري أياً منهما كان أشد ألماً.

كنت على وشك الرحيل. أدرت له ظهري، وعدلتُ عن سبب مجيئي.

ــ سيكون أخي هنا غداً.

توقفت عن التنفس.

ــ يريد أن يودعني ليتمنى لي حظاً سعيداً.

لم أجرؤ على النظر إلى شربل.

ــ لماذا تقول لي ذلك؟

ــ لم أقل لك شيئاً.

عندما التقت نظراتنا شعرت أنه قد استعاد اطمئنانه.

ــ هل يمكنك أن تعيش مع هذا الشعور، يا شربل؟

ــ وأنت، يا جورج؟

لم يكن عندي جواب. لم يعد عندي شيء على الإطلاق. لم يعد لي ساقان، ولا رأس، ولا جوف، ولا قلب. لم أمدّ له يدي وأنا أرحل. لم يقدم لي يدَهُ. لقد حكمنا أنا وهو على رجل بالموت. أنا من أجل إيمان، ومروان من أجل «نكد». ماذا حدث له، لم أعرف شيئاً عنه قط. فكرتُ ببولينيس وإيتيوكل. كنتُ مجنوناً. وفي تلك اللحظة الفظة،

رحت أفكر بالجمال المأسوي. لقد مد لي شربل سكيناً وكنت أنظر إلى نفسي في النصل.

طلبتُ منه ألّا يكون حاضراً في اليوم التالي، فأجابني أنه لن يكون هنا، ولم يرافقني حتى العتبة.

ــ وجئتَ تصنع السلام؟

لم أجبهن ولم أجرؤ على أن أقول له إن قاتلاً درزياً سيكون إلى جانبي. أخفيتُ عنه مروان. فغداً، سأدخِل إلى هذا البيت المسيحي عدواً من الجبل. لن أدعمه، ولن أؤيده، وأنا أعرف أن قرى تموت من المعسكرين.

*

كان الميليشيوي على سلم الدرج، فدق مرتين، ثم أدخل المفتاح في القفل، وحين دفع الباب ناديته.

ــ جوزيف ـ بطرس؟

استدار كونه فهم الوضع، ووضع يده على مسدسه في اللحظة التي دفعه فيها مروان ورجل آخر إلى داخل البيت، فدخلتُ خلفهما، وأغلقتُ الباب. كان المسيحي قد طُرح أرضاً، ومسدسه في الطرف الآخر من الممر، وكان الدرزيان يضربانه بأقدامهما. لقد هشّما رأسه، وأنفه، ونحره. مررت إلى الطرف الآخر، ولم أكن أشعر بشيء. كنتُ في باريس في عام ١٩٧٣، وأدّبت أحد أفراد عصابة الجرذ الأسود، لذلك تراني أعرف تلك الضربات، وتلك الدماء، وطقطقة العظام

التي تتهشم. جلس مروان القرفصاء، وراح يضرب وجه الميليشيوي بقبضتيه، ويصرخ بالعربية. كنتُ أسمعُ اسم «نكد» ينهمر كالمطر. رفعه من شعره، وهو يضرب نحره على الإسمنت ضربات كثيرة، ثم رفع قدمَه قبل أن يسحقَ وجهه، الذي أمسى عصيدة بشرية التصقت بنعله. أما الدرزي الآخر فقد أخرج خنجراً وركع ليقطع حنجرته.

أمره مروان قائلاً:

ـ انتظر!

نهض واقفاً، وذهب ليحضر مسدس الكتائبي الذي هو من طراز «Colt 45» فصلاه بحركة جافة، واقترب مني ومده لي.

كنتُ مستنداً إلى الجدار، ولم أحرك ساكناً بل كنتُ أنظر، والدماء تسيل على الأرض، مُشكِّلة واحة سوداء تُنقطها فقاعات رمادية. كان مروان أمامي حين خطا فوق ضحيته التي كانت تحت سيطرته، ومدّ لي السلاح. وبعد أن منعه عني، اقترح عليَّ الدرزي بغتة أن أشارك في الحرب، كما طلب مني أن أغلق الباب خلفي إلى الأبد. نظرتُ إلى يديه الريفيتين، وأصابعه المتلفة، وأظفاره التي كسرتها الحياة الواحد تلو الآخر. نظرت إلى المسدس المطلي بالنيكل، وعقبه الذي رُسِمت عليه الأرزة. كنتُ قد رأيت ذاك الرسم على طول الطريق المؤدية إلى شاتيلا حيث كان كشّافون قد وضعوا علامات على طريق القتلة ليهتدوا بها، وهي الأرزة، وشعار «القوات اللبنانية»، وسهم. يجب ألّا نتيه في الطرقات، هيّا، أيها الرفاق، فالمخيمات عزلاء، فقد رحل الرجال وهم يشيرون بحرف V علامة النصر؟ وبقيت نساؤهم هنا، وكذلك شيوخهم وأطفالهم، الذين يصبحون أعداءنا في الغد.

فلنذهب إلى هناك! إن تركَهم يعيشون يعني إعادة تشكيل صفوفهم. فكروا بشهداء الدامور، فالدماء مقابل الدماء.

أخذتُ السلاح الممدود، ترك لي مروان المكان فوق المسيحي. كانت ساقاي متباعدتين، وأنا أضم جسمه بين قدميَّ وقد انعدمت معالم وجهه. ثمة شيء يسيل على وجهه، ويشبه عيناً. كان يخبطُ بساقيه، وبذراعيه، ويتشنج شأن حيوان جريح. أخذتُ المسدس بيديَّ، وحبسْتُ أنفاسي، ساقاي ترتجفان لأنني سأقتل إنساناً. نظرتُ إلى مروان الذي كانت نظرته حزينة وخالية من الغضب، والحقد، فأدركتُ أنني ما زلت أستطيع أن أعدل عن القتل، وأن أقفز فوق هذا الجرح الحي وأعود إلى المنزل، وهو لن يلومني على ذلك. نظرتُ إلى الدرزي مرة أخرى، فأدركت أنه غادر، وبأنني أصبحت وحيداً. كنتُ وحيداً. وبجسمي الذي يحمل هذا السلاح الثقيل في طرف يدي والبندقية مرفوعة، والسبابة على الزناد، أطلقت المسدس كمن يُصوب في غابة، بيديَّ، فحدثت صدمة في الكتف، وصخب ينهار، وشظايا قشرة.

صوبتُ الرأس، وضغطتُ ببطء، فخرجتْ الطلقة بعنف، وفوجِئت بذلك. ظننتُ أن إصبعي لاتزال يستطيع التراجع وأنني أخطأتُ. أطلقتُ في الجبهة، بين الجرحين اللذين يغطيان عينيه، وذُهلتُ من اللحم الذي سال على بنطالي. بقيتُ هكذا، أدندنُ، والسلاح في يدي، أنظر إلى الدخان الخفيف. لقد مكثتُ جامداً لأنني قتلتُ قاتلاً فغذوت بدوري قاتلاً، والتحقتُ بالحرب. وبعدها نزع مروان، بلطف، السلاح من يديَّ، ورماه على جسد مُعَذّبي.

خرجنا إلى الشارع حيث افتتحا مسيرتنا وتبعتهما وأنا أترنحُ. لقد

قتلنا رئيساً كتائبياً في منطقة نفوذه في الأشرفية، وكان الأمر رهيباً. انطلق مروان في سيارة، سرقها ليلة أمس على الجسر، وأخذني الدرزي الآخر على دراجة نارية، فضممتُه كما تختبئ امرأة برجلها، وكنتُ أرتجف وأشعر بالبرد لأنه انطلق بسرعة تفوق سرعة ما عشته الآن. كنتُ بحاجة إلى أن أمشي، وأجلسَ، وأفكرَ، فلقد قتلتُ، وهذا يعني أن أموت. لن أستطيع بعد الآن أن أنظر إلى طفل وجهاً لوجه على الإطلاق. فالأطفال يعرفون، إنهم يستشفون الشر، يرون الشيطان في نظرة الكبار. لن تعدْ لويز ترى أباً، لكنها سترى غولاً. لن ترَ أورور بعد الآن زوجاً، لكنها سترى تهديداً. ستصير أحلامي كوابيسَ، وستصبح أيامي سناجاً. لقد قتلتُ، ويمكنني أن أقتلَ أيضاً، ولم أحس شيئاً. فقد خفق قلبي شأنه بعد سباق جنوني، وكنت بحاجة إلى الماء، إلى حمَّام، إلى زجاجة بيرة. فهل أنا مستعد لإعادة الكرة؟ لمَ لا. الأمر في منتهى السهولة. على كل حال، هذا الرجل كان شبه ميت، فأنقذتُهُ من الاحتضار. لم أقتله، لقد حررتُه. أسفتُ أن شربل لم يكن على الباب، وتصورتُ نفسي أمامه، وقد تدثرتُ بجبة بيضاء إغريقية، وأنا أمنعه من دفن أخيه. رأيتُ ذاتي رائعاً، هائلاً، وأنا أرفضُ قبراً لهذا النذل، وأحرمُه من احتفال مأتمي. أحببتُ نفسي كملك لهذا العالم، وأنا أقدم جثته اللعينة إلى الغربان. كان الدرزي يسحقني وأنا أضمه بذراعيَّ. كنتُ فاغر الفاه، لكن من دون دموع. كنت أريد أن أقدم دموعي إلى جوزيف ــ بطرس، إلى «نكد»، إلى إيمان، إلى سام، ولويز وإليَّ، وخفتُ أن أموت من دون أن أبكي مطلقاً.

٢٣

طرابلس، شمال لبنان

الخميس في ٢٧ تشرين الأول ١٩٨٣

ـ لم أره! اللعنة! لم أره!

أوقف مروان سيارته فجأة في الظلام، وتراجع بها إلى الخلف إذ لم يكن، يوم أمس، هذا الحاجز السوري هنا. كان الجنود السوريون يغيرون في كل ليلة مكان نقاط المراقبة الواقعة على تخوم المدينة، وكانت تلك النقطة محجوبة بشجرة. وحين مررنا لنرى، أطلق جندي الرصاص في الهواء.

تمتم الدرزي قائلاً:

ـ لا تتكلم. دعني أتصرف.

تقدم ببطء ثلاثة جنود من دمشق، وصوّب اثنان منهم أسلحتهما علينا، وكان الثالث يأكل بندورة. خفض مر3وان زجاج نافذته، وأوراق السيارة بيده، فضرب الجندي ذو الرتب العسكرية باب السيارة برجله، تراجع، وصرخ لننزل، فخرج مروان رافع اليدين.

أمر فظٌ: ركع مزوان.

وصل الآخر إلى علوه، فتحدث بلطف، وأشار بإصبعه إلى المَحْرَس، وإلى الأكياس الرملية، والعلم السوري، ووجه الرئيس

حافظ الأسد. لم يره السائق؟ هكذا إذن؟ لم يرَ العلم؟ ولا صورة الرئيس؟

كنتُ على وشك الخروج، فأشار إليَّ جندي سوري أن أبقى في الداخل. دقّق في جواز سفري وهو يمسكه بالاتجاه المعاكس، فتش جندي آخر صندوق السيارة. فجأة عاد مروان، وهمس لي قائلاً:

ـ يريد ماءً.

أعطيته زجاجة الماء خاصتنا، فذهب سائق السيارة نحو الجندي، وهو يمد له الماء، ثم رجع إلى وضعيته الجاثية فابتدأ الآخر بالشرب ثم بصق لأنّ الماء فاتر جداً. صرخ، وسكب ما بقي في الزجاجة على رأس الدرزي، ثم أمره بالوقوف، وقاده إلى المحرس فأراه البندورة، وطرح عليه سؤالاً. أجاب مروان. لقد أرغمه الآخر على تقبيل العلم، وصورة الرئيس، ثم صفعه بعنف وضربه بقدمه في كليتيه، فسقط مروان، ثم نهض، ونفض الغبار عنه وهو عائد إلى السيارة. كانت يده ترتجف، فانطلق بالسيارة، وهو يحيِّي الجنود الذين كانوا ينظرون إلى مكان آخر. بعد قليل، بصق من النافذة المفتوحة لأنه أهِينَ. كانت كبريائي قد جُرحت عنه، ولمتُ نفسي لحضوري مشهد الإعدام هذا.

ـ هل أعاد لك جواز سفرك؟

هززت رأسي بالإيجاب.

سألت:

ـ ماذا كان يفعل بالبندورة؟

ـ أراد أن يعرف إن كنتُ فلسطينياً.

كان السوريون يطاردون مقاتلي عرفات، فحين يوقفون رجلاً،

يُرينه البندورة ويطلبون منه أن يلفظ اسم هذا الخضار. فبلهجته، يجيب اللبناني «بَنَدورة»، أما الفلسطيني فيقول «بّنْدورة». لقد أوقفوا المئات بهذه الطريقة.

ــ لماذا لا يُجيبون كما يُجيب اللبناني؟

نظر إليَّ مروان نظرة جانبية.

ــ لأن لهم عزتهم وكرامتهم.

*

بعد أربعين دقيقة، على الطريق الساحلي، وقعت سيارتنا على دبابة سورية لكنني كنت نائماً، فصرخ مروان وهو يفتح باب السيارة من جهته:

ــ إخرج من هنا، يا جورج.

٢٤

جورج

تمتم الرجل العجوز قائلاً:

ـ لقد لاقيت الموت، لكنك لم تُقتل.

أشعل سيجارة، وجلس على كعبيه، ثم سكت، وهو يراقب ضوء النهار الخجول الذي يبزغ.

نظرت إلى ساقي حيث كانت الدماء تتدفق، ورأسي يؤلمني، ولديّ رغبة في التقيؤ، وكذلك للنوم، فشعرت بالبرد، ولم أعد أعرف شيئاً. كان صراخ في الخارج، واستمر، فدخل رجلان إلى المرآب راكضين، وألقيا بنفسيهما بجانبنا في الحفرة حيث جُرحَت ذراع أحدهما فكان يتكلم العربية، بسرعة وبصوت عالٍ.

ترجم العجوز الفلسطيني قائلاً:

ـ يطوقنا السوريون، ويطلقون النار على كل شيء يتحرك.

ظننت نفسي وحيداً في المخبأ، لكن في أعماق الخراب، بدا أشباح لآخرين خلف جدار خرب، في مكتب الاستقبال القديم، وكذلك تحت السيارات المحروقة، وفي حفرة التصليحات. كنا ثلاثين محاصرين، فصوّب الرجل العجوز بندقيته استعداداً للهجوم.

ـ إن بقينا هنا فسنموت جميعاً، لنخرج كلنا معاً!

ألقى أمراً مقتضباً فسمعنا طقطقة مغلاق الأسلحة عينها، في كل

مكان في الظلام، ثم راح يُصلّي، وهو راكع، ويداه مفتوحتان. حاول فلسطينيان الخروج، وحدهما، فسقط الأول عند الباب، وهو يُغطي جسم مروان، ورجع الثاني ليقيم في مأمن.

أخرجت تراب يافا من حقيبتي.

سألت المحارب القديم:

ـ من أين أنت قادم؟

ـ من الأردن في تموز من عام ١٩٧١.

ـ ولكن قبل ذلك؟

ـ إنك تعني بيتي؟

هززت رأسي فابتسم، وأشعل سيجارة أخرى.

ـ من بيت لحم.

فتحت كيس إيمان المذهب.

ـ افتح يدك.

تردد الرجل العجوز لحظة، ثم قدم لي راحته دون أن يفارقني بعينيه، فسكبت التراب في قعر التجاعيد السوداء.

ـ ما هذا؟

ـ إنه تراب فلسطين.

بدا حائراً، ونظر إليَّ من جديد وهو يشدُّ على قبضته. أما أنا فكنت متألماً، وحرارتي مرتفعة، وجسمي كان كله ينتفض ألماً. خرج رجل، فتهاوى ساقطاً، وآخر، وآخر أيضاً حيث الرشاش يطلق رصاصه. بقيت الدبابة متأهبة وكانت تمسح مخبأنا، فتطايرت شظايا الباب، والجدار، والسقف.

جلس الفلسطيني القرفصاء وقد استدار نحوي.

ــ ما اسمك؟

ــ جورج.

هزَّ رأسه.

ــ أهلاً وسهلاً. أدعى مهدي.

ابتسمت.

ــ سنموت، يا جورج، هل تعرف ذلك؟

نظرت إليه.

بسط التراب على يديه، ثم فرك به وجهه، وجبينه، وأنفه، وخلف أذنيه، ببطء كمن يتوضأ قبل الصلاة.

أخرجت قلنسوة سام، فبدتْ حركة من الفلسطيني.

مهدي:

ــ هل أنت يهودي؟

جورج:

ــ كلا.

مهدي:

ــ كيف تقول لا؟

جورج: (نهض بصعوبة).

ــ لم أعد شيئاً ما.

مهدي:

ــ إلى أين تذهبُ؟

جورج:

ــ أعود إلى بيتي.

مهدي:

ــ ستموت إن خرجتَ.

جورج:

ــ لا أحد يترك هذا العالم وهو حي.

الجوقة

نظر الرجل العجوز إلى جورج، وبدت منه حركة ليمنعه من الخروج في حين كان الفرنسي يلبس قلنسوة سام على رأسه، ومعه مفتاح يافا. لقد ترك حقيبته على الأرض، وتعثر عند المخرج، وحزامه على فخذه كمشد. في عتمة المرآب، راحت الأشباح تنظر إليه وهو يبتعد بدون كلمة، بساقه الميتة، فهمس له أنويْ قائلاً إن المأساة كانت مريحة، وملائمة. ففي الدراما، مع كل هؤلاء الأبرياء، والخونة، والآخذين بالثأر، يصبح الموت معقداً. فالمرء يناضل لأنه يأمل بالنجاة، وهذا ضروري ومجدٍ، لكنه شائن، أما في المأساة، فالموت مجاني. ليس في المأساة أمل، هذا الأمل القذر الذي يُفسد كل شيء. إن المأساة للملوك. لقد سقط جورج مرتين ثم نهض، واصطدم بعارضة ملقاة مواربة، ووصل إلى باب المرآب وقد اجتاز الجدار الرابع، ذاك الذي يحمي الأحياء.

هكذا أخذه الموت، قلنسوة على رأسه ومفتاح في يده.

الخاتمة

«في الحقيقة، من دون الصغيرة أنتيغون، لكان الجميع مرتاحين تماماً. أما الآن، فلقد انتهى كل شيء. إنهم مع ذلك مرتاحون. لقد مات كل الذين كان عليهم أن يموتوا، وكل الذين كانوا يؤمنون بشيء، ثم كل الذين كانوا يؤمنون بعكس ذلك وحتى الذين لم يكونوا يؤمنون بشيء، لكن التاريخ أخذهم على حين غرة من دون أن يفقهوا شيئاً من الأحداث. ماتوا شأن الآخرين، كلهم، متشنجين، لا يجدون نفعاً، ومتفسخين. وهؤلاء الذين مازالوا يعيشون سيشرعون بنسيانهم وبالخطأ بأسمائهم. انتهى كل شيء.»

جان أنويْ
أنتيغون
(١٩٤٢)

المحتويات

صدر للكاتب

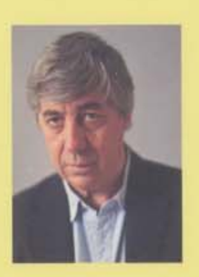
LE PETIT BONZI, GRASSET, 2005.

UNE PROMESSE, GRASSET, 2006, (prix Médicis).

MON TRAÎTRE, GRASSET, 2008.

LA LÉGENDE DE NOS PÈRES, GRASSET, 2009.

RETOUR À KILLIBERGS, GRASSET, 2011 (Grand prix du roman de l'Académie française).



كانت فكرة سام مجنونة، واقتفى جورج إثرها.

لاجئ يوناني يعمل في الإخراج، أخفى أصله اليهودي؛ حلم بتمثيل مسرحية أنتيغون لآنويْ على ساحة معارك في لبنان.

في العام ١٩٧٦، ارتكبت مذابح في هذا البلد، فقرر جورج أن أرض الأرز ستكون هي المسرح، فقام بالرحلة إليه، فاتصل بمقاتلي الميليشيات، أي بكل الذين تحاربوا. أما فكرته فكانت تمثيل مسرحية أنوْي على خط الجبهة. كريون هو المسيحي؛ أنتيغون هي الفلسطينية. هيمون هو الدرزي؛ الشيعة حاضرون هناك أيضاً، ومعهم الكلدانيون والأرمن. لم يكن يريد منهم جميعاً سوى ساعة هدنة، ساعة واحدة لا غير. لن تكون سلاماً، بل مجرد لحظة رحمة. استراحة في الحرب. ومضة شِعر، وصمت البنادق. وافق الجميع، وكان ذلك يفوق التصوّر.

بعدها أصيب سام بمرض عضال، وعلى فراش الموت، طلب من جورج أن يقسم له بمتابعة المشروع والانتقال إلى بيروت، وجمع الممثلين واحداً واحداً، وانتزاعهم من الجبهة ليمثلوا الحفلة الفريدة.

أقسم جورج لسام، صديقه، أخيه، بأنه سيفعل.

سورج شالاندون، من مواليد عام ١٩٥٢، عمل صحفياً لفترة طويلة في صحيفة ليبراسيون قبل الانضمام إلى الكانار آنشينيه. تقاريره عن إيرلندا الشمالية ومحاكمة كلاوس باربي أكسبته جائزة «ألبرت لندن». في عام ١٩٨٨، نشرفي دار غراسيه، ثماني روايات من بينها روايتاه الأخيرتان، العودة إلى كيليسبرغ (الحائزة على الجائزة الكبرى للرواية من الأكاديمية الفرنسية ٢٠١١)، والجدار الرابع (الحائزة على جائزة غونكور للثانويين ٢٠١٣).


ISBN 978-614-432-219-2